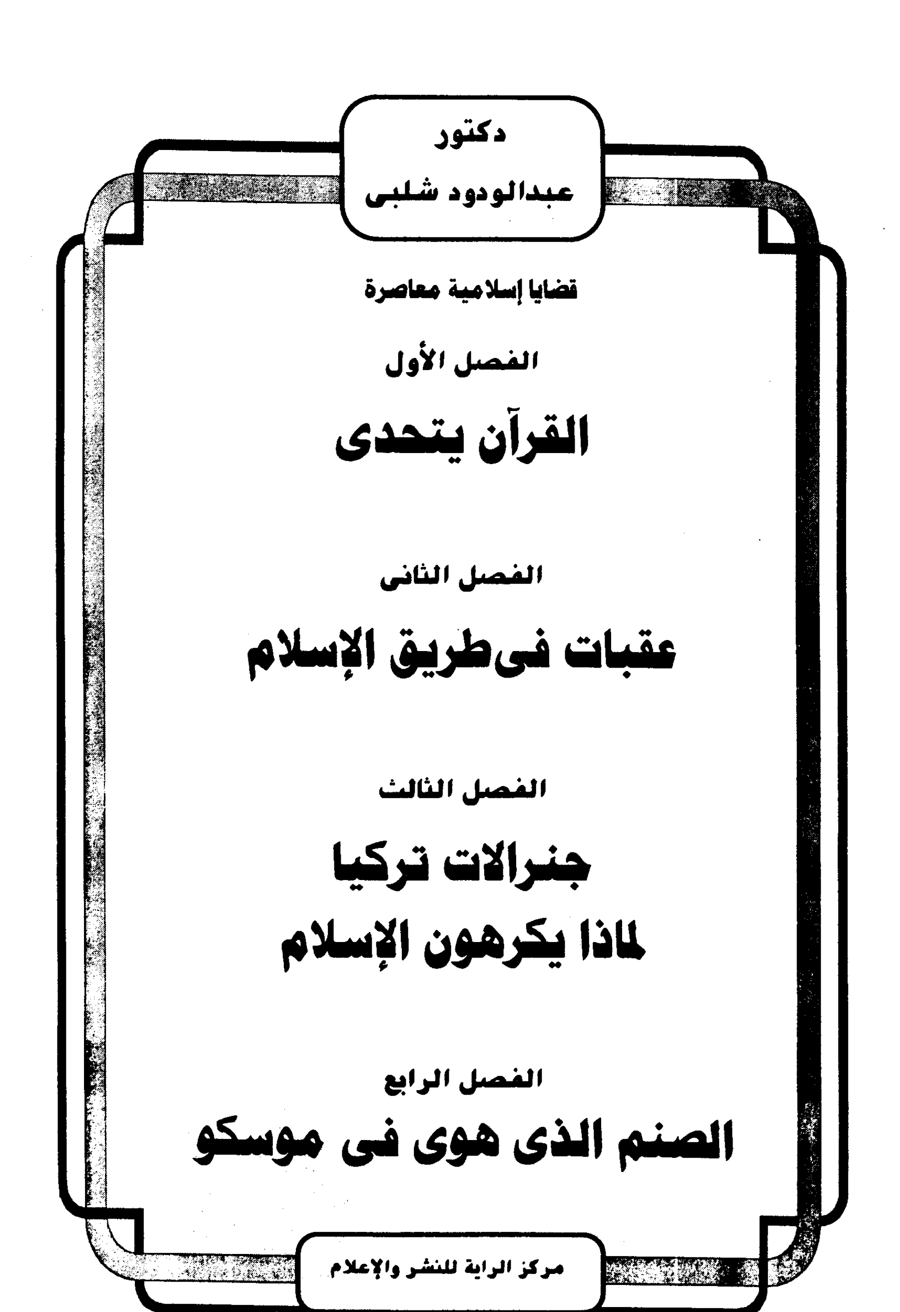


دكتور
عبدالودود شلبى

قضايا إسلامية معاصرة

الفصل الأول

القرآن يتحدى

الفصل الثانى

عقبات فى طريق الإسلام

الفصل الثالث

جنرالات تركيا
لماذا يكرهون الإسلام

الفصل الرابع

الصنم الذى هوى فى موسكو

مركز الراية للنشر والإعلام

اسم الكتاب	القرآن يتحدى
المؤلف	د. عبدالودود شلبى
تصميم الغلاف والإخراج الفنى	أحمد فكرى
الناشر	مركز الراية للنشر والإعلام
الطبعة	الثانيــــة ٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن . لا يأتون بمثله. ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.. ﴾

سورة الإسراء : ٨٨

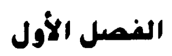


إلى التـــائهين

في العالم الإســـلامي

حتى لا تكون فتنـــة ..

ويكون الدين كله للـه ..



الفصل الأول

القـرآن يتحـدى

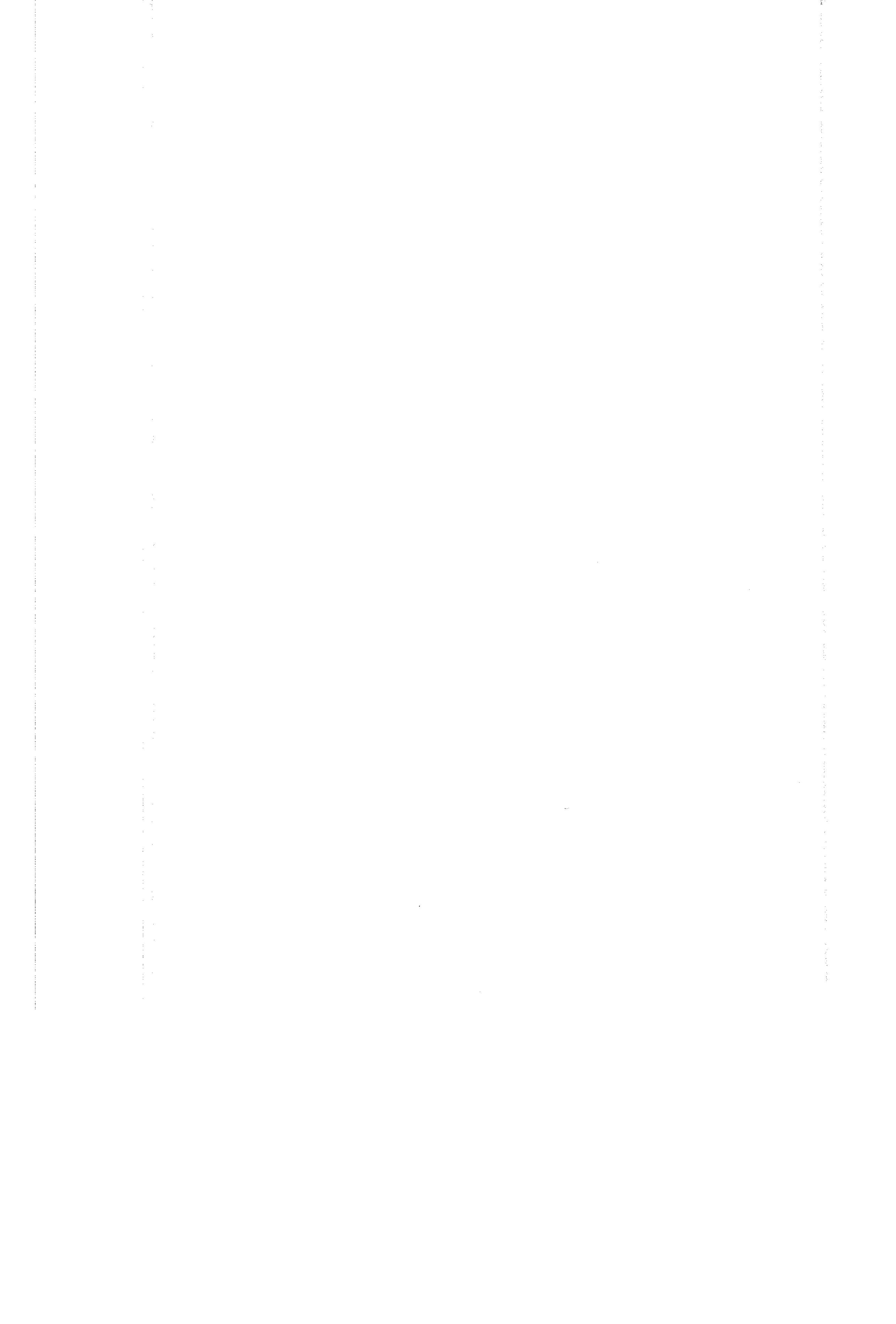
حوار

بين علامة المسلمين فى الهند

مولانا عبد العليم الصديقى

وبين الكاتب الفيلسوف البريطانى

برنارد شو



فى صبيحة الأربعاء ١٧ من إبريل ١٩٣٥ ، جمعت الصدفة الطيبة بين الشيخ عبد العليم الصديقى رحمه الله والكاتب الإيرلندى الشهير جورج برنارد شو . وكان لقاؤهما فى منزل حاكم ممباسا . فدار بينهما هذا الحوار الذى ننشره معرباً عن اللغة الإنجليزية :

شو : يؤسفنى أن ارتباطاً سابقاً قعد بى عن شهود محاضرتك البارحة وقد كنت بالغ الحرص على حضورها . دار حديثك حول فلسفة السلام وقد كان الأجدر بك ما دمت مسلماً لو تحدثت عن فلسفة الحرب لأن الإسلام إنما انتشر بحد السيف . !

الشيخ : هذا سوء فهم شائع للإسلام وقد تناولت تلك المسألة بالبحث فى حديثى البارحة . وإنى لأعجب حقاً كيف يتسنى لأسطورة كهذه ثبت بطلانها وانكشف أن تنال حظاً عند عالم فى مقامك ومهما يكن فدعنى أخبرك أن كلمة (الإسلام) ذاتها مشتقة من (السلام) . وقد حفظ لنا فى القرآن والسنة سجل ثابت لتعاليم الإسلام فى صفائها الفطرى ، وهى تقرر بما لا يدع مجالاً للريب .. إن الإسلام لا يبيح استعمال السيف إلا فى وجه العدوان السافر الذى يلجئه إلى أن يدفع عن نفسه والقرآن يقرر أن (لا إكراه فى الدين) مما يحرم بوضوح استعمال القهر والقسر فى شؤون الدين ، ويجعل الحجة والبرهان هما طريق الدعوة فيقول : (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) .

والأسلوب الذى يرشد إليه الإسلام فى سبيل نشر دعوته والذى أدى فى الماضى والحاضر إلى أن يتقبله عقلاء الناس وأن يبلغ أرجاء العالم تتضمنه هذه الآية : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وعلى العكس من ذلك يشهد التاريخ بأن عقيدة اتحاد المسيح والأب إنما أعلنها مجلس « نيس » الذى دعا إليه قسطنطين فى بثيانا فى عام ٣٢٥ بعد الميلاد ومن أجل التمكين للإيمان بألوهية المسيح اتبع سبيلاً مفرطاً فى البشاعة منافياً للإنسانية سفكت فيه دماء الألوف من الأبرياء الذين أنكروا تلك العقيدة . وقد جرى ذلك لا فى أوربا وحدها بل فى بيت المقدس الطاهر . ولكن رغم ذلك لا أرد مغبة هذا كله إلى المسيحية الحقة بل يقع عبء اللوم كله على ممثلى الكنيسة الذين أرادوا أن ينطبع مجدهم وسلطانهم فى قلوب الناس وأن تستقر سلطتهم الدينية .

وكذلك نرى أن الحروب الصليبية الدامية تمخضت عن التدبير الميكافيلى النفعى لفئات من القساوسة حين أدركوا أن دعوة الإسلام الخالصة إلى وحدانية الله تقوم حجر عثرة فى طريقهم وأن سلطتهم الدينية المبتدعة فى خطر من ذلك فشنوا حملة فاجرة فى وجه الإسلام والمسلمين وحرضوا أوربا- وقد كانت غرة فى تلك العصور المظلمة - أن تشن الحروب التى زعموها مقدسة ضد الإسلام والمسلمين وذلك بأن أشاعوا خرافات موغلة فى الوهم من فتك المسلمين بالمسيحيين وتحدثت عن كفر المسلمين وانهم أعداء ألداء للدين والمال والنفس .

وهب أن بعضاً من حكام المسلمين وقبائلهم - بعد عهد طويل من ظهور الإسلام - قد دفعتهم شهوة الفتح إلى الاعتداء وإطلاق دواعى الحرب ابتغاء الكبرياء فى الأرض .. لو سلمنا بذلك جدلاً . فإنه ليس يحق لنا إلا أن ندين أولئك الأفراد على

جرائمهم تلك ، ولا ينال الإسلام شئ من ذلك بالطبع .

شو : لا شك أن المتعصبين فى الكنيسة الرومانية ينالهم نصيب وافر من المسؤولية عن تلك الحوادث الأليمة ، ولا شك أن تعاليم المسيح الصافية لا شأن لها بوقوع ذلك . وقد نقر أيضاً سيادة كثير من ضروب الفهم الواهم للإسلام ، وإنه طالما صور بوجه خاطئ لكن هل توافقك الجماهير المسلمة على تفكيرك ؟ وهل يعتقد هؤلاء أن الإسلام لم يسبق له أن انتشر بالقهر وما ينبغى له ذلك ؟

الشيخ : إن كل مسلم ملزم بالأخذ بهذا القول ، فهو ما يقرره القرآن على وجه التحقيق ، ولا دخل فيه لتصوراتى وآرائى الخاصة ، وقد نشرت فى ذلك كتب كثيرة ، وتناوله باستفاضة جملة من علماء الدين الإسلامى طرقوا سائر جوانبه ومن بينهم السيد أمير على والسيد أحمد خان والعلامة الشبلى ..

شو : لا يغيب عنى أن بين الإسلام والمسيحية تلاقياً ملحوظاً ..

الشيخ : ولا يقتصر ذلك التوافق على الإعراض والأسماء بل إن الإسلام يعلن صراحة أنه ما دام وجود الله هو غاية كل دين ومصدره فإن وحدة حقيقة الأديان أمر محتوم لقد ساد تصور الإسلام على أنه دين جديد ، مع أن القرآن نفسه يعلن أن دعوته الدينية ليست إلا ذات الدعوة التى دعا إليها الرسل السابقون من إبراهيم إلى عيسى ، صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً . فقد بعثهم الله جميعاً لينشروا نفس المبادئ وما كانت بعثة خاتم الرسل إلا لأن الرسالات السابقة قد بدلت وامتد إلى جوهرها الفساد ودخل فى أصولها الوضع فجاء الرسول مصدقاً لما بين يديه ومعززاً ومكملاً لتلك الرسالات الخالدة وقد أشار القرآن

إلى ذلك إشارة جلية حيث قال : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

شو : إن تراجم القرآن التى اطلعت عليها تصدق كل ما جاء فى حديثك وتروق لى كثيراً من بين هذه التراجم واحدة تنهج فى ترتيب السور منهجاً مستقلاً وقد كانت تلك الترجمة لا تكاد تفارقنى أبداً إبان رحلتى فى المغرب والجزائر وكانت إشاراتى العابرة لمضمونها مبعث كثير من المتعة والانشراح لمسلمى تلك البلاد . وقد أوصيت بعض الناشرين بنشر تلك الترجمة على نطاق واسع .

الشيخ : لعلك تشير إلى ترجمة المستر رودهل ..

شو : نعم .

الشيخ : لا ريب أن المستر رودهل قد بذل كل طاقته واستنفد جهده فى ترجمة سور القرآن حسب ترتيبها الزمنى . لكن بضاعته من الأدب العربى والتاريخ الإسلامى لم تكن من اتساع الساحة وبعد الغور بما يجنبه الخطل . فجاء كثير من عباراته مجانباً للقصد ممعناً فى الوهم . ولا أرد ذلك بالطبع إلى سوء النية بل لما ذكرت من قصور معرفته .

وأود أن أقترح عليك – فى هذا الصدد – ترجمة معانى القرآن للمستر بكتهول وإنى واثق أن الإطلاع عليها سيمكنك من تذوق جمال القرآن الرائع وحكمته النافذة وتلمس أسلوبه فى سوق الكلام وطيب وقعه فى النفوس . ولا أقول لك أنك واجد فى تلك الترجمة صورة صادقة للأصل فجدير بكاتب مرموق مثلك أن يقدر أنه ما يكون لمترجم – مهماً علا كعبه–

كعبه- أن ينقل كتاباتك إلى لغة أخرى دون أن يسلبها كثيراً من الروعة والتوقد .

شو : حقاً أن روح الكلام لا يتسنى أداؤها عند ترجمته للغة أخرى و لم تنج من ذلك تراجم الإنجيل ولكنها قد بلغت شأواً بعيداً نحو الكمال وما تنفك الجهود مبذولة لتحسينها .

الشيخ : مهما بلغت تراجم الإنجيل من مراتب الكمال من حيث الأداء اللغوى فلا سبيل للجزم بأنها تحتوى على الرسالة المسيحية الحقة . أو أنها روايات صادقة لإرشادات المسيح ولا يخفى عليك أن رسالة المسيح فى صفائها المنقى وكما بلغها بنفسه لم يبق لها أثر . وقد أدت التراجم المتتالية للإنجيل مع ضياع أصله الأول إلى تخليط مسرف لا يجد الباحث عن الحقيقة فى حياضه ما يشفى ظمأ ، بينما حفظ القرآن بوجه لم يحدث معه أدنى تبديل فى أصغر حرف أو شكل - ويبدو - لذلك - أن الراغب فى تعرف المسيحية الحقة لا يجدها إلا بالنظر فى القرآن.

شو : هل سلم القرآن حقاً من كل تغيير ؟ وهل وصل إلينا قطعاً فى صورته الأولى ؟ أكان محمد يعرف الكتابة ؟ وهل بقى شئ من خط يده ؟

الشيخ : إن لدينا سجلاً لا يعتريه نقص ولا يتطرق إليه شك بكل سورة بل كل آية وكلمة وردت فى القرآن . وقد كان للرسول كتاب اتخذهم لتسجيل القرآن . وكانت سنته حالما يوحى إليه بآية أو أكثر أن يبعث إلى هؤلاء ويملى عليهم ما نزل عليه ثم يستقرئهم ما كتبوا حتى يسمعه ويستوثق منه وبعدئذ يشرح لهم معانيه .

وبين أيدينا وثائق بخط زيد بن ثابت – أوثق كتاب القرآن وأجلهم – محفوظة بأكملها فى مستودعات الوثائق بالقسطنطينية ومكة . وتتفق مع هذا الأصل الثابت كل طبعات القرآن فى العالم فلا تجد فى نسخ القرآن من تفاوت ولا أدنى نقطة أو حرف أو علامة وقف .

شو : ماذا ؟ أتزعم أن فى نصوص القرآن علامات للوقف ؟

الشيخ : بلى . لكن لا كما نعهد من علامات الوقف المختلفة فى اللغة الإنجليزية ففى القرآن مثلاً مواضع للوقف اللازم أو الجائز ويجهر بأواخر الكلمات أو يخفت بها فى موضع دون آخر وهلم جرا . وتفاصيل التجويد والوقف من الدقة والعسر بما أصبحت معه تلاوة القرآن فناً متميزاً ، وكم ألفت من جلائل الكتب فى مباحث علم التجويد ورواية ما جرت به القراءات.

شو : إن هذا جله غريب على ، بل هو حقاً من دواعى دهشتى ، وقد علمت كذلك أنك ألقيت حديثاً حول الإسلام والعلم فى " نيروبى " ولا أتصور كيف يمكنك أن تعرض صورة الجنة والنار الواردة فى القرآن بأسلوب مقنع على المطلعين على العلوم الحديثة ممن تأنف عقولهم أن تقر شيئاً لم يقم عليه دليل مادى محسوس .

وإنى لأنطوي على تقدير عظيم لنبى العرب . وأدرك أنه قد كفكف من غلواء تلك الأمة الضاربة فى وهاد الجهالة والتحلل وأنه صدهم عن ارتكاب أفحش الجرائم ، وبعث فيهم الحمية للمجاهدة فى الحق ، وتلقى مكارم الفضائل والأخلاق. وما كان له أن يفعل ذلك بغير أن يصور لهم ناراً حامية رهيبة تفزع منها القلوب تقابلها جنة رخية مغرية تفيض فيها أنهار

اللبن والعسل .

وقد أعجبت كذلك بأسلوب القرآن وشدة تأثيره . فما أروع تلك الآية التى تصور مشهد القيامة المرعب ، وما أبدع الآية التى تعالج مسألة الوأد وتنتهى إلى سوال مثير للطفل - الذى قبر حياً أو قتل عمداً : " بأى ذنب قتلت " . إن ذلك عندى لأنجع مسلك للتأثير على الناس .

ولعلى بذلك أمعنت فى شجون الحديث فالذى أحرص على معرفته هو كيفية شرح مسألة الجنة والنار فى ضوء من البيان العلمى .

الشيخ : إنك لا ريب ضليع فى فن الكتابة ، وإن الأسلوب الطريف الأخاذ الذى يجرى به قلمك الساحر يحدث ثورة فى ألباب القراء ، ولكنى واثق من موافقتك على أن لغتنا المادية لا تصلح أداة للتعبير المضبوط عن ماهية الحقائق الغيبية ومعنى الظواهر الروحية دون اللجوء للتشبيه والمجاز وتقريب المعنى بالاشتباه والنظائر .

وذلك أمر لابد من الانتباه إليه حتى نجعل اعتباراً لوسائل التعبير فى تفهم وصف الجنة والنار فى القرآن ، وإذا كانت العقول تنصرف بتلك التشبيهات إلى مجرد البشرى بالمتاع الحسن فإن القرآن يدعونا بجلاء ألا نفرط فى استقراء الطبيعة الحقيقية لنعيم الجنة : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وقد جاء الحديث بأنه لا ينبغى أن نتوهم الجنة والنار من مثل ما نعهده فى الدنيا : (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) فكيف يليق مع هذا البيان أن ندعى لنعيم الجنة أدنى شبه بما يطيب لنا ونسعد به فى أمور الدنيا ؟

بل إن حقيقة الأمر على عكس ذلك ، وإذا كان إتباع سنن الكون الطبيعى يؤدى بنا تلقائياً إلى رفاهية وتقدم مادى يناسب مبلغ علمنا وعملنا بتلك السنن ، فكذلك بقدر إخلاصنا وتمسكنا بالقواعد الخلقية والروحية ومدى تحقيقها فى واقع حياتنا تبلغ درجات فى السعادة والنعيم الروحى ويعود علينا خرقها بالعذاب الروحى والشقاء المقيم .

وإذا تأملنا قانون التطور ألفينا كل شئ فى تقدم دائب ، ولكنه حتماً منته إلى غاية مطلقة لا مجال بعدها للتقدم . وهذا نفسه يسرى على ما يعترونا من تجارب الراحة والنعيم والألم والشقاء فهى حالات لابد أن تكون لها غايات قصوى . وما الجنة إلا تلك الغاية القصوى للنعمى والسعد ، وما النار إلا المبلغ الأخير للحسرة والألم .

وإذا كنا نألف من بين الأوساط المادية ما يهيئ السعادة أو يجلب الشقاء فى هذا العالم فلا غرو أن توجد فى الدار الآخرة أوساط معينة تولد السعادة فى النفس أو تثير فيها الألم والشقاء. وقد استعيرت صورة كلامية لتنقل لأفهامنا نعيم الجنة، كما ضرب مثل ملئ بالرعب والهول رمزاً للنار .

أما الدار الآخرة التى تدعوها رحبة أو سماوية فإنها تختلف عن عالم المادة ، لكن ذلك لا يعنى أنها تقتصر على الروح المجرد الذى لا يمت بصلة للمادة أو أن الأرواح تسرح فيها طليقة من عنصر المادة .

وما دام الإنسان - روحاً وجسماً - مسؤولاً عن أعماله ومحاسباً عليها ، فإن روحه يوم البعث ستقترن بجوهر فى الجسد ويشتركان على ما تقتضيه ظروف الدار الآخرة من صنوف

السعادة أو الشقاء .

يبقى علينا أن نعرف المادة ، وذلك فيما تعلم أمر غير ميسور برغم ما بلغنا من مراتب الرقى العلمى فإن ماهية المادة طلسم لم تفض بسره بعد محاولات أرجح العقول ، و لم يفلح فى تحليلها علم الكيمياء ، بل قد أعيا أكابر العلماء أن يهتدوا لمجرد تصور كنهها . وأن غاية البحث العلمى إلى يومنا هذا إنما تنتهى إلى النظرية الموضوعة للبروتونات والإلكترونات والتى تزعم أن موجات الإشعاع التى تحدثها هذه العناصر هى أساس الوجود الكونى وأن كل الأجسام الطبيعية الصلبة إنما هى أثر لتلك الإشعاعات .

وهذا مثلاً ما تقوله عن المادة مجلة (كون العجائب) :

« تبدو لنا المادة فى غاية الصلابة لكن رجالات العلم يحدثوننا أنه لو انتفى الفراغ الكامن فى الذرات التى يقوم عليها بناء الجسد ثم ركزت النوويات والإلكترونات الذرية فى كتلة جسمية ، فإن ما يحصل لنا من جسد الشخص السوى سيكون من فرط صغره غير مرئى للعين المجردة » .

فإذا جاز للعالم أن يقبل دون برهان محكم أن دورات الإلكترون السابحة حول نواتها تناهز بضعة آلاف من ملايين كل ثانية وأن أمواج إشعاعها هى قاعدة الأجسام الطبيعية الصلبة وما دام ذلك فلا ينبغى أن يتعسر على العالم تصور الجسم والروح فى هيئة - ما - تتوافق مع أنواع السعادة والشقاء التى تنتظرنا فى عالم الغيب . وربما صح الزعم بأن فى تجاربنا الغريبة - التى ندعوها أحلاماً - انعكاساً باهتاً لتلك الأحوال الغيبية .

شو : إن هذا حقاً لإيضاح شاف بليغ جميل . لكن هل يرتضيه سائر المسلمين فى العصر الحاضر ؟

الشيخ : ليس هذا الوصف مما طبخه ذهنى فهو - كما قدمت - مبسوط فى القرآن . ولا أدعى لنفسى فضلاً حتى فى طريقة عرضه فإن أسلافى الأئمة العظماء كفخر الدين الرازى والغزالى قد سلكوا هذا المنهج فى خطاب الفلاسفة النابهين من أمثالك. ولو جاز لى أداء قولى هذا بتعبير شرقى فما أنا إلا قاطف فتاتاً من مآدبهم العامرة .

إن كل تعاليم الإسلام مما تدركه الأفهام وتعيه ، وليس فيها مجال للخفايا ومبهمات الفكر وحسبها أن تشرح وتكشف على ضوء من البيان من شأنه أن يجلى مدلولها الصحيح إذ لا مناص لتفهم المصنفات فى أى فن من الفنون من أن يكون لنا فيه طول باع ولزام علينا أن نستوعب مسائله ونحصل منه معرفة وثيقة نفقه بها قضاياه الشائكة .

(ودخلت عندئذ المضيفة تذكر شو بأن الوقت قد أزف للرحيل) .

شو : إن الحديث إليك فى غاية المتعة والفائدة ، ووددت لو أنى حظيت بصحبتك أعواماً ولكنى الآن مضطر لمغادرتك لسوء الحظ .

الشيخ : وأحرص أنا كذلك على الفائدة المرجوة من تبادل الآراء مع حبر مثلك ذى حظ وافر من العلم والثقافة لاسيما وقد قلت فى الإسلام قولة فيها كثير من البشرى واليقين وإن كانت لا تصدر إلا عن معرفة . ذلك هو قولك : « سيكون الإسلام دين المستقبل للمتعلمين والمثقفين والمستنيرين من الناس » .

وقد كان مرامى من الحديث إليك حول الفلسفة العميقة والحقائق النفسية الواردة فى القرآن إن أمكن عالماً مثلك . بما وهبت من العبقرية وبما أوتيت من الإلمام بأذواق العالم المتحضر وباتجاهاته العقلية أن يعرض تعاليم الإسلام بطريقة لائقة ذات وقع على النفوس .

شو : يؤسفنى حقاً ألا يتيسر لى إلا هذا الوقت القصير فى خطاب حكيم عالم مثلك .

الشيخ : لكنى – من جانبى – ممنون لهذه الفرصة العابرة وأنتهزها لأقدم إليك نص المحاضرتين اللتين ألقيتهما قبل أيام حول " الدين والنهضة العلمية فى العالم " و " ثقافة الإسلام الروحية " وأهدى إليك أيضاً هذه الرسالة عن الإسلام وهى من تأليف صديقى إلياس برنى أستاذ الاقتصاد بالجامعة العثمانية بحيدر آباد وقد جمع فيها آيات من القرآن صنفها على أبواب مختلفة وعززها بحواش من الشرح وأرجو أن تطلع عليها وتظل على صلة بى فى كل ما يخطر من المسائل مما يتصل بالإسلام .

وسأبذل جهدى فى زيادة الإيضاح وأرد على ما قد توجهه من نقد كل ذلك تحت ضوء الهدى الإسلامى .

شو : لا ريب أن لك أسلوباً أخاذاً فى عرض تعاليم الإسلام – لكن هل يوافقك على ذلك أهل الإسلام التقليديون ؟

الشيخ : دعنى أصارحك بأنى نفسى شديد التمسك بالتراث التقليدى . وأعد نفسى فى الذين ينكرون كل تبديل فى تعاليم الإسلام . ويمثل نصب عينى دائماً الحديث الشريف :- « من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » بل إنى ممن يلتزمون بأقل إرشادات الإسلام خطراً فكيف بقواعده الأساسية .

ومن هذا القبيل أن صديقى على محمد جعفر النائب عن رئيس منظمتنا الإسلامية قد جاء بمصور يرجو أن يلتقط صورة للقائنا هذا ولكنى رفضت طلبه بلا مواربة وصرفت المصور إن الصور قد أدت إلى عبادة الأصنام وأى صورة تلتقط اليوم عرضاً وبلا مبالاة ربما أصبحت من بعد موضعاً للتقديس من معجب مفرط الحماس مع الحمية الواهمة .

ولذلك أبطل الإسلام هذا العمل ونزولاً على حكمه لم آذن قط أن تؤخذ صورتى إلا إذا لقطها لاقط دون إذنى فذلك وزره على نفسه . وقد ذكرت لك كل هذا لتلحظ فرط تأدبى إزاء حكم فرعى لا يرى بعض المسلمين المحدثين بمخالفته بأساً ولك أن تقيس على ذلك مدى ثباتى على تقاليد الإسلام فى المسائل الكلية .

شو : لقد سررت أشد السرور بالتعرف عليك ، وسيظل هذا اللقاء أغلى الذكريات فى رحلتى هذه .

❁ ❁ ❁

لقد ظهر فى الآونة الأخيرة كتاب من أهم الكتب التى تناولت الكتاب المقدس بالدراسة والنقد ، وقد اشترك فى تأليف هذا الكتاب مجموعة من أهم علماء اللاهوت فى بلاد الغرب ، وأهمية هذا الكتاب ترجع إلى كونه كما جاء فى عنوانه « خلاصة أبحاث علماء المسيحية فى الغرب »[1] .

---

(١) لقد قام بترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية – اللواء مهندس أحمد عبد الوهاب ، وقامت بنشره مكتبة وهبة فى القاهرة .

وراجع فى هذا الموضوع : الكتب التالية :

- إظهار الحق تأليف رحمة الله الهندى
- التزوير المقدس للمؤلف
- دائرة المعارف البريطانية كلمة THE BIBLE

ويبدأ الكتاب الذى بين أيدينا بالكلام عن مصادر العقائد المسيحية كما جاءت فى العهد الجديد، وينصب البحث هنا على التحقق من « قانونيتها ».

ويخرج القارئ من هذه الدراسة بخلاصة مؤداها :

أنه فيما يتعلق بالزمان والمكان والكيفية التى اكتسبت بها الأناجيل الأربعة الصبغة القانونية-أى صارت مقبولة من الكنيسة - ومن ثم اعتبرت مقدسة ، ووفقا لما جاء فى دائرة المعارف البريطانية الجزء ١٧ ص٥١٤ لعام ١٩٦٠ لا يملك العلماء إلا أن يقولوا :

« ليس لدينا أى معرفة محددة بالكيفية التى تشكلت بموجبها قانونية الأناجيل الأربعة ولا بالمكان الذى تقرر فيه ذلك - ومما يجب ملاحظته أن كليينت الرومى - عام ٩٧م وبوليكارب عام ١١٢م- قد استشهد كل منهما بأقوال للمسيح فى صيغ مستقلة فى الأناجيل التى صارت قانونية فيما بعد ..

وأما فيما يتعلق بقانونية العهد الجديد ككل فمن الملاحظ أن عملية بنائه وتقرير شرعية كتبه قد استغرقت حوالى ٣٥٠ عاما . والى بداية القرن الرابع « كان يوجد كثير من البلبلة - ويصف « ايزبيوس » هذا الوضع فيقسم الكتب إلى ثلاث طبقات :

- كتب قبلت بوجه عام ..
- وكتب لا تزال موضع جدل لكن اعترف بها على نطاق واسع .
- وكتب مرفوضة .

« أى الكتابات المسيحية تعتبر مقدسة وتجمع معا لتكون فى العهد الجديد ؟

إلى الآن - وبعد أن اقترب الألف الثالث لميلاد المسيح - لم يمكن الوصول إلى السؤال الأهم . بل والأخطر وهو :

أى الأقوال نطق بها المسيح فى إنجيله وتحدث بها التلاميذ فى رسائلهم ؟

لقد ظهرت الأناجيل بنصوص مختلفة وكلما مرت عشرات من السنين ظهرت نفس الأناجيل بنصوص مخالفة لما عرفت به من قبل وبالمثل كان الحال مع رسائل التلاميذ .. أن مشكلة « النص » تعتبر بحق مشكلة المشاكل التى تشغل بال العلماء اليوم ، والتى استحدثت بسببها دراسات وعلوم تهدف أول ما تهدف إلى معرفة حقيقة النص الأصلى ، فحين يمكن تحقيق ذلك تتحدد كثير من المواقف » .

وتقول دائرة المعارف البريطانية :

« أن النسخ الأصلية لكتب العهد الجديد – وهى إغريقية – فنيت منذ مدة طويلة وفيما عدا بعض بقايا من صعيد مصر فان كل النسخ التى استخدمها المسيحيون فى الفترة التى سبقت مجمع نيقية قد غشيها نفس المصير. وما يجب ذكره أنه حتى اختراع الطباعة لم يكن قد تم الوصول إلى اتفاق كامل فى أى من نصوص العهد الجديد » .

وتتحدث دائرة المعارف البريطانية – ص٥١٩ – ٥٢١ ج٣ عن الأناجيل فتقول :

« أن التغييرات قد حدثت فيها عن قصد . مثل إضافة أو إدخال فقرات بأكملها وبالتأكيد فان بعضا منها قد استمد من مصدر خارجى » .

ويقول فريدريك جرانت :

أن نصوص جميع المخطوطات الأصلية للعهد الجديد تختلف اختلافا كبيرا ولا يمكننا الاعتقاد بأن أيا منها قد نجا من الخطأ ، ومهما كان الناسخ حى الضمير فانه ارتكب أخطاء وهذه الأخطاء بقيت فى كل النسخ التى نقلت عن نسخته الأصلية . أن أغلب النسخ الموجودة من جميع الأحجام قد تعرضت لتغييرات أخرى على أيدى المصححين الذين لم يكن عملهم دائما إعادة القراءة الصحيحة ..

وأما عن إنجيل متى :

فيوضح « جون فنتون » فى كتاب تفسير إنجيل متى ص ١٣٦ كيف أن متى كاتب الإنجيل لم يكن هو متى المذكور فيه على أنه تلميذ عيسى عليه السلام .

ويقرر أن ربط متى لشخصيته كمؤلف لهذا الإنجيل نسب عمله إلى مؤسس الكنيسة التى كتب من أجلها هذا الإنجيل أو معلمها الذى كان اسمه متى ...

أما بالنسبة لتاريخ كتابة هذا الإنجيل فيمكن القول - كما يقول جون فنتون ص١١ أنه (كتب حوالى الفترة من ٨٥-١٠٥م) .

والمشاكل الرئيسية لهذا الإنجيل تشتمل على خطأ الاستشهاد بتنبؤات العهد القديم . وتوقع نهاية العالم سريعا وما جاء فى خاتمته من ذكر التعميد باسم الآب والابن والروح القدس .

إذ أن هذه الصيغة كما يقول الدكتور أدولف هرنك فى كتابه تاريخ العقيدة ص ٧٩جـ ١ :

(غريب ذكرها على لسان المسيح ، ولم يكن لها نفوذ فى عصر الرسل).

❁ ❁ ❁

وأما عن إنجيل لوقا ، فان لوقا : يعترف بأنه لم يـر المسيح و لم يكن من تلاميذه ، ويرجع العلماء كما يقول الدكتور فريدريك كلفتن جرانت أن يكون لوقا قد أصدر إنجيله حوالى ٨٠ أو ٨٥م بعد ذلك بحوالى عشر سنوات ذيل كتابه برسالة ثانية هى (أعمال الرسل) ونشره حوالى ٩٥م .

هذا وان كان بعض العلماء الألمان أو الأمريكيين يرجحون القول بأن مؤلف كل من الإنجيل وأعمال الرسل شخصان مختلفان .

وأما عن إنجيل يوحنا : يقول الأستاذ جون مارش فى مقدمته لتفسير إنجيل يوحنا ص ٢٠ :

« من كان هذا اليوحنا الذى قيل انه المؤلف ؟ أين عاش ؟ أى المصادر كان يعتمد عليها ؟ متى كتب مصنفه ؟ حول كل هذه الأسئلة وحول كثير غيرها توجد « أحكام متباينة » . ثم يقول ص ٨١ :

« من المحتمل أنه خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن الأول الميلادى قام شخص يدعى يوحنا من الممكن أن يكون يوحنا مرقس خلافا لما هو شائع من أنه يوحنا بن زبدى أحد التلاميذ الأثنى عشر – وقد تجمعت لديه معلومات وفيرة عن يسوع . ومن المحتمل أنه كان على دراية بواحد أو أكثر من الأناجيل المتشابهة .

متى ومرقس ولوقا – فقام عندئذ بتسجيل شكل جديد لقصة يسوع ».

وعلى العموم :

فلقد كتبت الأناجيل الأربعة القانونية على مدى فترة زمنية تقدر بأكثر من ٦٠ عاما ما بين عام ٦٨ م وعام ١٢٥م .

والأخطر من هذا أن أقدمها لم يكتب فى حياة المسيح ولا عقب رفعه مباشرة أو حتى بعد ذلك ببضع سنين – لكنه كتب بعد ٣٥ سنة مضت منذ رفع المسيح .

لهذا جد العلماء فى البحث عن الأسباب التى أدت إلى تأخير كتابة هذه الأناجيل ، وذكروا أسبابا من بينها أن الغالبية العظمى من المسيحيين الأوائل لم يكونوا متعلمين ، وأن العادة كانت جارية بنقل التعاليم الدينية شفاها .

وثمة عامل آخر .. ألا وهو تفشى فكرة المجىء الثانى للمسيح .. على وجه السرعة بحيث يشاهد الجيل الأول هذا المجىء ، هذا بالإضافة إلى الاضطراب والاضطهاد الذى اتسمت به الكنيسة فى عهدها الأول ..

فلما أوشك الجيل الأول الذى عاصر المسيح على الانقراض وتباعد الأمل فى تحقيق المجىء الثانى للمسيح ظهرت الحاجة ماسة إلى تدوين الذكريات وكان هذا العمل من نصيب الجيل الثانى فى المسيحية وهكذا بدأت كتابة الأناجيل بعد عشرات السنين من رحيل صاحب الدعوة .

ثم يفيض المؤلف فى ذكر المشاكل الكثيرة التى تحول بين هذه الأناجيل الأربعة وبين الاعتقاد بصحتها أو بكونها وحيا إلى كاتبيها ... ويصنف هذه المشاكل أربعة أبواب رئيسية تتناول :

التناقضات والاختلافات القائمة بين هذه الأناجيل ، ووقوعها فى خطأ الاستشهاد بالعهد القديم ، ووقوعها فى خطأ تقرير صلب المسيح ، ووقوعها فى خطأ تقرير قيامته .

أما عن التناقضات فيذكر الاختلاف بين متى ولوقا فى نسب المسيح ، ويعقب على ذلك بقوله (انه لا يمكن الأخذ برواية أىٍّ من متى ولوقا عن نسب المسيح إذ لو اعتبرنا أحدهما صحيحا لكان الآخر مخطئا ولا شك) .

ويذكر الاختلاف بين متى ومرقص من جانب وبين لوقا ويوحنا من جانب آخر فى أسماء التلاميذ ، ويعقب على ذلك بقول الدكتور جون بردفورد كيرد فى كتابه تفسير إنجيل ، لوقا ص ١٠١ .

(عندما كتب الإنجيل لم يكن هناك حتى مجرد التحقق الكامل من شخصية التلاميذ) .

ويذكر من هذه الاختلافات أيضا الاختلاف فى سرد الروايات المتعلقة بكثير من الوقائع ويذكر بعض الروايات المتنافرة فى الإنجيل الواحد وعلى سبيل المثال ما جاء فى إنجيل متى من قول المسيح لبطرس :

« طوبى لك يا سمعان بن يونا أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماوات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات ». متى ١٦ : ١٧-١٩ .

ثم جاء فى هذا الإنجيل نفسه بعد هذا القول مباشرة من أن المسيح ابتدأ يظهر لتلاميذه لأنه ينبغى أن يذهب إلى أورشليم ويسأل كثيرا من الشيوخ ورؤساء الكهنة ، فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره قائلا :

حاشاك يا رب ولا يكون لك هذا – فالتفت وقال لبطرس :

اذهب عنى يا شيطان : أنت معثرة لى ولأنك لا تهتم بما لله بل للناس .

متى ١٦ : ٢١ – ٢٣ ومرقس ٨ : ٣١ – ٣٣ .

ومن هذا التناقض الشديد أيضا ما جاء فى لوقا ومتى من قول المسيح :

(كل من أنكرنى قدام الناس ينكرنى قدام ملائكة الله)

لوقا : ٨ – ٩ ومتى ١٠ : ٣٢ – ٣٣ .

وفى ختام الدعوة جلس المسيح بين تلاميذه الأثنى عشر وفيهم بطرس وقال لهم :

(كلكم تشكون فى هذه الليلة ..)

فأجاب بطرس وقال له :

(وان شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبدا ..)

قال له يسوع :

(الحق أقول لك فى هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرنى ثلاث مرات).

قال له بطرس :

(ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك . هكذا قال أيضا جميع التلاميذ)

متى ٢٦ : ٣١ – ٣٥ مرقس ١٤ : ٢٧ – ٣١ لوقا ٣٢ : ٣٤ .

وتقول الأناجيل أن نبوءة المسيح فى بطرس قد تحققت ، وأنكر بطرس المسيح ثلاث مرات أمام الذين قبضوا عليه .

(متى ٢٦ : ٥٦ - ٧٤ مرقص ١٤ : ٦٦ - ٧١ لوقا ٢٢ : ٥٤ : ٦٠).

ويقول المؤلف :

« بهذا وقع بطرس فى المحظور وألقى بنفسه فى دائرة الهلاك إذ لابد وأن ينكره المسيح أمام الله تحقيقا لما سبق أن نطق به ...»

ومع ذلك يأتى أنه بعد قيامة المسيح وظهوره لتلاميذه عين بطرس خليفة له فيهم ورئيسا عليهم - (يوحنا ٢١ : ١٥ - ١٧) .

وهكذا تأتى عشرات الأمثلة على هذا التناقض الصارخ من المقابلة بين النصوص وتأتى أمثلة أخرى على نبوءات نطق بها المسيح و لم تتحقق.

فمن ذلك ما جاء فى متى ١٩ :٢٧-٢٩ من أنه قال :

متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده تجلسون أنتم على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر .

ولقد كان يهوذا الاسخريوطى الخائن الذى أصبح يعرف «بابن الهلاك» من بين هؤلاء الاثنى عشر وبهذا يستحيل تحقيق هذه النبوءة .

ومن أجل هذا نجد لوقا يحذف هذا التحديد بالأثنى عشر فى النبوءة عند ذكره لها .. !!

ويقول جون فنتون : (لعل ذلك يرجع إلى أنه كان يفكر فى يهوذا الاسخريوطى) .

ولقد تنبأ المسيح كما نسب إليه بأنه يدفن فى الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال .

متى ١٢ : ٣٨ - ٤٠ ومرقص ٨ : ٣١ ، ٩ : ٣١ ، ١٠ ، ٣٤ ويوحنا ٢ : ١٩).

وبحسب الأناجيل أيضا ، وبعملية حسابية بسيطة نجد أن الأيام التى قضاها الميت فى بطن الأرض - فى القبر - كانت يوما واحدا هو يوم السبت، وعدد الليالى اثنتان : ليلة السبت وجزء من ليلة الأحد على أحسن الفروض .

يقول المؤلف (وبذلك استحال تحقيق هذه النبوءة) .

أما عن روايات الأناجيل عن أحداث الصلب فقد اختلفت فيها اختلافا بينا شديدا وعلى سبيل المثال :

فقد اختلفت فى مقدمة هذه الأحداث - مسح المسيح بالطيب - اختلفت فى توقيتها واختلفت فى مكانها ، واختلفت فى شخصية المرأة التى قامت بالمسح واختلفت فيما فعلته واختلفت فى رد الفعل الذى حدث عند المشاهدين .

كذلك اختلفت الأناجيل فى ذكر الأحداث المتعلقة بالقبض على المسيح. ويستخلص المؤلف من روايات الأناجيل فى هذه المسألة نتائج هامة يبنيها على ما جاء فيها من أن المسيح قال لتلاميذه « كلكم تشكون فى هذه الليلة » وما جاء فى الأناجيل أيضا من أن التلاميذ لم يشكوا فيه فى تلك الليلة .. والنتائج المترتبة على ذلك هى :

أما أن نبوءة المسيح بشكهم لم تتحقق . ويترتب على هذه النتيجة نتيجة أخرى : هى أنهم لم يشكوا لوثوقهم بنجاته مما يضر بصحة نبوءات المسيح وصحة ما ذكر عن صلبه معا .

وأما أنها تحققت أى أنهم شكوا فى نجاته بالفعل وهذا - يعنى ارتدادهم، كما يعنى نجاته أيضا .. !!

وهكذا تجرى الروايات المتناقضة فى ما يتعلق بقصة إنكار بطرس ، والمحاكمات التى جرت للمسيح أمام مجمع الكهنة ، هيرودوت ، وبيلاطس ،

وحامل الصليب ، واللصين اللذين صلبا بجواره ووقت الصلب ، وصلاة المصلوب وصراخه على الصليب وموت المصلوب ، وشهود الصلب ، وعملية الدفن ، ونهاية يهوذا ، وهلاك بيلاطس ، وتنبؤات المسيح بنجاته من القتل ، وتنبؤات المزامير - التى اعتمدت عليها الأناجيل بنجاته أيضا ، واختلاف المسيحيين الأوائل فى صلب المسيح واختلاف الأناجيل فيما يتعلق برواية أحداث قيامة المسيح ، وظهوره لتلاميذه ، وشك التلاميذ فى روايات القيامة والظهور ، وصعوده للسماء . أو نزوله أولا إلى الجحيم كما جاء فى قانون إيمان الرسل الذى تذكر بعض المصادر المسيحية أن تلاميذ المسيح وضعوه بعد رحيله .

❁ ❁ ❁

• هل بقى شئ نقوله ؟

نعم .. إن هناك أشياء كثيرة لم تقل بعد وسنكتفى منها بإشارات سريعة تفتح أمام عقولنا آفاق البحث عن الحقيقة والحق ..

لقد اختلفت الأناجيل حول قصة شجرة التين التى لعنها المسيح حيث لم يجد عليها ثمرا فجفت ... ولكن متى جفت الشجرة الملعونة هذه ؟

هل تم الجفاف فى يوم اللعن ؟ أم تأخر هذا الجفاف إلى الغد ؟

روايتان متناقضتان لكل من « متى » ومرقص ..

كما اختلفت الأناجيل حول قصة المجنون والأعمى والحمار ..

فإنجيل لوقا وإنجيل مرقص يقرران بأن«المجنون» كان رجلا واحدا فقط... ولكن .. متى يضاعف عدد المجانين فى روايته ويقول : « استقبله مجنونان خارجين من القبور .. » .

وبهذا زاد « متى » عدد المجانين واحد .. !

وقد تكررت الصورة نفسها بالنسبة « للأعمى » ...

فبينما يقرر مرقص ولوقا بأن الأعمى كان رجلا واحدا . إذا بـ « متى » يقول فى هذا :

« وفيما هم خارجون من أريحا إذا أعميان جالسان على الطريق » ..!

لقد زاد متى فى العدد أيضا فبدل أن كان هناك أعمى واحد أصبح هناك أعميان ..! وبدلا من حمار واحد تقرر إحدى الروايات الإنجيلية أنه كان هناك حماران ... !

ومن أكثر الأشياء إثارة ما تنبأت به الأناجيل من وقائع وأحداث لم يتحقق منها شئ ...

وعلى سبيل المثال لقد تنبأت الأناجيل بنهاية العالم فى القرن الأول للميلاد.. أى منذ ١٩٠٠ عاما على الأقل .

« ... فإنى الحق أقول لكم .. لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان ... » - متى الإصحاح العاشر .

أى أن عودة المسيح ثانية إلى الأرض تحدث قبل أن يكمل تلاميذه التبشير فى مدن إسرائيل ، وقبل أن يموت بعض معاصريه الذين شاهدوه حيا .

لأن « ... من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا فى ملكوته ... » - متى - الإصحاح السادس عشر .

والى الآن .. لم ينته العالم .. و لم يأت السيد المسيح ؟ !

هل تريدون مزيدا من الأدلة .. ؟

إليكم هذا النبأ من الولايات المتحدة الأمريكية ..

« تقوم مؤسسة ريد رزد ايجست READERS DIGEST بإخراج طبعة جديدة من الكتاب المقدس تختصر منها خمسين فى المائة من العهد الجديد وخمسة وعشرين فى المائة من العهد القديم .. !

ومن أغرب الأخبار التى أذيعت حول هذه الطبعة المقترحة أن النساء فى الولايات المتحدة يعترض على الصلاة المسيحية التى تقول : « أبانا فى السموات .. » إذ يرون فى هذا النص تفرقة بين المرأة والرجل .. فلماذا لا تبدأ الصلاة مثل بيا .. « أمنا » التى فى السموات أيضا .. ؟ !

وقد اتفق القائمون على أمر هذه الطبعة أن تغير كلمة «أبانا» بكلمة «الخالق .. » حتى لا تثور المرأة .. ؟

❁ ❁ ❁

وبعد :

فقد نشرت مجلة تايم TIME فى عددها الصادر منتصف شهر أكتوبر ١٩٨٩م مقالا عن ندوة دولية حضرها أكثر من ١٢٠ مائة وعشرين باحثا من علماء النصرانية ، وذلك لتقرير أمرين هامين هما :

أولا : مدى صحة الأقوال المنسوبة إلى المسيح عليه السلام فى الأناجيل الأربعة المعروفة .

ثانيا : عن المسيح ذاته . وهل هو اله كامل أم نصف اله ، ونصف إنسان وذلك تحت عنوان مثير هو :

WAS JESUS APARTY ANIMAL ?

وقد اتفق المشتركون فى هذه الندوة على أنه من بين ٧٥٨ سبعمائة وثمانية وخمسين قولا – منسوبة إلى المسيح فى هذه الأناجيل – لم يصح منها سوى ١٤٨ مائة وثمانية وأربعين قولا . !!!!!

ولا ندرى ماذا سوف يبقى من هذه الأقوال الصحيحة لو أعيد البحث مرة أخرى .

هذا فى العهد الجديد THE NEW TESTA MENT أو الإنجيل .

أما عن العهد القديم THE OLD TESTAMENT أو التوراة كما يسمى هذا العهد .. فلن أعيد هنا ما قاله « سبينوزا »[1] عن الخرافات والأساطير التى ملئ بها هذا العهد .. أو كما يقول «البروفسور» موريس فورن :

لو سألنا فى أى وقت جمع كل سفر من أسفار التوارة ..

وفى أى حال ؟ وفى أى ظرف ؟ وبأقلام من؟

لا نجد أحدا يجيبنا عن تلك الأسئلة إلا بأجوبة متناقضة جدا ..

وأن كافة ما كتب مشكوك فى كاتبه . وأن كل ما فى التوارة هو خليط من كتابات عديدة ومختلفة . وقد جمعت فى عصور متباينة ، وقد رفضت كل هذه الكتابات التى تسئ إلى الرسل والأنبياء وان تصحيح هذه الكتب كالنقش على الماء ، أو البناء فى الهواء .. ؟ !

ولكن ما الحيلة ؟ ونحن منذ مائة عام حيارى بين أسانيد يمحو بعضها بعضا .

فالجديد يناقض سابقه . والسابق يناقض الأسبق ، وقد تتناقض أجزاء الدليل الواحد ؟ !

وأخيرا يئسنا من التعرف إلى الكاتب الحقيقى لهذه الأسفار والكتب..

تقول دائرة المعارف البريطانية : ؟

إن البداية الحقيقية للعهد القديم تفتقر إلى السند التاريخى .

- فقد قيل : انه فى نهاية القرن الأول الميلادى حرقت نصوص العهد القديم وأن « عزرا» قد ألهمته السماء لإعادة صياغتها فأملى إلهامه على أربعة من الكتبة لمدة أربعين يوما ليتجسد هذا الإلهام فى أربعة وتسعين كتابا منها أربعة وعشرون ، هى كل نصوص العهد القديم ..

---

(١) فى اللاهوت والسياسة .. تأليف «سبينوزا» .

أما السبعون الأخرى فكانت من صياغته هو .. !

- ويقولون أن كتب «عزرا» السبعين بذّت العهد القديم حكمة وصياغة ودقة ... !!

مع نهاية القرن الثالث عشر انتشرت الفكرة السائدة بأن العهد القديم انتهى بنهاية «عزرا» وكان على رأس المتشيعين لهذه الفكرة «إلياس ليفيتا» ١٥٣٨م و«جوهانز باكستورف» سنة ١٦٦٣م[١] .

ويقولون :

- إن أول معرفة جادة بالعهد القديم كانت فى الفترة الواقعة بين القرن السادس والقرن الثامن .
- هذه الفترة الزمنية الطويلة كانت كفيلة بالإضافة والحذف والتفضيل والتغيير .
- وفى القرن التاسع بدأت كوكبة من الدارسين بإعادة صياغة العهد القديم وكانت صياغتهم لغوية بحتة .. !

وأن كثرة الترجمات مع اختلاف المصادر جعلت من الصعب الاتفاق على نص موحد .

- لقد كانت هناك أصول كثيرة للعهد القديم قلما يتشابه اثنان منها مع بعضها البعض . لذلك فان الترجمات التى اعتمدت على أصول مختلفة لم تقل هى الأخرى اختلافا من ناحية النص والعصر[٢] .

فإذا تجاوزنا هذه الجوانب الهامة المتعلقة «بصحة» النص ، والتى تؤكد أن معظم ما جاء فى هذا الكتاب أو العهد أباطيل وأساطير لا صلة لها بالسماء أو الوحى . إذا تجاوزنا هذا كله تجنبا للملل والإسهاب الذى يضيق منه الصدر ..

---

(١) دائرة المعارف البريطانية الجزء الثالث صفحة ٥٠٨ .

(٢)

ثم انتقلنا إلى القصص والحكايات التى يشمئز من قراءتها أو سماعها ضمير أى كائن حى .. !!!

فان أى رجل .. وأية امرأة .. من أى دين .. أو أية ملة .. يرفضان هذا الكتاب كل الرفض .. ويمنعان دخوله أى مكان ... أو أى بيت ..

هل يستقيم فى نظر أى عاقل أى يزنى رجل ببناته .. فإذا كان هذا الرجل نبيا فأى الكلمات .. فى أى اللغات يمكن أن تعبر عن هذا السخط والتقزز ... !!!

إن النبى من وجهة نظر أهل العقول إنسان منزه عن النقائص .. إنسان مختار من الله ... إنسان لا يتوقع من مثله خطأ .. فكيف بالخطيئة .. ؟

وهل يصدق الناس إنسانًا يقول ما لا يفعل ؟ وفى أى شئ .. ؟

فى إباحة الزنا وشرب الخمر ... ؟

ومع من ... ؟

مع بناته .. بناته اللاتى يحملن - سفاحا - من أبيهم النبى المرسل .. هل يعقل ذلك ؟ لا أحد منا يصدق .. ولكن العهد القديم يذكر لنا قصصا من هذا النوع القبيح المفجع ..

وكيف .. ؟

اقرءوا معى السفر التاسع عشر من سفر التكوين ذاته ..

« .. وصعد لوط من صوغر وأقام فى الجبل وهو وابنتاه معه . إذ خاف أن يقيم فى صوغر فأقام فى المغارة هو وابنتاه . فقالت الكبرى للصغرى :

إن أبانا قد شاخ وليس فى الأرض رجل يدخل علينا . تعالى نسقى أبانا خمرا ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلا .

فسقت أباها خمرا تلك الليلة وجاءت الكبرى فضاجعت أباها و لم يعلم بنيامها ولا قيامها .

فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى ها أنذا ضاجعت أبى فلنسقه خمرا الليلة أيضا وتعالى أنت فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلا . فسقت أباها خمرا تلك الليلة أيضا . وقامت الصغرى فضاجعته و لم يعلم بنيامها ولا قيامها .

فحملت ابنتا لوط من أبيهما وولدت الكبرى أبنا وسمته « موآب» وهو أبو الموآبيين إلى اليوم . والصغرى أيضا ولدت ابنا وسمته «بنعمى» وهو أبو بنى عمون إلى اليوم[١] .

هل يعقل هذا .. هل يقبل هذا الانحراف من أى رجل عادى يعيش فى أوربا أو أميركا أو حتى " ألاسكا " !

هل سمع أحد بفتاة تراود أباها عن نفسها فإذا رفض هذا الأب سقته هذه « البنت » خمرا لتنام معه وتحمل منه .

إن قصة « داود » مع زوجة « أوريا الحثى » تخجل « هوليود » من إنتاجها كفيلم . ؟ !

ومن يصدق أن نبيا من الأنبياء يشاهد زوجة جاره تستحم على سطح المنزل فيغتصبها . ثم تحمل منه سفاحا بعد ذلك .. ثم يدبر مؤامرة لقتل زوجها الجندى الوفى ليخلو له الجو .

أتفعل ذلك عصابات المافيا

إن للصوص وقطاع الطريق «قوانين» تجرم فيما بينهم الخيانة والغدر .. أيكون الأنبياء والرسل أقل شأنا - فى نظركم - من القتلة وقطاع الطرق وعصابات النشل .. !!

---

(١) سفر التكوين - الاصحاح التاسع عشر .

وماذا تقولون عن «يهوذا» الذى زنى بزوجة ابنه فولدت منه توأمين «قارص» و «زارح» .

ومع كل هذا الفجور والفسق فانهم لم يستحوا أن يرفعوا نسب المسيح إلى «قارص» و «زارح» ، وهما من أولاد الفسق .. !!!

أى عار يلحق الإنسانية كلها من هذه الجريمة ، وكيف تقبلون أن يلوث تاريخ الأنبياء والرسل بهذه الصورة ..

إن « نشيد الإنشاد » صرخة محمومة إلى ممارسة الجنس ، وأن أعتى الشياطين لا يمكن أن يقول مثل هذا الكلام الذى كتب فى هذا السفر . و«أهولا» و«اهوليبة»[1] .

إن قصتهما تجاوزت كل حد ... إن قصة هاتين الداعرتين - وحدهما - تفسدان كل سكان الأرض ..

ومع ذلك كله . وبالرغم من هذا كله . يسمى هذا الإثم . وهذا الفسق كلاما مقدسا لا يمس . !!!

أليس برنارد شو على حق ... عندما يقرر - وبحق - أن يمنع هذا الكتاب من النشر . لأنه من أخطر الكتب التى تعرض الأطفال للانحراف والفسق .. ؟ !

لقد وصف اليهود الله - سبحانه - بصفات مجسمة ، كما وصفوه بكثير من صفات النقص والضعف والكذب والغفلة والجهل ، كما ورد فى سفر التكوين :

(فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه)

ومثله ما ورد فى قصة إهلاك قوم لوط ، وتدمير قريتى سدوم وجومورة ويقولون إن الله تعالى نزل لينظر المدينة والبرج ، كما جاء فى سفر التكوين ،

---

(١) حزقيال : ٢٣ .

وأنه تعالى ندم على أن جعل شاول ملكا على بنى إسرائيل - كما جاء فى سفر صمويل الأول - وأنه تعالى نزل ذات ليلة وتصارع مع يعقوب فلم يقدر الله عليه - كما جاء بسفر التكوين ص٣٢ .

وينسب اليهود إلى أنبيائهم أعمالا قبيحة لا تليق بهم .

فينسبون إلى موسى أنه أوصى ليلة خروجهم من مصر أن يسرقوا من المصريين حليهم وأمتعتهم - كما جاء بسفر الخروج - .

وينسبون إلى هارون - عليه السلام - أنه صنع لهم عجلا وعبده مع بنى إسرائيل ص٣٢ من سفر الخروج .

وينسبون إلى إبراهيم - عليه السلام - أنه قدم امرأته سارة إلى فرعون حتى ينال الخير بسببها ص١٢ من سفر التكوين .

وينسبون إلى لوط أنه شرب الخمر حتى سكر ، وزنى بابنتيه واحدة بعد أخرى تكوين ص١٩ .

وينسبون إلى يعقوب أنه سرق مواشى حميه وخرج بأهله خلسة - تكوين ص٣١ .

وينسبون إلى راوبين أنه زنى بزوجة أبيه يعقوب ، ولما علم أبوه سكت على هذه الجريمة - تكوين ص٣٥ .

وينسبون إلى يهوذا بن يعقوب أنه زنى بزوجة ابنه فحملت وولدت توأمين سمى أحدهما فارص وثانيهما زارع - تكوين ص٣٨ .

وينسبون إلى داود أنه زنى بزوجة قائد من قواد جيشه ، ثم دبر حيلة لقتله ، فلما قتل أخذ زوجته وضمها إلى نسائه ، فولدت له سليمان - صموئيل الثانى ص١١ .

وينسبون إلى أمنون أحد أولاد داود أنه افتض بكارة أخته ، وعلم داود وسكت - صموئيل الثانى ص١٣ .

وينسبون إلى سليمان – عليه السلام – أنه ارتد فى أخر عمره ، وعبد الأصنام وبنى لها المعابد – سفر الملوك الأول ص١١ .

وبما أن العهد القديم مرجع لدين النصارى ، فهم يؤمنون بكل ما جاء فى أسفاره ، فهذه القبائح التى مر بيانها يؤمنون بها مثل اليهود .

إن التناقضات عند أهل الكتاب لا تحصى لكثرتها ، وقد أتينا من قبل بنصوص من التوارة تصف المولى – سبحانه وتعالى – بما لا يصح أن يوصف به ، والتوراة هى المرجع الأول لشريعتى اليهودية والنصرانية . واليوم نأتى ببعض آخر من التناقضات عند النصارى فيما يلى :

١- كيف عقلتم أن يكون المسيح إلها أو ابن إله ، وينزل ليعيش مع البشر ويترك ملكوته العالى ، وفى وسعه أن يبعث الرسل لهداية الأمم .

٢- كيف عقلتم أن المسيح نزل لكى يعيش ويقتل ويصلب ، لكى يطهر العصاة من خطيئة آدم ، وفى وسعه أن يطهرهم بالهداية والعفو عنهم ، بدلاً من أن يعرضهم بقتله إلى أكبر خطيئة تصغر عندها خطيئة آدم وخطايا البشر جميعا ، فهل هذا من حسن التصرف . ؟

٣- كيف عقلتم أن يعيش ابن الله فى رحم امرأة بين الروث والدم ، وإذا كان إلها فلمن ترك ملكه ، وإذا كان ابن إله ، فمن الذى كان يدير له عمله الكونى نيابة عنه ، فهل بلغ نصيبه من الحقارة إلى درجة آثر عليها شعب بنى إسرائيل وأن يتحمل عنتهم وتكذيبهم ، وأن ينهوا حياته بالإعدام ، وأين كان أبوه ؟

٤- ورد بإنجيل متى أن المسيح من نسل سليمان بن داود ، وأن جده فارص الذى هو من نسل الزنى من يهوذا بن يعقوب – فكيف عقلتم ذلك وقبلتموه ؟

٥- فى إنجيل يوحنا أن يسوع أهان أمه فى وسط جمع من الناس فهل يصح ذلك.

٦- أول معجزة صنعها يسوع أنه حول الماء خمرا فى عرس ، وآمن به تلاميذه لما رأوها . فهل يرضيكم ذلك ، والخمر رأس الفسق والعصيان. « إنجيل يوحنا » .

٧ - جاء بإنجيل يوحنا ص٧ أن يسوع كذب على إخواته ، بأن قال لهم أنا لا أصعد فى هذا العيد إلى أورشليم ، ثم صعد خفية ، فما رأيكم فى ذلك . ؟

٨ - جاء بإنجيل يوحنا ص١٠ أن يسوع شهد بأن جميع الأنبياء الذين قاموا فى بنى إسرائيل هم سراق ولصوص، فكيف قبلتم ذلك ورضيتموه .؟

٩ - جاء بإنجيل متى ص٢٦ أن بطرس كبير التلاميذ ، أنكر علاقته بإلهه (على زعمكم) وأقسم بأنه لا يعرفه .. فماذا تقولون فى ذلك ؟

١٠- جاء بإنجيل يوحنا ص١١ أن رئيس الكهنة (قيافا) الذى أعترف الإصحاح بنبوته ، كذب المسيح وحكم بقتله ، فما رأيكم فى هذا التناقض أيصح أن يحكم نبى بقتل ابن الله ؟

وقبل أن نغلق صفحات هذه القضية نذكر هنا ما نشرته جريدة صنداى تايمز Sunday Times الصادرة فى ٢٦ إبريل ١٩٨٧ صفحة ٣٢ تحت عنوان شعاع Spectrum بقلم ريتشارد فريدمان Richard Fried Man

يقول الكاتب تحت عنوان ضخم كبير «موسى لم يكتب كلمات الله»[1]

Moses Did Not Write The Words Of God

« ... كاد العالم المتدين إن يهتز عقيدة لدعوى تقول أن فصول العهد القديم التى تشكل الإيمان اليهودى لم يكتبها موسى .

لقد كتب واحد من الأساتذة العالميين وهو أستاذ الدراسات العليا للكتاب المقدس ويدعى «ريتشارد فريدمان» أستاذ اللغة العربية والأدب

---

(١) من الثابت والمحقق ضياع التوراة مع ضياع تابوت عهد الرب الذى استولى عليه الفلسطينيون فى عهد القضاة ، وقد أعاد تدوينها بعد العودة من السبى عزرا الكاتب ونحميا الكاهن سنة ٤٠٠ ق.م فيكون الكلام على التوراة الحالية .

جاء فى سفر ارميا أن باروخ كان كاتبا لأرميا

فدعا ارميا باروخ نيريا فكتب باروخ عن فم ارميا كل كلام الرب الذى كلمه به فى درج السفر «ارميا» ٣٦ : ٤ ، ٣٢

ومن المحتمل أن يكون ارميا مشاركا للكتبه الفريسيين المسبيين فى أرض بابل فى تصنيف العهد القديم وفقا لرؤيتهم وهذا ما أثبته رجل من رجال اللاهوت فى كتابه (التوارة تاريخها وأهدافها) .

المقارن بجامعة كاليفورنيا كتب يقول فى كتاب جديد له بأن مؤلف العهد القديم إما أن يكون ارميا النبى أو على الأقل خادمه وحتى الآن قليل من يعرف كاتبا باسم باروخ .

ويقول «فريدمان» إنه يستند إلى حجج أفضل من أى إنسان آخر إلى درجة قدرته على تسمية مؤلفى العهد القديم . ويقول : إن أكثر دراساته الماضية جعلته يستطيع أن يربط بين مؤلفين معينين صنفوا الكتاب وذلك للأحداث التاريخية العالمية التى جعلت لهم نفوذا وسلطة .

وإن الفصول التى يعتقد أنها موحى بها من الله قد كتبها أرميا أو باروخ تتشكل فى الأحد عشر إصحاح الأولى من سفر «التثنية» وهى جزء من خطاب الوداع لموسى لبنى إسرائيل قبل أن يصعد إلى جبل نبو[1] ليموت هناك.

إن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم متضمنة سفر التثنية تشكل القواعد الأساسية لتعاليم التوراة ، وهى التى من منظور اليهودية تعتبر كلام الله المقدس نزل وحيا على موسى دون أى تغيير يذكر .

ويعتقد «فريدمان» فضلا عن سفر التثنية أن ارميا وباروخ أيضا قد كتبا الأسفار الستة التى تعقب التوراة وهى كما يلى :

من يشوع إلى القضاة صموئيل أول وثان وسفرىْ الملوك الأول والثانى . وأن ارميا وباروخ قد كتبا هذه الأسفار مرتين .

---

(١) مما جاء فى هذه الفصول تصريح موسى بقوله «لكن الرب غضب على بسببكم ولم يسمع لى بل قال لى الرب كفاك . لا تعد تكلمنى أيضا فى هذا الأمر . إصعد إلى رأس الفسجة وارفع عينيك إلى الغرب والشمال والجنوب والشرق وانظر بعينك لكن لا تعبر هذا الأردن» تثنية ٣ : ٢٦ ، ٢٧

وجاء فى الاصحاح الرابع والثلاثين خبر وفاته يقول «فمات هناك موسى .. ودفنه .. ولم يعرف انسان قبره إلى هذا اليوم » تث ٣٤ : ٥ ، ٦

ويقول فريدمان لقد كان لليهود بادئ ذى بدء نهاية سعيدة . حدث فى عام ٥٨٧ ق.م أن البابليين قد دمروا مملكة إسرائيل وساقوا الكثيرين من اليهود للسبى .

وأن التاريخ كشف عن غباوة المؤلفين «ارميا وباروخ» إذ كتبا بداية ونهاية جديدة فى خروج بنى إسرائيل من مصر .

ويعتقد فريدمان أن قيام حسن تفاهم للسياسات التى تحيط بهم وقت الكتابة ستلقى أضواءًا على مشمول ما جاء بالتوراة [١] .

يقول فريدمان إنه لا يعرف إلا النذر اليسير عن باروخ وما كابد من معاناة[٢] بسبب صلته بارميا الذى يشتبه فى تعاطفه مع البابليين [٣] .

لقد سجن ارميا وعذب حتى أنه كان قاب قوسين أو أدنى من الموت عدة مرات [٤] .

إن فريدمان وعمره ٤٠ سنة له أربعة بحوث لاهوتية أقل إثارة للجدل .. قضى ١٢ سنة خلت مستقصيا عمله الأخير . وأسس نظرياته وفقا لدراسات دقيقة فى الآثار القديمة المتعلقة باللغات ودراسات أدبية متضمنة دراسة وثيقة فى مقارنة اللغات وأساليبها مع كتاب ارميا ذاته ومقارنته بأساليب ولغات سبعة كتب سابقة .

---

(١) ناشد ارميا السلام فقال لليهود المسبيين «اطلبوا سلام المدينة التى سبتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام . لأنه هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل . لا تغشكم أنبياؤكم ... لأنهم انما يتنبأون لكن باسمى بالكذب !! . » ارميا ٢٩ ٢٩ : ٧ - ٩

(٣) من المعلوم أن أصول بنى اسرئيل من (اور الكلدانيين) ولهذا جاء تذكير «ثم تصرخ وتقول أما الرب إلهك. أراميا كان أبى فانحدر إلى مصر» تثنية ٢٦ : ٥

(٤) وكان ارميا محبوسا فى دار السجن الذى فى بيت ملك يهوذا .(ارميا ٣٢ : ٢)

• ترجم هذا المقال عن صحيفة الصنداى تايمز Sunday Times وعلق عليه الأخ الأنجيلى السابق إبراهيم خليل أحمد .

واكتشف فى كتاب أرميا بأن باروخ كان كاتبا لا رميا وأمين سره .

والآن أصبح فريدمان يعتقد شخصيا أنه أول من بادر وأعلن قائلا بأن كتب العهد القديم من الممكن أن يكون قد كتبها ارميا أو باروخ .

« ورأى آخرون أن أشخاصا آخرين لم يذكروا أسماءهم »[١] .

إن المفكرين الأحرار من علماء الكتاب المقدس قد اقتنعوا لمدة مائتى سنة خلت بالأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم المعروفة بالبنتاتوك أن موسى لم ينقشها على حجارة ، وقليل من علماء الكتاب المقدس يعتبرون أن كاتبيها هم ملوك وأنبياء والتى نسبت إليهم [٢] .

ويعتقد معظم علماء الكتاب المقدس أن النصوص الكتابية قد صنفها مؤلفون كثيرون و لم تعرف هويتهم من قبل .

إن كتاب فريدمان صادف قبولا وانتشارا واسعا كما أظهر علماء الكتاب المقدس البريطانيون به اهتماما بالغا ولا يزال الغد مشحونا بالحقائق التى سوف تظهر لتزيح من أمامها ركام الأكاذيب والتحريفات التى ألصقت زورا بالوحى السماوى المقدس والتى تؤكد صدق القرآن ونبيه فى كل كلمة وحرف ...

فإلى متى ... لا يعترف المنكرون بهذه الحقيقة .. ؟

وإلى متى ... لا يحترمون العهد الذى أخذه الله على بنى آدم منذ بدء الخليقة ... ؟!

❁ ❁ ❁

---

(١) إن رؤية فريد مان بأنه أول من بادر وأعلن أن كتاب العهد القديم هما باروخ وارميا مثله كمثل ايليا الذى سأله ربه لماذا اختبأت ؟ فقال إيليا « غرت غيرة للرب إله الجنود لأن بنى اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدى وهم يطلبون نفسى ليأخذوها «الملوك الأول ١٩ : ١٤ فأجابه الله قائلا « وقد أبقيت فى اسرائيل سبعة آلاف كل الركب التى لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله «الملوك الأول ١٩:١٨ فمنذ فجر المسيحية والذين هم على الحق المبين أعلنوا اعتراضاتهم بدئا بأريوس عام ٣٢٥م ومرورا بمارتن عام ١٥٢١م وحتى يومنا هذا لكن عصفت بهم العواصف . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر .

(٢) يعتبر يشوع أول من نقش التوارة وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التى كتبها أمام بنى اسرائيل «يشوع ٨:٣٢ راجع (تثنية ٢٧:٨)

يقول « رينيه جينو » العالم الفيلسوف الفرنسى الذى عمت شهرته أنحاء العالم شرقاً وغرباً عن سبب إسلامه :

« إنه أراد أن يعتصم بنص مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يجد - بعد دراسة عميقة - سوى القرآن - فهو الكتاب الوحيد الذى لم ينله التحريف والتزييف لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة ..

ومن آيات هذا الحفظ وعلاماته البارزة فى هذا العصر .. أن ألد أعداء الإسلام فى هذا العالم يذيعونه مرتلاً صباح كل يوم من إذاعاتهم .. وأعجب من ذلك . أن إسرائيل التى تعلم يقيناً مدى ما فى القرآن من أدلة دامغة لكيانها المزور تحرص على إذاعة هذه التلاوة ، وتقدمها إلى المستمعين بكثير من التوفير والإجلال .. والأعجب من هذا كله أن الاتحاد السوفيتى الذى كانت تقوم فلسفته على إنكار الخالق جل شأنه ، وتحارب أى دين من الديانات التى تذكر اسمه.. الاتحاد السوفيتى [1] هذا يأمر بطبع المصحف الشريف فى بلاده ويقوم بتوزيعه خارج وطنه .. وإن كان الغرض من ذلك كله إيهام السذج بحياده تجاه الدين .. أو الدعاية لنفسه فى شعوب المسلمين .

إننى أحتفظ فى مكتبتى بنسخة من هذا المصحف الذى طبع فى طشقند سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م ، وقد تسلمتها بحيلة من الملحق الثقافى السوفيتى حين حضر إلى مكتب شيخ الأزهر المرحوم الشيخ محمود شلتوت ليقدم له طالبين أرسلهما المفتى بابا خانوف للالتحاق بالأزهر ومعهما نسختان من هذا المصحف وكأنما أحضرهما الرجل معه استعداداً للحلف بأغلظ الإيمان إذا اقتضى الأمر ذلك - فى حالة الشك والريبة . لقد رفع الشيخ شلتوت المصحف بيده ثم قال منفعلاً : اكتب يا بنى وأشهد العالم على ما تكتب أن القرآن يقدم كل يوم دليل إعجازه وصدقه - وإلا .. هل يتصور أحد أن

(١) لقد هلك الاتحاد السوفيتى وذهب إلى غير رجعة واوربا وأمريكا سيلحقان به قريبًا .. !

الاتحاد السوفيتى الذى يعلن أن «الله خرافة» وأن «الدين أفيون الشعب» هو الذى يقوم بطبع هذا المصحف .. ؟!

❁ ❁ ❁

وفى كل يوم .. يأتى القرآن بجديد ... وهذا الجديد ليس وحياً من السماء يضاف إلى ما استقر عليه الأمر فى حياة النبى أو بعد مماته . لقد انقطع الوحى منذ غادر الرسول (ص) دنيانا إلى الرفيق الأعلى .. وإنما الجديد الذى أعنيه هو ما يتكشف للباحثين والدارسين من أولى البصائر .. إنه الكشف عن حقائق هذا الكتاب المعجز وآياته فى الحياة والناس والكون ، وكان آخر «جديد» فى هذا المجال ما كتبه العالم الفرنسى المحقق الدكتور «موريس بوكاى » – Maurice Bucaille عن القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم .

لقد بدأ المؤلف كتابه بالاعتذار عن هذا الجهل الذى غطى على عقول أوربا تجاه الإسلام .. ولكن الرجل يلتمس العذر لهؤلاء الذين حيل بينهم وبين الحقيقة ، إذا تذكرنا الطريقة التى اتبعت فى تثقيف الأجيال الكثيرة فيما تعلق بالقضايا الدينية لدى الإنسان . وكيف فرض عليهم الجهل فى كل ما يمس الإسلام . وهكذا .. فإن مثل « الدين المحمدى » و« المحمديون » ليدل على الرغبة فى أن تظل النفوس مقتنعة بهذا الرأى الخاطئ القائل : بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل الاستعمال السائد حتى اليوم فى التسميات جهاد رجل وأنه ليس له «بالمعنى الذى يدركه المسيحيون» مكان فى تلك المعتقدات. ولنضف أن كثيراً من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية فى الإسلام دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامى بصورة خاصة .. كما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، ويرون من البديهيات أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد اعتمد على ما سبقه ، وذلك بقصد استبعاد قضية الوحى منذ البدء» ص٦ .

وإننا لنأسف حقاً لذلك الموقف الذى يهدف إلى تبرير الاحتفاظ فى نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافاً لكل منطق .. إن ذلك

يسئ كثيراً إلى الإيمان با لله لدى بعض العقول المثقفة .. ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادراً على فضح بعض مواطن الضعف من هذا النوع فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف ، وظلت في جهالة تامة من أمر هذا التناقض مع المعارف الدنيوية المشهورة التى تعتبر غالباً من المعارف السياسية جداً .. ص١٠ .

وهناك فرق جوهرى بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة، ونعنى بذلك فقدان نصوص الوحى الثابت لدى المسيحية ، فى حين أن الإسلام لديه القرآن الذى هو وحى منزل وثابت معاً .

فالقرآن هو الوحى الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل ، وقد كتب فور نزوله ، ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة وبخاصة فى شهر رمضان ، وقد رتب فى سور بأمر من محمد صلى الله عليه وسلم ، وجمعت هذه السور فور موت النبى (ص) وفى خلافة عثمان (من السنة الثانية عشرة إلى السنة الرابعة والعشرين التالية لوفاة محمد صلى الله عليه وسلم) ، لتصبح ذلك النص الذى نعرفه اليوم .

أما الكتاب المسيحى المقدس فإنه يختلف بشكل بين عما حدث بالنسبة للإسلام . فالإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة ، وإننا لا نملك مثلاً أية شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى - خلافاً - لما يتصوره الكثير من المسيحيين ولقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدسة بحقائق العلوم - موضوع تفكير الإنسان فى كل العصور - ولكن تطور العلم كشف للمفكرين عن وجود نقاط خلاف بين الاثنين ، وبهذه الطريقة خلق ذلك الوضع الخطير الذى جعل اليوم مفسرى التوراة والأناجيل يناصبون العلماء العداء .. إذ لا يمكن فى الحقيقة أن نقبل بأن رسالة إلهية تنص على واقع غير صحيح بالمرة .. وبناء على ذلك فليس هناك سوى إمكانية واحدة للتوفيق المعقول بين الأمرين . وهى عدم قبول صحة المقطع الذى يقول فى التوراة بأمر غير مقبول علمياً ص١١ .

«... وإن دراسة نص القرآن فى العصر الحديث لم تكشف عن الحاجة إلى إعادة النظر فى هذا ، وسوف نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية ، وهى وقائع كثيرة جداً - .. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها ، أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم » !!!

لقد أجرت مجلة «المعرفة» التونسية حواراً مع المؤلف لبيان السبب الذى من أجله ألف هذا الكتاب ، وعن الظروف التى دفعته لإخراجه وكتابته على هذا النحو . وقد رأيت فى هذا الحديث إضافة مهمة ينبغى ألا تهمل ونحن بصدد عرض هذا الكتاب لأن قيمة المكتوب والكاتب ترتفع قيمة وثقة حين تدرك نبل الغاية الدافعة إلى البحث، وصدق النية الحافزة إلى التوضيح والشرح.

سؤال : كيف بدأت فكرة تأليف الكتاب ؟

• إن الناس لا يتصورون أن عاملاً يدوياً (لأنى عامل يدوى باعتبار أنى جراح) ينكب على تعلم العربية ثم على دراسة القرآن والإنجيل دون مناسبة . والحق أنى صادفت فى فرنسا بعض المسلمين المستنيرين والمثقفين ، الذين بينوا لى أن معلوماتى حول الإسلام خاطئة نظراً للتربية المسيحية التى تلقيتها فى طفولتى ، ونظراً لمطالعاتى المشتبهة لبعض الصحف والمجلات ولقد أدركت أثناء محادثاتى مع هؤلاء الأشخاص مدى الحاجز الكبير الذى يفصلنى عن المعرفة الحقيقية للإسلام ..

لذا بدأت وأنا فى الخمسين بتعلم العربية ولما أحسست بقدرتى على فهم القرآن فتحته وبدأت فى دراسته دون أى فكرة مسبقة ودون أن تخامرنى أبداً فكرة تأليف كتاب .

وصادفت أثناء قراءاتى بعض النظريات العلمية الحديثة التى تتنافى تماماً مع الأقوال التى تصرح بأن محمداً هو الذى ألف القرآن بإرشاد من بعض الأحبار

أو الرهبان . ولقد دهشت لما ورد فى القرآن من نظريات فبدأت بجمعها دون أى معتقد دينى بل كان موقفى أولاً علمياً بحتاً.

ولما أنهيت قراءة القرآن ، توصلت إلى نتيجة وهى : أنه من المستحيل أن يكتب إنسان فى القرن السابع ميلادياً كل هذه الحقائق المجهولة آنذاك .

هكذا بدأت فكرة الكتاب . وهو حسب رأيى أول كتاب يؤلفه غربى حول هذا الموضوع .

وبما أنى أردت أن يكون البحث عميقاً رأيت أن أقوم بدراسة مقارنة مع التوراة والإنجيل ، وهكذا ولد الكتاب .

سؤال : توصلت فى آخر كتابك إلى نتيجة وهى : ضرورة التسليم بصحة الإسلام ، فما معنى هذا ؟

- إن إعلان الإسلام يعنى التصريح بأن القرآن كتاب موحى به (و لم يؤلفه بشر) وان محمداً رسول الله ولا أرى هنالك موقفاً آخر . لكن موقفى كان أولاً موقفاً فكرياً . ولقد كنت أتجنب فى كل اتصالاتى وتصريحاتى طرح الموضوع من وجهة النظر الدينية العقائدية . وهذا ما فعلته أمام الأكاديمية الطبية بفرنسا منذ سنة حين طرحت مشكلة المعطيات الفيزيولوجية والجنينية فى القرآن وقلت وقتها إنه لا يوجد شرح لوجود مثل هذه المعطيات الصحيحة فى القرآن إذا اعتبرنا أنه كتاب منزل ، ولقد توصلت إلى هذه النتيجة كنهاية لبحثى و لم توجهنى هى وهذا ما أقصده عندما أقول إن موقفى كان فكرياً بالدرجة الأولى .

سؤال : هنالك صعوبة كبيرة تحول دون التفاهم مع الأوروبيين حول موضوع الدين . ذلك أن الألوهية والمفاهيم المتصلة بها تتسم فى عقل الغربى بسمة الغموض فهل ما زالت هذه الصعوبات قائمة ؟ وما العمل لإزالتها ؟

- أعتقد أولاً : أن هنالك تغيراً جذرياً فى موقف المسيحيين وهـذا التغير نتيجة مباشرة لمجمع الفاتيكان الثانى (Council II Vatican) فهذا المجمع دشن الانفتاح على الديانات الأخرى . وهنالك نشرة أصدرها الفاتيكان وأشرت إليها فى كتابى وعنوانها « توجيهات حول الحوارين المسيحيين والمسلمين » ، وما مؤتمرات التقارب بين الإسلام والمسيحية إلا نتيجة لمجمع الفاتيكان الثانى . إذن وللعودة للسؤال : هنالك تحول جذرى بطئ ولكنه أكيد . ولقد جاء من القمة و لم يمس القاعدة إلا جزئياً . هذا التحول يتمثل أساساً فى الاعتراف بالإسلام كدين [1] من طرف الفاتيكان .

ولابد من دعم هذا التحول وتشجيعه من طرف المسلمين ، الذين يتحملون مسؤولية التعريف بدينهم تعريفاً صحيحاً وذلك من خلال الكتب والدراسات والمحاضرات حتى يدرك الغربيون أن ما يعرفونه عن الإسلام خطأ تماماً . هذا هو دور المسلمين فإذا وقع تزييف مقصود أو غير مقصود ، عليكم أنتم المسلمون توضيح الحقيقة هنالك مثلاً مشكلة «الله» ففى ترجمات القرآن بالفرنسية نجد كلمة (Allah) بينما يجب أن نجد كلمة (Dieu) أو كلمة (God) أن المسلمين يعبدون إلاهاً خاصاً بهم يسمى (Allah) .

وهناك مثال آخر : لى كثير من الأصدقاء الذين يتصورون أن الإسلام يرفض السيد المسيح ولقد أفهمتهم الحقيقة وهى أن الإسلام يعتبر عيسى نبياً مثله مثل باقى الأنبياء ولقد أطلعتهم على بعض الترجمات واقتنعوا .

بعض الحقائق البديهية بالنسبة لكم مجهولة تماماً عند بعض المثقفين . ولو اطلعتم على الشبهات التى تجول فى أذهان المثقفين لاستغربتم .

سؤال : هل يمكن اعتبار كتاب القرآن والإنجيل والعلم آخر أبحاثكم ؟

---

(١) أى دين كغيره من الاديان التى لا صلة لها بالوحى .

– بعد إتمام الكتاب كان من الضرورى أن يترجم إلى العربية ولقد قام بذلك أحد المصريين المقيمين بفرنسا وسيصدر قريباً عن دار المعارف[1] ولقد ترجم بعد ذلك للإنجليزية . كل هذا يمثل عملاً كبيراً حال دون التفكير فى عمل جديد ، ثم أنت تعلم أن الأعمال الجدية تحتاج إلى وقت طويل .

سؤال : يرى بعض المفكرين المسلمين أن شرح القرآن على ضوء العلوم أمر خطير على العقيدة ، ذلك أن الحقائق العلمية عرضة للتحوير أو ربما للتغيير. فما رأيكم ؟

– اسمح لى بالعودة إلى عنوان الكتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم وهنالك عنوان تحتى وهو : دراسة على ضوء المعلومات – أو المعارف الحديثة – ولابد أن أشير إلى أن كلمة علم (Science) تعنى الظاهرة العلمية وهى ما لا يتغير أو النظرية العلمية وهى شرح الظاهرة العلمية وهى ما يتغير .

وهاك المثال التالى : دوران الأرض حول الشمس أو دوران القمر حول الأرض – هذه ظواهر ثابتة لن تتغير (إلا إذا أراد الله ذلك) أما شرحنا لها فهو المتطور . وهذا مثال آخر : التناسل البشرى الظاهرة الموجودة علمياً ولا تتغير أما معلوماتنا حولها فهى المتطورة وفى كتابى أشير إلى أن القرآن يؤكد الظاهرة العلمية لا النظرية . فالقرآن ليس كتاباً فى العلوم وإن كان يشير إلى ظواهر علمية ثبت وجودها فيما بعد : إذن فليس هدفى أن تثبت العلوم صحة القرآن . فالدراسة العلمية موازية للقرآن فقط . وكل من ظن أن هدفى هو إثبات صحة القرآن على ضوء الاكتشاف العلمى يكون مخطئاً ، لأن هذا العمل يكون عملاً دينياً عقائدياً وسبق وأن صرحت لك أن موقفى كان من منطلق فكرى علمى بحت يثبت أن العلم يوازى القرآن لا أن العلم يثبت صحة القرآن ..

سؤال : وقضية الأحاديث النبوية ؟

---

(١) وقد صدر الكتاب فعلاً عن دار المعارف .

– كنت انتظر هذا السؤال . إن هذا الموضـوع موضـوع شـائك وأود أن أؤكد قبل كل شئ أنه ليس لى تصور خاص للحديث ولا أدعى أنى سأضيف شيئاً للعلم الحديث .

ولقـد حوورت مـع الأستاذ معروف الدواليبـى (مـن سـوريا) الفصـل المخصص للأحـاديث فـى الترجمة العربيـة ، وكـل ذلـك لتوضيـح موقفـى للمسلمين وسيصدر هذا التحوير فى الطبعة الفرنسية الخامسة .

هنالك حقيقة تعرفونها وهى أن الأحاديث متفاوتة مـن حيـث الصحـة . فمنها الصحيح والضعيف والموضـوع . ومـن ناحيـة أخـرى يمكننـى أن أقسـم الأحاديث إلى أحاديث ذات صبغة مقدسـة وأحـاديث تتعلـق بـأمور دنيويـة . وفى حادثة تلقيح النخل أكد الرسول ما معناه أنه على المسلمين أخذ عقائدهم عنه ، أما فيما يتعلق بأمور دنياهم فقـد يكونـون هـم أدرى . قلـت كـل هـذا لأثبت أنه من الأحاديث ما ليـس بصحيـح (بينمـا لا توجـد آيـات ضعيفـة أو موضوعة) وأن الخلاف يدور حول الأحاديث المتعلقة بـالأمور الدنيويـة والتـى قد لا تكون صحيحة . هذا هو رأيى ورأى الأستاذ معروف الدواليبى .

سـؤال : سـؤال ذو صبغـة عامـة : هـل تتوقـع أن تسـاعد هـذه العقليـة الموضوعية التى تسود كتابك على نهضة إسلامية ؟

– إنى لا أعتبر نفسى نموذجاً أو قدوة وعلى المسلمين الإجابـة علـى هـذا السؤال .

سؤال : فكيف تشرحون إذن أن كتابك لم يكتبهْ مسلم ؟ بل صـدر عـن إنسان تلقى ثقافة أوروبية .

– لكى يدرس الإنسان موضوعاً مثل موضوعـى الـذى درسته لابـد مـن التأكيد على نقطة الانطلاق ، فالزاوية التى ينظر من خلالها الدارس للموضوع يجب أن تكون متحررة من كل الأفكار المسبقة . أعطيـك مثـالاً علـى ذلـك ، فالطبيب يستفيد فى كثير من الأحيـان مـن آراء بعـض النـاس الذيـن ينظـرون

للمشكل بطريقة تكون ربما أشمل من طريقة الطبيب . فالذى ينظر للمشكل من الخارج يشاهد ربما أكثر ممن يشاهده من الداخل .



ونعود بعد ذلك إلى الكتاب ..

لقد بدأ المؤلف كتابه بسؤال عن العهد القديم فقال :

من هو مؤلف العهد القديم ؟ كم من قراء العهد القديم الذين قد يطرح عليهم السؤال ولن يجيبوا إلا بترديد ما قرءوا فى مقدمة كتابهم العهد القديم ؟ كم من القراء سيردد أن مؤلف هذه الكتب هو الرب برغم أنها كتبت بأقلام بشر ألهمهم الروح القدس ؟ ص١٧ .

ولكن .. إذا حدث ورجع القارئ إلى المؤلفات التى كتبها بعض رجال الدين - للخاصة - وليس لعامة الجمهور - فسيكتشف أن مسألة أسفار الكتاب المقدس مسألة أكثر تعقيداً مما كان يظن بداءة ، وإذا استوضح « طبعة الكتاب المقدس الحديثة » التى ترجمت إلى اللغة الفرنسية - فإنه سيكتشف أن نبرة الحديث مختلفة جداً ، وسيدرك أن العهد القديم كالعهد الجديد - يثير مشاكل لا يخفى المفسرون عناصرها التى تسبب النزاع . ص١٨ .

ويشير إدموند جاكوب (Edmond Jacob) إلى أنه فى البدء لم يكن هناك نص واحد فقط ، بل كان هناك تعدد فى النصوص ، وبعد أن يتناول المؤلف حقيقة هذه النصوص بالتحقيق والشرح والسند والتاريخ ينتهى إلى القول بـ «ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم - وبهذا أيضاً يتبين للقارئ التحولات التى أصابت نص العهد القديم من نقل إلى نقل آخر ، ومن ترجمة إلى أخرى بكل ما ينجم حتماً عن ذلك من تصحيحات جاءت على أكثر من ألفى عام . ص١٩ .

يقول المؤلف :

فى سفر التكوين توجد أكثر المتناقضات وضوحاً مع العلم الحديث وتمس هذه التناقضات ثلاث نقاط جوهرية :

أولاً : خلق العالم ومراحله .
ثانياً : تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض .
ثالثاً : رواية الطوفان .

وقد لاحظ الأب ديفو (R.p.Duvaux) مدير مدرسة الكتاب المقدس أن سفر التكوين يبدأ بروايتين عن الخلق كل منهما موضوعة إلى جانب الأخرى، وتحتل الرواية الأولى - الإصحاح الأول والآيات الأولى - من الإصحاح الثانى - أنها بناء يتكون من أخطاء من وجهة النظر العلمية ، ولابد من القيام بنقدها فقرة فقرة . ص٤١ .

ثم يتابع المؤلف شرحه للتناقض والتخبط الغريب . فى قصة الخلق - كما تنص عليه هذه الرواية ، ثم ما تشتمل عليه هذه الرواية من تناقضات مع الرواية الثانية .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى قصة (تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض) فيفند علمياً - كل أقوال هذه الأسفار التى تحدد بدء تاريخ خلق العالم منذ ٥٧٣٦ سنة ولكى تكون أكثر قرباً من الحقيقة : لنقل : إن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبرى يحدده تقريباً بسبعة وثلاثين قرناً قبل الميلاد .

ثم يتساءل المؤلف قائلاً :

ماذا يعلمنا العلم الحديث ؟ .. عسيرة هنا الإجابة عما يتعلق بتكون الكون ، وكل ما يمكن ترقيمه هو «عصر تكون النظام الشمسى» الذى يمكن تحديده زمنيا بتقريب مرض . ويقدر الزمن الذى يفصلنا عن تكون النظام الشمسى بأربع مليارات ونصف من السنوات .. ص٤٧ .

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى قصة الطوفان لكشف تناقضات هذه القصة بوجود مصدرين متميزين بشكل جلى : أى كما وقعت فى «نصوص التوراة» فالإصحاحات ٦ ، ٧ ، ٨ من سفر التكوين مكرسة لرواية الطوفان ،

وبشكل أدق هناك روايتان غير موضوعتين جنباً إلى جنب .. إنما تنفصلان فى مقاطع متداخلة كل فى الآخر ، وبمنطق ظاهر فى تعاقب مختلف الأحداث .. والحقيقة أن فى هذه الإصلاحات الثلاثة تناقضات صارخة ..

هنا أيضاً تتعلل هذه المتناقضات بوجود مصدرين متميزين بشكل جلى : أى المصدر اليهوى (نسبة إلى يهوه) والمصدر الكهنونى . وقد رأينا أن هذين المصدرين يشكلان تجميعاً متنافراً فقد قطع كل نص أصلى إلى فقرات أو عبارات وهذا مع تعاقب عناصر كل مصدر مع عناصر المصدر الآخر ، بحيث ننتقل من مصدر لآخر فى الرواية سبع عشرة مرة وذلك خلال مائة سطر تقريباً من النص .

ولنضف أيضاً أن للطوفان حسب هذه النصوص مدتين مختلفتين إذ تقول الرواية " اليهوية " أربعون يوماً فيضاناً - على حين يقول النص الكهنوتى - مائة وخمسون يوماً فيضاناً .

ثم ينتقل المؤلف إلى تاريخ هذا الحادث كما تقول التوراة والتى تقول إن نوحاً قد ولد بعد ١٠٥٦ عاماً من آدم -و-٢٩٢ عاماً من ميلاد إبراهيم ولما كان الطوفان قد شمل كل الأرض وكل الأحياء فمعنى هذا أن البشرية ولدت من جديد بعد هذا الحادث - بحيث إنه عندما يولد إبراهيم بعد ذلك بحوالى ثلاثة قرون فإنه يجد الإنسانية قد أعادت تكوين نفسها فى مجتمعات فكيف يمكن لإعادة البناء هذه أن تتم فى زمن قليل إلى هذا الحد ؟ إن هذه الملاحظة البسيطة تنتزع عن النص أية معقولية .

أكثر من ذلك - فإن الوقائع التاريخية تثبت استحالة اتفاق الرواية مع المعارف الحديثة - والواقع أن عصر إبراهيم يحدد بالسنوات ١٨٠٠-١٨٥٠ - ق.م تقريباً . فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من إبراهيم - كما يوحى بذلك سفر التكوين فإن الطوفان يقع فى القرن ٢١ أو ٢٢ ق.م وهذا العصر كانت قد ظهرت من قبله فى نقاط مختلفة من الأرض حضارات

انتقلت أطلالها للأجيال التى تلتها ، وعلـى سبيل المثـال فهـذه الفـترة بالنسبة لمصر هى التى تسبق الدولة الوسطى (٢١٠٠ق .م) وهذا بالتقريب هو تاريخ الفترة الوسطى قبل الأسرة الحادية عشرة ، وفى (بابل) أسـرة أور الثالثـة ومـن المعروف جيداً أنه لم يحدث انقطاع فى هــذه الحضـارات ، وبالتـالى لم يحـدث إعدام يخص البشـرية برمتهـا كمـا تقـول التـوراة ، وبالتـالى فـلا يمكـن اعتبـار روايات التوراة روايات حقيقية كما أنه من غير الممكن تصور (إله) يعلم الناس بأوهـام متناقضـة ، وطبيعـى أن يشـير ذلـك وجـود تحريـف بواسـطة البشـر . ص(٥٢-٥٣-٥٤) .

ثـم انتقـل المؤلـف بعـد ذلـك إلى «العهـد الجديـد» أو مـا يعـرف بالأنـاجيل الموجودة بين أيدى المسيحيي ، وقد استهل المؤلف كلامه فى هذا الموضوع قائلاً:

«كثيرون من قراء الأناجيل يشعرون بالحرج بل بالحيرة عندما يتأملون فى معنى بعض الروايات أو عندما يقارنون روايات مختلفة لحدث واحد مروى فى كثير مـن الأنـاجيل . وتلـك هـى الملاحظـة التـى يقدمهـا الأب روجـى (R.Roguct) فى كتابه «مقدمة إلى الإنجيل » Initiation I, Evangile .

« إن التجربة الثرية التى اكتسبها هذا الكاتب- حيث إنه كـان لسـنوات طويلة مكلفاً بالرد فى جريدة أسبوعية كاثوليكيـة على قـراء الأنـاجيل الذيـن تحـيرهم النصـوص .. هـذه التجربـة قـد سمحـت لـه أن يـدرك مـدى أهميـة الاضطرابات التى يشعر بها قراء الأناجيل ، ويلاحظ أن طلبـات الشـرح التـى يبعث بها محدثوه الذين ينتمون إلى أوساط اجتماعية وثقافية شـديدة التنـوع ، وتنصب على نصوص يراها القـراء مبهمـة غـير مفهومـة بـل ، حتـى متناقضـة وعبثية أو فاضحة ..» ص٦٥ .

لقد تعرض المؤلف لتاريخ (كتابة الأنـاجيل) وتأليفهـا فـى حـوالى أربعـين صفحة من كتابه هذا (٦٥-١٠٤) ، وانتهـى مـن هـذه الدراسـة التاريخيـة بمـا يشبه الرفض لأكثر ما جاء فى هذه الأناجيل بعد أن تناول بالتحليل كل إنجيـل

من هذه الأناجيل المعروفة على حدة : من حيث الكاتب ومن حيث الموضوع ومن حيث الشكل الذى كتب به هذا الإنجيل أو ذاك . ونتيجة لذلك - كما يقول المؤلف - فإننا لم نعد متأكدين مطلقاً من أننا نتلقى كلمة المسيح بقراءة الإنجيل . (ص٩٨) .

ثم يضرب المؤلف لذلك مثلاً بنسب المسيح عليه السلام :

إن البديهية الأولى فى هذه القضية أن يكون نسب المسيح من جهة أمه - إن كان يجب أن يكون له نسب - لأنه (أى المسيح) جاء من غير أب وولدته أمه من غير زوج ، ولكن الأناجيل تتعرض لنسب المسيح من جهة الأب وتذكر لهذا النسب سلسلة تبدأ أحياناً من إبراهيم عليه السلام وأحياناً من آدم أبى البشر وهى فى هذا وذاك تذكر أسماء تختلف من هذا الإنجيل إلى هذا الإنجيل . ويزيدنا المؤلف إيضاحاً فيقول :

يحتوى كل من الأناجيل الأربعة على عدد هام من الروايات التى تسرد أحداثاً قد تكون مذكورة فى إنجيل واحد فقط ، أو تذكر فى عدة أناجيل ، أو فيها كلها ، فإذا كانت مذكورة فى إنجيل واحد فقط ، فإنها تطرح مشاكل هامة . وعلى هذا .. ففى حالة ما يكون (الحدث) بعيد المرمى ، فإن القارئ يدهش أن مبشراً واحداً فقط ذكره ، وعلى سبيل المثال : «صعود المسيح إلى السماء» يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الأحداث مسرود بشكل مختلف ، وأحياناً بشكل مختلف جداً لدى اثنين أو أكثر من المبشرين ، وكثيراً ما يدهش المسيحيون عندما يكتشفون وجود هذه المتناقضات بين الأناجيل . (ص١١٧) .

ثم يتعرض المؤلف بعد ذلك لروايات الأناجيل حول قيامة المسيح من القبر ، وما صاحب ذلك من روايات غير طبيعية ، ويعطينا الأب «روجى» فى كتابه «مقدمة إلى الإنجيل» أمثلة على الاختلاط والفوضى والتناقض الذى يسود هذه الروايات فيقول :

« لا تتطابق تماماً فى الأناجيل الثلاثة المتوافقة قائمة النساء الآتيات إلى القبر إلا امرأة واحدة فى إنجيل يوحنا وهى «مريم المجدلية» ولكنها تتحدث بضمير الجماعة كما لو كانت لها رفيقات ، فهى تقول «لا نعرف أين وضعوه» أما فى إنجيل «متى» فملاك هو الذى يعلن للنساء أنهن سيرين المسيح بالجليل . ولكن المسيح بعد لحظة يقابلهن على مقربة من القبر .. والواقع أن لوقا لا يشير إلا إلى ظهور المسيح ثلاث مرات بعد قيامته .. أما يوحنا فيقول .. إنه ظهر مرتين على ثمانية أيام بمجمع بيت المقدس . ثم فى المرة الثالثة يظهر بالقرب من البحيرة . وأما متى فإنه يتحدث عن مرة واحدة لظهور المسيح بالجليل .. وكل هذه الأمور تتناقض مع إشارات ظهور المسيح الموجودة فى رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس .. إذ يقول : إنه ظهر لأكثر من خمسمائة شخص فى وقت واحد يضاف إلى ذلك أن هناك تناقضاً بين رواية «أعمال الرسل» وهى من تأليف لوقا المبشر .. عن ظهور المسيح لبولس ، وبين ما يقوله لنا بولس عن ذلك بشكل موجز .. » (ص١٢١ - ١٢٢) .

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى (أحاديث المسيح الأخيرة» أو الفارقليط (Paracllet) فى إنجيل يوحنا ويقول متسائلاً :

« كيف يمكن أن نشرح الغياب التام فى أناجيل متى ومرقص ولوقا لرواية الوداع المؤثر الذى يحتوى على الوصية الروحية للمسيح ؟

هل كان النص موجودا أولاً عند المبشرين الثلاثة الأولين .. ؟

ألم يحذف فيما بعد ؟ ولماذا ؟ ولنقل فورا إنه لا يمكن الإتيان بأية إجابة»

وها هى ذى الفقرات الجوهرية فى هذه الخطبة حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد :

« إذا كنتم تحبوننى فستعملون على إتباع أوامرى وسأصلى للأب الذى سيعطيكم (Paracllet) آخر .

ما معنى هذه الكلمة ؟ إن النص الذى نملك حالياً لإنجيل يوحنا يشرح معناها بالألفاظ التالية : الـ (Paracllet) الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى سيبلغكم كل شئ ، وسيجعلكم تتذكرون كل ما قلته لكم « هو نفسه سيشهد لى » .

« رحيلى فائدة لكم ، لأننى إذا لم أرحل (فالفار قليط) لن يأتى إليكم وعلى العكس فإذا رحلت فسأبعث به إليكم » .

وعندما يقول المسيح حسب إنجيل يوحنا « سأصلى لله وسيرسل لكم (فار قليط) آخر » فهو يريد بالفعل أن يقول : إنه سيرسل إلى البشر « وسيطاً آخر » كما كان هو وسيطاً لدى الله وفى صالح البشر فى أثناء حياته على الأرض .

إذن فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائناً بشرياً على هذه الأرض ، ليؤدى الدور الذى عرفه يوحنا ، ولنقل باختصار : إنه دور نبى يسمع صوت الله ، ويكرر على مسامع البشر رسالته .. ذلك هو التفسير المنطقى لنص يوحنا إذا أعطينا الكلمات معناها الفعلى » . (ص١٢٧ - ١٢٩) .

فمن يكون هذا النبى أو الكائن البشرى الذى يحمل رسالة الله بعد المسيح ؟ إنه النبى العربى محمد طبعاً .

وبعد أن ينتهى المؤلف من عرضه لنصوص العهدين «القديم والجديد» على ضوء المعارف العلمية الحديثة ينتقل إلى القرآن الكريم ثم يقارن .

فيعرض فى حوالى مائة صفحة (١٣٥ - ٢٣٧) قصة خلق السموات والأرض ، والنظام الشمسى ، والمجرات والنجوم ، وعلم الفلك ، وتعاقب الليل والنهار ، وتطور العالم السماوى ، وغزو الفضاء ، وطبيعة الأرض ، والبحار ، وعالمى النبات والحيوان والتوازن الذى يتحكم فى عالم النبات ، والتناسل فى عالم الحيوان ، وتأملات خاصة بالنحل والعناكب والطيور ،

وأصول مكونات لبن الحيوان والتناسل الإنسانى ، وتطور الجنين فى الرحم ، ثم ينتهى المؤلف من ذلك كله إلى تصديق كل ما جاء به القرآن تجاه هذه الظواهر العلمية ، وإلى مطابقة ذلك للحقيقة وإلى رفض كل محاولة للتشكيك فى قدسية القرآن وصدقه وقبوله .

لقد مررت سريعاً تجاه هذه الظواهر العلمية و لم أشأ التعليق عليها بإضافة فالظواهر العلمية لم تكن - بالدرجة الأولى - هى الغاية من عرض هذا الكتاب وتقديمه وإنما الغاية الأسمى فى نظرى - كمسلم - هى تأكيد ما جاء به القرآن نصاً وحقيقة ، وأنه وحى الله المنزل على صفيه وحبيبه ، لأن ما يهم المسلم بالدرجة الأولى هو إيمانه ويقينه ، ولا يطمع مسلم اليوم فى شئ أكثر من هذه الشهادة التى يقدمها إليه رجل على غير ملته ودينه ، غير أنى أستأذن القارئ فى عرض نموذج واحد لهذا التفسير العلمى الذى ذكره المؤلف فى كتابه ، واستأذنه كذلك فى اختيار قصة تطور الجنين كمثال لكل ما اشتمل عليه الكتاب فى كل أبوابه .

يقول المؤلف :

« إن تطور الجنين فى الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تماماً لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين ، ولا يحتوى هذا الوصف على أية مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقدها ، إذ يقول القرآن إن الجنين بعد مرحلة التشبث ، وهو التعبير الذى رأينا إلى أى حد هو مؤسس على الحقيقة ، يمر بمرحلة «المضغة» (أى اللحم الممضوغ - ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمى الذى يغلف باللحم) .

«ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً» المؤمنون ١٤) .

المضغة تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ ، أما اللحم فيعنى اللحم النضر، ويستحق هذا التمييز الالتفات ، إذ أن الجنين فى مرحلة أولى من تطوره كتلة

صغيرة تبدو فعلاً للعين المجردة كلحم ممضوغ ، ويتطور الهيكل العظمى فى هذه الكتلة وبعد أن تتشكل العظام تتغطى بالعضلات ، والمعروف أن بعض الأجزاء فى أثناء مدة تطور الجنين تبدو غير متناسبة مع ما سيكون عليه الفرد فى المستقبل ، على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة ، وذلك هو معنى «مخلق» وهى تعنى «مشكل» بنسب ، وقد جاءت الآية الخامسة من سورة الحج تشير إلى هذه الظاهرة ﴿ ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة ﴾ ، ثم يذكر القرآن بعد ذلك ظهور الحواس والأحشاء ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ (السجدة ٩) وتشير أيضاً إلى تشكل الجنس ..

﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى﴾(النجم ٤٥-٤٦).

وكما قلنا فلابد من مقارنة كل هذه المقولات القرآنية بالمعلومات التى تثبت فى العصر الحديث ، ولكن من المهم أيضاً مقابلتها بالمعتقدات العامة فى هذا الموضوع والتى كانت سائدة فى عصر التنزيل حتى ندرك إلى أى حد كان معاصرو هذه الفترة بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التى يعرضها القرآن فى هذه المسائل ، وليس هناك أدنى شك من أن هؤلاء المعاصرين للتنزيل لم يعرفوا فى ذلك العصر تفسير هذا الوحى مثلما ندركه نحن اليوم ، والواقع أن المتخصصين لم يكتسبوا معرفة واضحة إلى حد ما عن هذه المسائل إلا خلال القرن التاسع عشر ، فطيلة كل القرون الوسطى كانت الخرافات والأفكار النظرية هى قاعدة مختلف المعتقدات فى هذا الموضوع .. إن المرحلة الحاسمة فى تاريخ علم الأجنة بدأت بدعوى «هارفى» الذى قال سنة ١٦٥١ بأن كل شئ حى يأتى أولاً من بويضة ، وأن الجنين يتخلق تدرجاً .. لقد ساعد اختراع المجهر على هذه المعرفة .. وبرغم ذلك فقد كان النقاش دائراً حول دورى كل من البويضة والحيوان المنوى .

ولكن القرآن حسم هذا الأمر بحقائق علمية ثابتة، وبألفاظ بسيطة. حسم هذه القضية التى أنفق الناس مئات من السنين لمعرفتها ... (ص٢٣٢-٢٣٣) .

لقد عقد المؤلف مقارنة بين رواية التوراة لقصة الطوفان وبين رواية القرآن لهذه القصة فالتوراة تقول : «إن الطوفان كان عاماً لبنى البشر جميعاً» الأمر الذى نفته الدراسات العلمية الحديثة والواقع .

بينما يقول القرآن بأن «الطوفان» كان عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح ، وهذا يشكل الفرق الأساسى الأول بين الروايتين .

أما الفرق الجوهرى الثانى فهو : أن القرآن - على عكس التوراة - لا يحدد زمن الطوفان ولا يعطى إشارة عن مدى الكارثة نفسها .

والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح - فقد أعطى الله أمراً لنوح بأن يضع فى السفينة كل ما سيعيش بعد الطوفان .

﴿ ... احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول .. ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾ .

ولا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة ، فالتوراة - فى الواقع - تقدم ثلاث روايات عن محتوى السفينة .

- على حسب الرواية الكهنوتية نوح وأسرته دون استثناء وزوج من كل نوع .

- على حسب الرواية اليهوية هناك تمييز من ناحية بين الحيوانات الطاهرة والطيور - وبين الحيوانات النجسة من ناحية أخرى .

- على حسب روايات «يهويه» معدلة - زوج من كل نوع طاهر أو نجس ، وتقول التوراة بأن المكان الذى جنحت إليه السفينة نحو جبل «أرارات» أما القرآن فيقول إنه «الجودى» ، وهذا الجبل هو قمة جبال أرارات بأرمينيا .. فى نهاية الأمر فالاختلافات بين رواية القرآن ورواية التوراة موجودة .. ولكن إذا كان بالإمكان التحقق من معطيات الكتب المقدسة .. يصبح واضحاً تمام الوضوح عدم إمكانية اتفاق رواية التوراة فى تقديمها للطوفان بزمنه ومدته مع

مكتسبات العلوم الحديثة ، وعلى العكس من ذلك فإن رواية القرآن تتضح خالية من أى عنصر مثير للنقد الموضوعى . (ص٢٤٨) .

وفيما يختص بالمسيح عليه السلام وقصة ميلاده يقول المؤلف :

«يجب أولاً أن نلاحظ أنه ليس هناك أى موضوع من موضوعات الأناجيل قد أثار انتقادات من وجهة النظر العلمية دون أن تجده فى القرآن (أى تجد الموضوع لا النقد) والمسيح فى القرآن – موضع إشارات عديدة منها على سبيل المثال – إعلان ميلاد مريم إلى أبيها ، وإعلان معجزة ميلاد المسيح لمريم – وطبيعة المسيح – فهو نبى يحتل المكانة الأولى بين الأنبياء .

إن سورة «آل عمران» وسورة «مريم» تخصصان فقرات طويلة لأسرة المسيح ، وهما ترويان مولد أمه مريم وصباها ، وإعلانها بأمومتها الخارقة ، والمسيح يسمى دائماً فى القرآن بـ «ابن مريم» والقرآن يعطى نسب المسيح من جهة أمه أساساً ، وذلك أمر منطقى تماماً . «إذ ليس للمسيح أب بيولوجى» وهنا .. ينفصل القرآن عن إنجيلى متى ولوقا اللذين يعطيان للمسيح كما رأينا نسبين من جهة الذكور وهى بالإضافة إلى ذلك مختلفة ...

أما القرآن فإنه يضع المسيح من خلال نسب أمه من سلسلة نوح وإبراهيم ، ولا يجد قارئ أخطاء فى الأسماء كتلك التى يجدها فى الأناجيل ونعنى الأخطاء الخاصة بأسلاف المسيح .

ومرة أخرى تفرض الموضوعية أن نشير إلى ادعاء هؤلاء الذين يقولون – بلا أى أساس – إن محمداً (ص) مؤلف القرآن قد نقل كثيراً من التوراة ... ولو كان ذلك حقاً لتساءلنا من الذى دفعه ، أو ما الحجة التى أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح ، وبإدخال تصحيح فى القرآن يضع نصه بعيداً عن أى مرمى نقدى تثيره المعارف الحديثة ؟ على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه . (ص٢٤٢) .



وفى نهاية هذه الدراسة الممتعة الرائعة يقول المؤلف :

« إن العهد القديم يتكون من مجموعة من المؤلفات الأدبية أنتجت على مدى تسعة قرون تقريباً .. وهى بشكل عام مجموعة متنافرة جداً من النصوص عدل البشر من عناصرها عبر السنين ، وقد أضيفت أجزاء لأجزاء أخرى كانت موجودة من قبل . بحيث إن التعرف اليوم على مصادر هذه النصوص عسير جداً فى بعض الأحيان .. (ص٢٨٤) .

ولقد كان هدف الأناجيل هو تعريف البشر عبر سرد أفعال وأقوال المسيح بالتعاليم التى أراد أن يتركها لهم عند اكتمال رسالته على الأرض ، والسيئ هو أن الأناجيل لم تكتب بأقلام شهود معاينين للأمور التى أخبروا بها.. إنها ببساطة تعبير المتحدثين باسم الطوائف اليهودية المسيحية المختلفة عما احتفظت به هذه الطوائف من معلومات عن حياة المسيح العامة . وذلك فى شكل أقوال متوارثة – شفهية أو مكتوبة – اختفت اليوم بعد أن احتلت دوراً وسطا بين التراث الشفهى ، والنصوص النهائية ، ولقد كانت النتيجة الحتمية لتعدد المصادر هو التناقضات والمتعارضات التى أعطينا عليها أمثلة عديدة . (ص٢٨٤) .

أما القرآن فإنه لا يخلو فقط من متناقضات الرواية – وهى السمة البارزة فى مختلف صياغات الأناجيل – بل يظهر أيضاً لكل من يشرع فى دراسته بموضوعية ، وعلى ضوء العلوم طابعه الخاص : وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة .... بل أكثر من ذلك يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمى من المستحيل تصور أن إنساناً فى عصر محمد (ص) قد استطاع أن يؤلفها . (ص٢٨٥) .

إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات فى القرآن تظهر الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التى تتوافق تماماً مع المعطيات الحديثة ...

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر .. لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من الله .. وأن تعطى له مكانة خاصة جداً .. حيث إن صحته

أمر لا يمكن الشك فيه ، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو وكأنها تتحدى أى تفسير وضعى .

﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ ...

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .. ﴾

* * *

بعد مائة عام من احتلال فرنسا للجزائر .... أرادت فرنسا أن تحتفل بهذه المناسبة احتفالاً عالمياً ..

وكان من بين فقرات هذا الاحتفال تقديم أربع فتيات جزائريات .. اختارتهن فرنسا بعناية . لتقديمهن إلى المشاركين فى الاحتفال بهذه المناسبة علمتهن فى أرقى المعاهد الفرنسية ...

وأنشأتهن نشأة فرنسية أوروبية كاملة ..

فى ارتداء الملابس ..

وفى معرفة فن الاتيكيت . !

وفى كيفية التحدث إلى الناس باللغة الباريسية المتميزة ..

وفى كل شئ لا صلة له بالإسلام ولا بالجزائر ..

وحين نادى «عريف» الاحتفال على هؤلاء الفتيات الأربع للوقوف على خشبة المسرح

كانت المفاجأة .. بل كانت اللطمة التى صفعت وجوه الجميع ودمرت كل ما فعلوه فى لحظة .

فقد ظهرت «الفتيات» الجزائريات وفى أيديهن المصاحف .. !!!

كما ظهرن فى «ثياب» الوقار والحشمة المعروفة عن نساء الجزائر . !

لقد ضجت فرنسا كلها حكومة وشعبًا من هول الصدمة. وحين سئل الحاكم الفرنسى عن سبب هذه الكارثة أو هذه الخيبة. وقف ليقول فى الجمعية الوطنية:

لم أتوقع أن يكون «القرآن» أقوى من جيش فرنسا بل كل فرنسا .. !!!



يقول «كارلايل» المفكر والفيلسوف البريطانى العظيم :

«من العار أن يصغى أى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين . إن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً لم يكن على حق » .

لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة ، فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى ، ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان ، لملايين كثيرة من الناس ، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين ، وماتت ، أكذوبة كاذبة ، أو خديعة مخادع ؟ ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفاً وعبثاً وكان الأجدر بها ألا توجد .

هل رأيتم رجلاً كاذباً، يستطيع أن يخلق ديناً، ويتعهده بالنشر بهذه الصورة؟

إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب ، ولجهله بخصائص مواد البناء ، وإذا بناه فما ذلك الذى يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد فما بالك بالذى يبنى بيتاً دعائمه هذه القرون العديدة وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ؟

وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً ، متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع .. وما الرسالة التى أداها إلا الصدق والحق .

وما كلمته إلا صوت حق صادق من العالم المجهول .. وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله ... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

إنى أحب محمداً ، لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأى ، لا يعتمد إلا على نفسه ، ولا يدعى ما ليس فيه ، ولم يكن متكبراً ولا ذليلاً فهو قائم فى ثوبه المرقع ، كما أوجده الله يخاطب بقوله الحر المبين أكاسرة العجم وقياصرة الروم ، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة . والحياة الآخرة .

وما كان محمد بعاشق قط ، ولا شاب قوله شائبة لعب ولهو ، فكانت المسائل عنده مسألة فناء وبقاء . وأما التلاعب بالأقوال ، والعبث بالحقائق فما كان من عادته قط .

ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان .. كلا واسم الله .. ..

لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس ، المملوء رحمة وبراً وحناناً وخيراً ونوراً وحكمة ، أفكار غير الطمع الدنيوى ، وأهداف سامية غير طلب الجاه والسلطان .

ويزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمداً وأثاره .

حمق وسخافة وهوس : إن رأينا رأيهم ..

لم يكن كغيره ، يرضى بالأوضاع الكاذبة ، ويسير تبعا للاعتبارات الباطلة و لم يقبل أن يتشح بالأكاذيب والأباطيل .

لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة ، وبحقائق الكون والكائنات ، لقد كان سر الوجود يسطع أمام عينه بأهواله ومحاسنه ومخاوفه ..

لهذا جاء صوت هذا الرجل منبعثاً من قلب الطبيعة ذاتها ..

ولهذا وجدنا الآذان إليه مصغية ، والقلوب لما يقول واعية .

لقد كان زاهداً متقشفاً فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه ، وسائر أموره وأحواله فكان طعامه ، عادة الخبز والماء ، وكثيراً ما تتابعت الشهور و لم توقد بداره نار .

فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟

فحبذا محمد من رجل متقشف ، خشن الملبس والمأكل ، مجتهداً فى الله دائباً فى نشر دين الله ، غير طامع إلى ما يطمع إليه غيره من رتبة أو دولة أو سلطان .

ولو كان غير ذلك لما استطاع أن يلاقى من العرب الغلاظ احتراماً وإجلالاً وإكباراً ولما استطاع أن يقودهم ويعاشرهم معظم وقته . ثلاثاً وعشرين حجة وهم ملتفون حوله يقاتلون بين يديه ويجاهدون معه .

لقد كان فى قلوب العرب جفاء وغلظة ، وكان من الصعب قيادتهم وتوجيهم لهذا كان من يقدر على ترويضهم وتذليلهم بطلاً ، وأيم الله ..

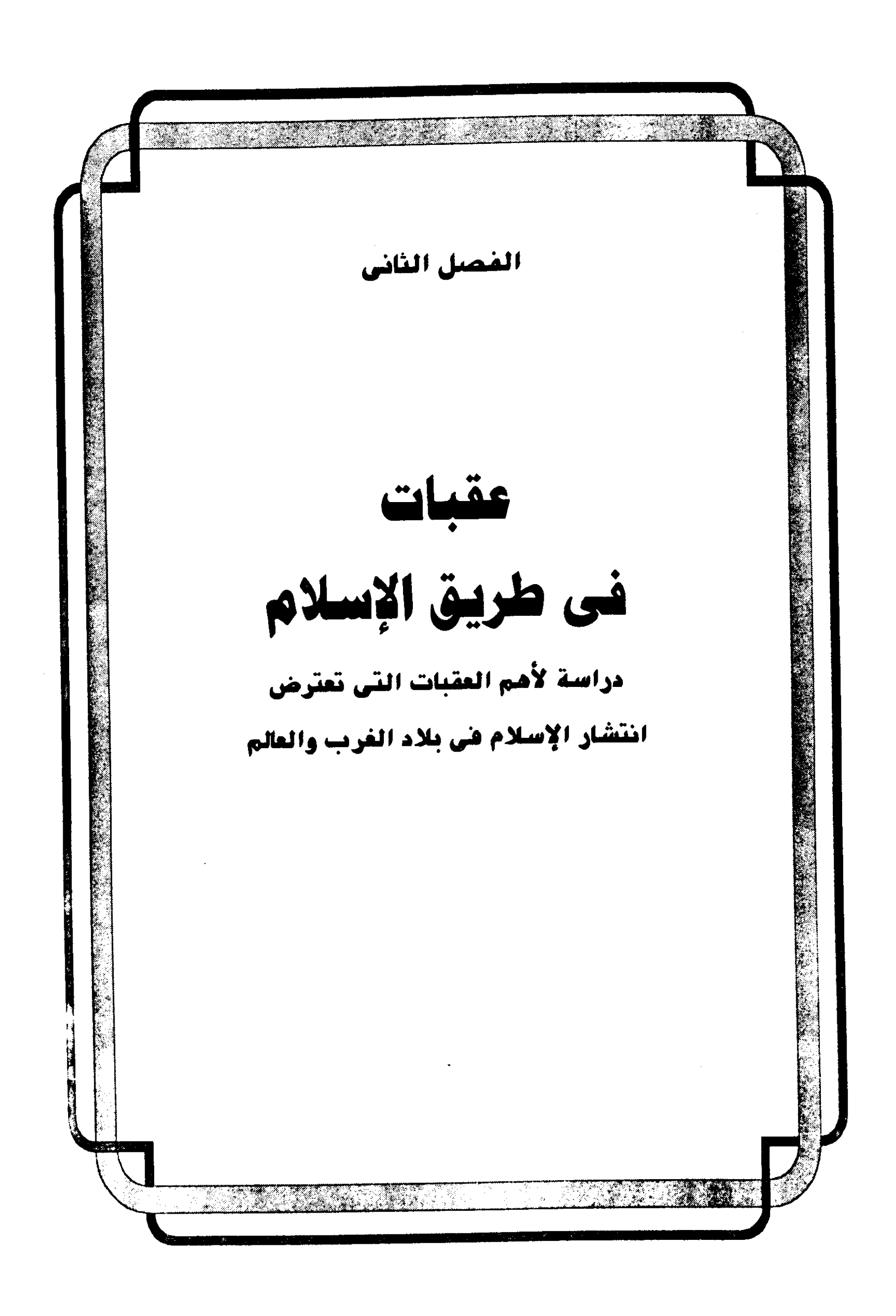
ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لإرادته ، ولما انقادوا لمشيئته .

وفى ظنى أنه لو وضع قيصر بتاجه وصولجانه وسط هؤلاء القوم بدل هذا النبى ، لما استطاع قيصر أن يجبرهم على طاعته ، كما استطاع هذا النبى فى ثوبه المرقع » .

هكذا تكون العظمة ...

وهكذا تكون البطولة ...

وهكذا تكون العبقرية ...



الفصل الثانى

عقبات في طريق الإسلام

دراسة لأهم العقبات التى تعترض
انتشار الإسلام فى بلاد الغرب والعالم



أرجو ألا تصدم مشاعركم إذا قلت أنه لا فائدة في أى حوار مع الغرب..

ولا فائدة من أى حوار مع أية مؤسسة من مؤسسات هذا الغرب..!

إن الغرب يقف من الإسلام منذ ظهور الإسلام موقف المنابذ وموقف العدو .

كما أن الإسلام فى نظر الغرب « متهم » بأقبح وأبشع التهم ولن يغير «حوار» هذا الواقع أو نفى هذه التهم .

يقول المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » موضحًا ذلك المعنى :

[إن حضارتنا المسيحية المادية المعاصرة فى معسكرنا الغربى هى على أحسن الفروض تكرار لعصر ما قبل المسيحية الرومانية الإغريقية ، وعلى أسوأ الفروض صورة كريهة للارتداد عن طريق التقدم الروحى ، وفى عالمنا الغربى اليوم يعتبر تقدير القوميات وتمجيد العنصرية القبلية بمثابة دين قائم يساهم كل فرد منا فيه بنصيب معين ، وهذا الدين القبلى الجديد يعتبر دينًا وثنيًا محضًا][1] ... !!!

أما فى المجال الثقافى والسياسى فالأمر أشد خطورة ، ففى اليونان أبيد شعوب « موريا » عن آخره حتى النساء ، والأطفال ، والشيوخ ، و لم يبق منهم أحد فقد أفنى ٣٠٠,٠٠٠ « ثلاثمائة ألف » شخص تمامًا، وفى أسبانيا وصقلية كان يذبح المسلمون كالبهائم و لم يترك مسلم واحد حيًا أو غير منفى - خارج البلاد - ، وفى دول البلطيق تحول المسلمون من أكثرية إلى أقلية باستخدام الإرهاب والتعذيب المستمرين ، وفى اليونان دمرت جميع المساجد وأغلقت نهائيًا ، وفى فلسطين تسللت عصابة غير شرعية إلى البلاد أعطيت وطنًا قوميًا على حساب تشريد المسلمين ، فقد استخدمت الإمبريالية العنصرية

---

(١) الإسلام والتعصب - خورشيد أحمد - ترجمة سعد زغلول أبو سنة - ص٣٤ وما بعدها .

إسرائيل كخنجر دفعت به فى ظهر أصحاب البلاد الشرعيين، ولا يمكن أن يتناسى العالم الإسلامى بسهولة التعصب والاضطهاد اللذين يمارسهما الغرب نحوهم فى هذا المجال .

وكما يقول المسلم البريطانى « محمد مارمادوك » :

لقد اعتاد الكتاب فى الغرب أن يلصقوا بالإسلام تهمة التعصب ، أفلا يتذكر هؤلاء أنه لم يترك مسلم واحد حيًا فى أسبانيا وفى صقلية، وفى أبوليا؟

هل نسينا أنه لم يترك مسلم واحد حيًا ، ولا مسجد واحد قائمًا فى اليونان فى أعقاب الانقلاب الذى وقع عام ١٨٢١م .. حيث قتل من المسلمين ثلاثمائة ألف بمن فيهم من الشيوخ والنساء والأطفال ؟

هل نسى هؤلاء أن المسلمين كانوا أغلبية فى دول البلقان ثم تحولوا بعد ذلك إلى أقلية بسبب التعذيب والإرهاب والقتل ؟

أفلا يتذكر هؤلاء كيف عاش غير المسلمين فى كنف الإسلام ، وكيف شاركوا المسلمين فى الإدارة والحكم والسلطان حتى إذا سقط علم الخلافة واتيحيت لهم الفرصة استباحوا دم المسلم وعرضه أو يترك الإسلام ؟

❁ ❁ ❁

على أن هذا وحده لا يكفى لإظهار ما يُكنّه الأوربيون[1] نحو الإسلام خاصة ، وهنا ، وهنا فقط « نعنى فيما يتعلق بالإسلام » لا تجد موقف الأوربى موقف كره فى غير مبالاة فحسب كما هى الحال فى موقفه من سائر الأديان والثقافات : بل كره عميق الجذور يقوم فى الأكثر على صدود من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقليًا فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضًا بصبغة عاطفية قوية ، قد لا تتقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائمًا فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن ومبنى على

(١) الإسلام على مفترق الطرق – تأليف : محمد أسد ص٥٢-٥٣.

التفكير ، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفى بالتسرب .. ؟!

حتى أن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الإسلام .. ويظهر فى جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحت فى البحث العلمى ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته . إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذى يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصيًا بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شئ من الفتور « اعتبار الأسباب المُخفِّفَة » ، وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التى يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التى أنشأتها الكنسية الكاثوليكية لخصومها فى العصور الوسطى ، أى أن تلك الطريق لم يتفق لها أبدًا إن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد ، ولكنها كانت فى كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، قد أملاه عليها تعصبها لرأيها ، ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذى يقصدون أن يصلوا إليه مبدئيًا ، وإذا تعذر عليهم الاختيار العرفى للشهود ، عمدوا إلى اقتطاع أقسام من الحقيقة التى شهد بها الشهود الحاضرون ثم فصلوها من المتن ، أو تأولوا الشهادات بروح غير علمى من سوء القصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر ، أى من قبل المسلمين أنفسهم .

وليست نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوهة للإسلام تواجهنا فى جميع ما كتبه مستشرقو أوروبا وليس ذلك قاصرًا على بلد دون آخر . إنك تجده فى إنكلترا وألمانيا ، فى روسيا وفرنسا ، وفى إيطاليا وهولندا - وبكلمة واحدة ، فى كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام .

ويقول « مالك بن نبى »[١] :

(... إن أوربا التى جعلت نفسها المشرف الوحيد على الجنس البشرى ، لم تعترف منذ كانت مدنيتها لا تزال فى المهد ، ترضع اللبن العربى بأى مدينة إسلامية ..) ..

وكما يقول « جوستاف لوبون » معللاً السبب الذى يدفع علماء أوروبا إلى إنكار هذا الجميل برغم أنهم يجب أن يبتعدوا عن التعصب - يقول :

الواقع أن استقلال الرأى ظاهرى أكثر منه حقيقى ، وذلك لأننا لسنا أحرارًا قط فى تفكيرنا حول بعض المعلومات ، فقد استمر التعصب الذى ورثناه ضد الإسلام وزعمائه خلال قرون عديدة حتى أصبح جزءًا من تركيبنا العضوى[٢] ، إن النصرانية على حد قول الكاتب العالمى «حيدر بامات»[٣] : لا تزال تواجه الإسلام بحقد وازدراء يمليه عليها التعصب ، ويتجلى هذا على وجوه كثيرة ، ومنها ما نرى فى الفقه الدولى ، أو القانون الدولى العام الذى لا يعامل الأمم الإسلامية معاملة مساوية للأمم النصرانية .

إن الغرب - كما يقول « برتراند راسل » : كالأرض السبخة لا تنبت فيها إلا بذور الشر ..! أو كما يقول « كيفين رالى » فى كتابه « الغرب والعالم » : إن الغرب هو أكبر مجرم فى هذا العالم ..!!!

عندما قال الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا :

إننا يجب أن نتعلم من القيم الإسلامية ما يساعد على بناء المجتمع والأسرة.

---

(١) من كبار المفكرين المسلمين فى الجزائر وقد تثقف ثقافة فرنسية ، وتوفى فى عام ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م بعد أن اختير عضوًا فى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف - ومن أهم كتبه « الظاهرة القرآنية ».

(٢) مستقبل الإسلام - مالك بن نبى - ص٢٩ - طبعة بيروت .

(٣) مجالى الإسلام - ص٥٠٠ - مطبعة الحلبى - القاهرة .

قال رئيس الكنيسة :

إنه لا يجوز ولا يصح أن يتكلم الأمير الذى سيصبح ملكًا على بريطانيا بهذه اللغة ! ولا يجوز أن يتحدث عن الإسلام بهذه المحبة !..

وفى صحيفة الديلى ميل « Dailly Maill » الصادرة فى يوم ١٩٩٦/١٢/١٦ سخر رجل اسمه « بيتر مكاوى » من الأمير المعجب بالإسلام ، وطلب من الأمير - بدلاً من ذلك - أن يدعو إلى المسيحية حكام طهران !

وفى صحيفة الجارديان « The Gaurdian » قالت امرأة اسمها « كاترين ينيت » أى فى صحيفة « الجارديان » الصادرة فى يوم ١٩٩٦/١٢/١٨ قالت : إن سخافات الإسلام التى يريد الأمير أن يفرضها علينا هى تلك السخافات التى تجعل المرأة رقيقًا للرجل! وتبيح الرجم والجلد وقطع العنق!!!

۞ ۞ ۞

وليس من المصادفة - أننى كنت أقرأ - قبل كتابتى هذا البحث ، بحوثًا أخرى تاريخية ، وبالذات فى مجلة « العروة الوثقى »[1] يقول « جمال الدين الأفغانى » فى هذه المجلة :

« أظلت ولاية الإسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى ، إلى « توكانى » على حدود الصين ، أقطار متصلة ، وديارة متجاورة ، كان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب ، أخذ بصولجان الملك ، منهم ملوك عظام فأداروا بشوكتهم كرة الأرض إلا قليلاً ، ما كان يهزم لهم جيش ، ولا ينكس لهم علم ، ولا يرد قول على قائلهم .. كان فى نقطة الشرق من حكمائهم ابن سينا والفارابى والرازى ..

---

(١) العروة الوثقى - ص١٨ وما بعدها - طبع سجل العرب .

وفى الغرب : ابن رشد ، وابن طفيل ، وما بين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء فى الحكمة ، والطب ، والهيئة ، والهندسة ، فضلاً عن العلوم الشرعية التى كانت عامة فى طبقات الأمة .

كان الخليفة العباسى ينطق فيخضع لها « فغفور الصين »[1] وترتعد منها فرائص أعظم ملوك أوروبا .. كانت لأساطيل المسلمين سلطنة لا تبارى فى البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندى ، ولها الكلمة العليا فى تلك البحار إلى زمان غير بعيد كان مخالفوهم يدينون للملكوت فضلهم ، كما يذلون لسلطان غلبهم ..

فما بالهم اليوم وقد تفرقوا ؟ واختلفوا وتنازعوا وسبقهم غيرهم من الأمم وتأخروا ؟

إنه تنازع الأمراء .. وتفرق الكلمة .. وانشقاق العصا .. فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم .

ضرب الفساد فى نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمن ، وتمكن من طباعهم طمع باطل ، فانقلبوا مع الهوى وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة ونعومة العيش ، واختاروا موالاة الأجنبى المخالف لهم فى الدين والجنس ، ولجأوا للاستنصار ، وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم.

وهذا هو الذى أباد مسلمى الأندلس ، وهدم أركان السلطة التيمورية فى الهند ، ومحا أطلالها ، وهكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الإسلامية ، ودهورتها أمانيهم الكاذبة .

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا ، والتهالك على الخسائس .

أما وعزة الحق وسر العدل ! لو ترك المسلمون أنفسهم مع رعاية العلماء «العاملين» لهم، لتعارفت أرواحهم، وائتلفت آحادهم، ولكن وا أسفاه ... !

---

(١) معناها ملك أو عظيم .

تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ، ولـو على قرية لا أمر فيها ولا نهى ..!!

❁ ❁ ❁

إن ما قاله « جمال الدين » عن ملوك « الطوائف » فى هذا العصر ، هـو هو ما قاله « ابن حزم » عن ملوك الطوائـف بـالأمس. والـداء الـذى قتـل بـه المسلمون فى الأندلس هو هو الذى لا يزال ينشب مخالبه فى قلـب هـذه الأمـة حتى هذا اليوم.

يقول « ابن حزم » :

« وأما ما سألتم من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها ، مع ما ظهر مـن تربص بعضهم بعض ، فهذا أمر امتحنا به ، نسأل اللـه السـلامة، وهـى فتنـة ، أهلكت الأديان إلا من وقى اللـه من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب .

وعمدة ذلك - أى سبب ذلك - أن كل مدبر[1] مدينـة أو حصـن فـى أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب للـه تعالى ورسوله وساع فـى الأرض بفساد ، والذى ترونه عياناً من شنهم الغارات على الجهـة التى يقضـون علـى أهلها ، وأنهم ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين ، حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك ، بما لو حقق النظر أربـاب الدنيـا ، لاهتمـوا بذلـك ضعف همنا . لأنهم مشاركون لنـا فيمـا يـلزم الجميـع مـن الامتعـاض للديانـة الزهراء ، والحمية للملة الغراء ، ثم هم بعد ذلك مترددون بما يؤول إليـه إهمـال هذه الحال ، من فساد سياستهم ، والقدح فى رياستهم ، فللأسباب أسـباب ، وللمداخل إلى البلاء أبواب ، والله أعلم بالصواب »[2] !!!.



---

(١) مدبر أى أمير أو ملك وكذلك كلمة « فغفور » .

(٢) أندليسات - محمد عبدالله عنان - ص٥٢ ، ٥٣ .

يقول « لوثروب ستود وارد » الأميركى عن حركة جمال الدين هذه :

« إن خلاصة تعاليم جمال الدين تنحصر فى أن الغرب مناهض للشرق والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى الصدور كما كانت فى قلب بطرس الناسك و لم يزل التعصب كامنًا فى عناصرها ، وهى تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للإصلاح والنهضة .

ومن أجل هذا يجب على العالم الإسلامى أن يتحد لدفع الهجوم عليه ليستطيع الذود عن كيانه ولا سبيل إلى ذلك إلا باكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على عوامل تفوقه ومقدرته » .

❁ ❁ ❁

فى زيارتى الأخيرة إلى تركيا فى العالم الماضى ، سمعت أن « البطريك الأرتودكسى » بدأ يتوسع فى شراء الأراضى ، وأن الهدف من وراء هذه التوسعة إقامة « فاتيكان » جديد أرثوذكسى فى قلب مدينة إسلامبول[1] العاصمة السابقة لدولة الخلافة .. وأن الهدف التالى لهذه المحاولة هو المطالبة بعودة مسجد « أيا صوفيا » إلى كنيسة ..! ثم ماذا إن الهدف الثالث لهذا المخطط - كما صرح لى مصدر مطلع - هو المطالبة بإعلان مدينة إسلامبول المعروفة باسم « استنابول » عاصمة للأرثوذكسية الشرقية والعودة إلى اسمها القديم أى « القسطنطينية » ..!!

إن الذى قاله « جمال الدين » عن عداوة الغرب للإسلام لم يتغير منه شئ..

فالكيد للمسلمين بلغ أشده ..

والتربص بالمسلمين زاده خطره ..

وساسة الغرب يعلنون من يوم لآخر أن الإسلام هو العدو المنتظر .

(١) إسلامبول معناها : المدينة الممتلئة بالإسلام .. وكان هذا هو الاسم القديم لاستنابول الحالية .

فإن حلف الأطلنطى - بعد سقوط الاتحاد السوفيتى - لا يزال له دور أكبر ..!

« .. إن الذين يتخذون[1] من الإسلام عدوًا - فى الدوائر الغربية - وغلاة العلمانيين فى بلادنا لا يخافون من الإسلام بجرد الشعائر والمناسك والعبادات فلو أننا صمنا النهار وقمنا الليل واعتكفنا فى المحاريب - فقط - لكان إسلامنا هذا مصدر سعادة ومحل رضى من هؤلاء الناقدين والمتحاملين على الإسلام .

إنهم يخشون من الإسلام تكامله الذى يحيى ويبعث ويجدد دنيا أمة يبلغ تعدادها مليارًا وربع المليار من البشر .. وتوحيده لهذه الأمة فى العقيدة والشريعة والحضارة ودار الإسلام .. وقدرته الذاتية على التجديد الذى يجعلها تتجاوز مراحل ومآزق التخلف والجمود والانحطاط .. وهى قدرة ذاتية ، تجعل تجديد دنيانا فى إطار تميزنا الحضارى ، فلا تذوب هويتنا - ومن ثم استقلاليتنا - فى النموذج الغربى فتتحول - بالتقليد الغربى - إلى هامش لمركزيته الحضارية ، فتتأبد تبعيتنا له فى الأمن والاقتصاد .

وهم يخشون هذه اليقظة الإسلامية ، المستقلة حضاريًا - لأنها ستبعث فى هذه الأمة كبرياء مشروعه ، وعزة هى من عزة الله - سبحانه وتعالى - وعزة رسوله ﷺ ﴿ و لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ «المنافقون:٨» .

وهم يخشون بعث الإسلام لهذه العزة فى أمتنا ، لأنها هى التى ستدفع هذه الأمة إلى تحرير دار الإسلام ، الممتدة من « غانا » إلى فرغانة » ، ومن حوض نهر الفولجا إلى خط الاستواء .. وفى هذه الدار الثروات الهائلة التى تمثل - الآن - ومنذ قرنين - أكبر لقمة فى فم الاستغلال الغربى ..!

---

(١) د. محمد عمارة - جريدة الشعب - ١٣ يناير ١٩٩٨م .

لقد حقق الغرب رخاءه بفائض النهب الاستعمارى .. وكانت غفوتنا الحضارية هى التى مكنته من السيطرة على ثروات أمتنا طوال هذه القرون .. وهو - الآن - لا يريد الإسلام الذى يحيى الأمة ، ويوقظ فيها العزة فتحرر الأرض وتحمى العرض وتسترد الثروات .

إن الغرب عندما يدعى أن حضارته هى الحضارة العالمية ، حضارة العصر الحضارة الإنسانية ، لا يتخذ هذا الموقف لمجرد « العنجهية الحضارية » وإنما يكون تعميم النموذج الحضارى الغربى سبيلاً لفرض التبعية له على الأمم والشعوب والحضارات الأخرى ، فتتأبد تبعيتنا له ولمركزيته فى الأمن والاقتصاد .. ولقد وعى جمال الدين الأفغانى هذه الحقيقة عندما كشف عمالة المستغربين - من أبناء أمتنا - الذين يقلدون النموذج الغربى فى التمدن ، فقال : إنهم يفتحون الثغرات فى جدار الأمن الإسلامى لتدخل منها جيوش الغزاة ، ثم يقوم هؤلاء المقلدون بتثبيت أقدام الغزاة » .

❁ ❁ ❁

إن العالم الإسلامى يموج بالفتن ، وقد أفرزت حرب الخليج نوعًا من الجاهلية أشد من الجاهلية الأولى قبل مبعث النبى محمد ﷺ فقد رأينا العلماء والمفكرين يهرعون إلى بغداد معلنين تأييدهم المطلق لحرب العراق ضد إيران - ثم أوغلوا فى جاهليتهم هذه فاتهموا الإيرانيين بالمجوسية التى عفا عليها الزمان - ونسى هؤلاء أو تناسوا أن أئمة الإسلام العظام كانوا من أصل فارسى ، بل إن أئمة اللغة والأدب جاءوا من بلاد فارس وما وراء النهرين ، ونسى هؤلاء أو تناسوا الفتوى التى أصدرها شيخ الأزهر بأن الشيعة فرع من فروع الإسلام، وأن التعبد على مذهبهم جائز كغيره من مذاهب أهل السنة وإن مذهبهم هذا يدرس الآن إلى جوار مذاهب أهل السنة فى جامعة الأزهر ، وأن قانون الأحوال الشخصية الذى صدر فى مصر قبل سنوات أخذ من مذهبهم كما أخذ من مذاهب أئمة السنة الكبار .

ومما زاد الطين بلة ، وأشعل نيران القطيعة والفتنة اتهام من يزعمون أنهم « سلفيون » غيرهم من المسلمين بأفعال أهل الشرك والكفر أو اتهامهم « بالأشعرية »[1] التى لا تتفق مع ما يعتقدون أنه حق ..

وماذا يبقى من الإسلام إذا اتهم إمام من أئمته العظام بالمروق والزيغ ؟

لقد كان أبو الحسن الأشعرى فى دفاعه عن الإسلام ، مثلاً يحتذى فى الجهر بكلمة الحق – وفى إدانة المعتزلة الذين تأولوا القرآن على غير معناه الذى نزل به الوحى – يقول هذا الإمام العظيم فى كتابه « الإبانة عن أصول الديانة »[2] :

« .. وقولنا الذى نقول به ، وديانتنا التى ندين بها ، التمسك بكتاب ربنا عز وجل ، وبسنة نبينا عليه السلام ، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول « أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل – نضّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته – قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون : لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذى أبان الله به الحق ، ورفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين .. فرحمة الله عليه من إمام مقدم ، وخليل معظم مفخم » .

❁ ❁ ❁

إن الذى يحدث فى « أفغانستان » يثير الاشمئزاز .. صبية لا يزالون يحبون فى مدارج العلم يحكمون بلدًا أثخنته جراح الفتن ، وعانى رجاله ونساؤه وأطفاله ، ما لا يطاق ولا يحتمل من عوادى الزمن ..!!

---

(١) نسبة إلى الإمام الجليل أبو الحسن الأشعرى .

(٢) نقلاً عن كتاب « رجال الدعوة والفكر فى الإسلام » – العلامة الندوى ص١٥٣.

وانظر فى هذا أيضا كتاب « الإبانة عن أصول الديانة » طبع دائرة المعارف – حيدر أباد – الدكن – الهند .

لم يكف هؤلاء ما أصاب أفغانستان على مدى سبعة عشر عامًا من الاقتتال والحرب ومن الصراع على السلطة والحكم . فجاؤا بإسلام جديد يحرم على المرأة الخروج من البيت ، وجاءوا بإسلام يعتبر « اللحية » هى جواز المرور إلى جنة الخلد !! أوَ إلى ساحة الإعدام والموت عند الحلق ..!!

وجاؤا بإسلام يعتبر التصوير والموسيقى من كبائر الإثم .!! وجاؤا بإسلام يحرم على المرأة ارتداء جوارب بيضاء لأن هذه الجوارب مما يلفت النظر ويثير غرائز الكبت ..!!

إننا نجنى ثمار الجهل والتخلف ، ونجنى ثمار الفرقة والتشرذم ، ونجنى ثمار الفتن التى لا تزال نيرانها تشتعل وتضطرم ..

وباكستان ..؟ إن باكستان فى خطر حقيقى بسبب هذه الطائفية السامة والمذهبية الضيقة .. وهل سمعتم بجيش اسمه جيس الصحابة يحارب جيشًا اسمه « جيش محمد » ..!! إن الذى يحدث فى باكستان بشع .. وباكستان إن استمر فيها هذا التعصب لن تبقى أبدًا كدولة متحدة .. وقد أعلنت هذه صراحة فى جامعة البنجاب فى محاضرة علنية فى شهر أكتوبر من السنة الماضية.

❁ ❁ ❁

وبعيدًا عن ظلمات الجهالة والتخلف ، وخروجًا من نفق التكفير والتعصب وحرصًا على وحدة الأمة المسلمة من الانهيار والضياع ، علينا جميعًا أن نسأل ونتساءل .

من هو المسلم الذى تجرى عليه أحكام الإسلام ؟

ويحرم دمه وماله وعرضه كما قال النبى ﷺ ؟

يقول الإمام الأكبر « الشيخ محمود شلتوت » فى كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة »[١] :

« .. إن العقيدة هى الجانب النظرى الذى يجب الإيمان به أولاً وقبل كل شئ إيمانًا لا يرقى إليه شك ولا تؤثر فيه شبهة .

ومن طبيعتها تضافر النصوص الواضحة على تقريرها وإجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأت الدعوة رغم ما حدث بينهم من اختلاف بعد ذلك فيما وراءها ..!!

وهى أول ما دعا إليه الرسول ﷺ ، وطلب من الناس الإيمان به فى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة[٢] ، وهى دعوة كل رسول جاء من قبل الله، كما دل على ذلك القرآن فى حديثه عن الأنبياء والمرسلين .

والشريعة هى النظم التى شرعها الله أو شرع أصولها ليأخذ الإنسان بها نفسه فى علاقته بربه[٣] وعلاقته بأخيه المسلم[٤] ، وعلاقته بأخيه الإنسان [٥] ، وعلاقته بالكون[٦] وعلاقته بالحياة[٧] .

وقد عبّر القرآن عن العقيدة « بالإيمان » وعن الشريعة «بالعمل الصالح» وجاء ذلك فى كثير من آياته الصريحة : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً ﴾[٨] .

---

(١) لقد قرأت فى فى هذا الموضوع كثيرًا من كتب العقائد عند أهل السنة واخترت من بينها كتاب الإمام الراحل لسهولته ويسره .

(٢) هى المرحلة التى قام بها من مبدأ الرسالة إلى نهاية وجوده فى مكة وتتجلى عناصر تلك الدعوى فى السور المكية كلها، وقد عنيت السور المكية ببيان ذلك كله، وأصبحت هى المصدر الأول للعلم والإيمان.

(٣) وسبيلها أداء الواجبات الدينية كالصلاة والصوم .

(٤) وسبيلها تبادل المحبة والتناصر على الدوام والأحكام الخاصة بتكوين الأسرة والميراث .

(٥) وسبيلها التعاون فى تقدم الحياة العامة ، والسلم العام .

(٦) وسبيلها حرية البحث والنظر فى الكائنات ، واستخدام آثارها فى رقى الإنسان

(٧) وسبيلها التمتع بلذائذ الحياة الحلال دون إسراف أو تقشف .

(٨) سورة الكهف : الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

﴿ من عمل صالحاً مـن ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .(١)

﴿ والعصر ۞ إن الإنسان لفى خسر ۞ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ۞ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾(٢) .

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾(٣) .

ومن هنا لم يكن الإسلام عقيدة فقط ، ولم تكن مهمته تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط ، وإنما كان عقيدة ، وكان شريعة توجه الإنسان إلى جميع نواحى الخير فى الحياة .

والعقيدة فى الوضع الإسلامى هى الأصل ، الذى تبنى عليه الشريعة والشريعة أثر تستتبعه العقيدة ، ومن ثم فلا وجود للشريعة فى الإسلام إلا بوجود العقيدة ، كما لا ازدهار للشريعة إلا فى ظل العقيدة ، ذلك أن الشريعة بدون العقيدة علو ليس له أساس ، فهى لا تستند إلى تلك القوة المعنوية التى توحى باحترام الشريعة ، ومراعاة قوانينها والعمل بموجبها دون حاجة إلى معونة أى قوة من خارج النفس .

وعليه فمن آمن بالعقيدة ، وألغى الشريعة ، أو أخذ بالشريعة وأهدر العقيدة ، لا يكون مسلمًا عند الله ، ولا سالكًا فى حكم الإسلام سبيل النجاة .

أما العقائد الأساسية فى الإسلام فقد حددها الإمام الأكبر فى هذه النقاط :

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٧ .

(٢) سورة العصر .

(٣) سورة الأحقاف : الآية ١٣ .

أولا : وجود الله ووحدانيته ، وتفرده بالخلق والتدبير والتصرف وتنزهه عن المشاركة في العزة والسلطان ، والمماثلة في الذات والصفات ، وتفرده باستحقاق العبادة والتقديس ، والاتجاه إليه بالاستعانة والخضوع ، فلا خالق غيره ، ولا مدبر غيره ، ولا يماثله مما سواه شئ ، ولا يشاركه فى سلطانه وعزته شئ ، لا تخضع القلوب وتتجه إلى شئ سواه .

﴿ قل هو الله أحد ۝ الله الصمد ۝ لم يلد ولم يولد ۝ ولم يكن له كفوًا أحد ﴾[1] .

ثانيًا : إن الله يصطفى من عباده من يشاء ، ويحمله رسالته - عن طريق ملائكته ووحيه إلى خلقه - ثم يبعثه إليهم رسولاً يبلغهم ، ويدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح ، ومن هنا وجب الإيمان بجميع رسله الذين قصّهم علينا من نوح عليه السلام إلى ﷺ .

ثالثًا : الإيمان بالملائكة «سفراء الوحى بين الله ورسله» وبالكتب «رسالات الله إلى خلقه» كما أنزلت على أنبيائه ورسله .

رابعًا : الإيمان بما تضمنته هذه الرسالات من يوم البعث والجزاء « الدار الآخرة » ومن أصول الشرائع والنظم التى ارتضاها الله لعباده ، مما يناسب استعدادهم ، وتقضى به مصالحهم على الوجه الذى يكونون به مظهرًا حقًا لعدله ورحمته ، وجلاله وحكمته .

خامسًا: وقد جعل الإسلام عنوان تحقق هذه العقائد عند الإنسان الشهادة بأن الله واحد ، وأن محمدًا رسوله (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) وكانت تلك الشهادة هى المفتاح الذى يدخل به الإنسان فى الإسلام ، وتجرى عليه أحكامه .

---

(١) سورة الإخلاص .

فالشهادة بوحدانية اللـه تتضمن كمال العقيدة فى اللـه من جهتى الربوبية « الخلق والتربية » والألوهية « العبادة » .

والشهادة برسالة محمد ﷺ تتضمن التصديق بكمال العقيدة فى الملائكة والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر ، وأصول الشريعة والأحكام .

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾[١] .

❁ ❁ ❁

والحقيقة أو القاعدة الأولى[٢] :

إن الإنسان يدخل الإسلام بالشهادتين .. شهادة أن لا إله إلا اللـه وأن محمدًا رسول اللـه ..

فمن أقر بالشهادتين بلسانه ، فقد دخل فى الإسلام ، وأجريت عليه أحكام المسلمين ، وإن كان كافرًا بقلبه ، لأننا أمرنا أن نحكم بالظاهر ، وأن نكل إلى اللـه السرائر ، ودليلنا على ذلك[٣] :

أولاً : حديث أسامة بن زيد رضى اللـه عنهما عن البخارى وغيره أنه قتل رجلاً شهر عليه السيف ، فقال (لا إلا اللـه) فأنكر عليه النبى ﷺ أشد الإنكار ، وقال : أقتلته بعدما قال : (لا إله إلا اللـه) ؟ فقال : إنما قالها تعوذًا من السيف ؟ فقال : (هلاّ شققت عن قلبه) ؟ .

وفى بعض الروايات : كيف لك بـ (لا إله إلا ا لله) يوم القيامة؟

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٥ .

(٢) ظاهرة الغلو فى التكفير - د. يوسف القرضاوى - مكتبة وهبة - القاهرة من ص٢٥ إلى ص٣١ .

(٣) وهذا مبدأ هام فى تعريف المسلم وهو مبدأ يهدم كل التعليلات التى يتمسك بها دعاة تكفير المسلمين من أية طائفة .

ولهذا جاء عن بعض السلف : الإسلام الكلمة . يعنى كلمة الشهادة .

وأما الصلاة والصيام وسائر شرائع الإسلام وفرائضه فإنما يطالب بها بعد أن يصبح مسلمًا ، إذ هى لا تصح ولا تقبل إلا من مسلم .

أما الكافر فلا صلاة له ولا صيام ولا حج .. الخ .. لفقدانه شرط القبول .. وهو الإسلام .

ثانيًا : أن من مات على التوحيد – أى على لا إله إلا الله – استحق عند الله أمرين :

- **الأول** : النجاة من الخلود فى النار ، ولو اقترف من المعاصى ما اقترف ، سواء منها ما يتعلق بحقوق الله كالزنا ، أو بحقوق العباد كالسرقة . وإن دخل بذنوبه النار فسيخرج منها لا محالة ما دام فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان.
- **الثاني** : دخول الجنة لا محالة ، وإن تأخر دخوله ، فلم يدخلها مع السابقين ، بسبب عذابه فى النار لمعاصى لم يتب منها و لم تكفر عنه بسبب من الأسباب .

والدليل على ذلك أحاديث صحاح مشهورة فى الصحيحين وغيرهما من دواوين السنة .. منها :

عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : (من شهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، والنار حق .. أدخله الله الجنة على ما كان من عمل) .



هذه هي أصول العقيدة عند « السنة » فهل أنكر الشيعة الأمامية شيئًا من هذه العقيدة .. وهل أنكروا شيئًا مما علم من الدين بالضرورة؟.

يقول الشيخ حسين آل كاشف الغطاء فى كتابه « أصل الشيعة وأصولها»[1] :

أولاً : يعتقد « الشيعة الأمامية » بوحدانية الله تعالى فى الألوهية وعدم شريك له فى الربوبية ، واليقين بأنه هو المستقل بالخلق والرزق والموت والحياة والإيجاد والإعدام بل لا مؤثر فى الوجود عندهم إلا الله ، فمن اعتقد أن شيئًا من الرزق أو الخلق أو الموت أو الحياة لغير الله فهو كافر مشرك خارج عن ربقة الإسلام ، وكذا يجب عندهم إخلاص الطاعة والعبادة لله فمن عبد شيئًا معه أو شيئًا دونه ، أو ليقربه زلفى إلى الله فهو كافر عندهم أيضًا ، ولا تجوز العبادة إلا لله وحده لا شريك له .

ثانيا : يعتقد الشيعة الأمامية أن جميع الأنبياء الذين نص عليهم القرآن الكريم رسل من الله وعباد مكرمون بعثوا لدعوة الخلق إلى الحق . وأن محمدًا خاتم الأنبياء وسيد الرسل وأنه معصوم من الخطأ والخطيئة وأنه ما ارتكب المعصية مدة عمره وما فعل إلا ما يوافق رضا الله سبحانه حتى قبضه الله إليه ، وأن الله سبحانه أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج من هناك بجسده الشريف إلى فوق العرش والكرسى وما وراء الحجب والسرادقات حتى صار من ربه قاب قوسين .

---

(١) راجعنا فى هذا الباب كثيرًا من كتب الشيعة ومن أهم هذه الكتب : أصل الشيعة وأصولها - وكتاب عقائد الإمامية - وكتاب المراجعات - وكتاب الشيعة فى عقائدهم - وكتاب الشيعة فى الميزان - وكلها كتب معروفة عند الشيعة .

ثالثًا : يعتقد الشيعة الأمامية أن الكتاب « أى المصحف » الموجود بين المسلمين هو الكتاب الذى أنزله الله للإعجاز والتحدى وتمييز الحلال من الحرام وأنه لا نقص فيه ولا تحريف ولا زيادة وهذا هو إجماعهم الذى لا خلاف فيه مع إخوانهم من أهل السنة .

رابعًا : كما يعتقد الشيعة أن الله «عدل» يحب العدل، والعدل ضد الظلم، والعادل لا يأمر ولا يرضى بالظلم ، ولا يريد الظلم كما لا يأمر بالكفر ولا يرضى بالكفر . وقد تفرع عن هذا الاعتقاد أن الإنسان مخيَّر » لا «مسيَّر» وأنه – أى الإنسان – فى جميع أعماله حر .

وأنه المسئول مسئولية كاملة عن جميع أعماله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، وإن الله تعالى أناط فعل الإنسان باختياره وإن كان قادرًا على منعه[1] .

وبيّن له سبيل الخير فأمره به وسبيل الشر فنهاه عنه ، فإن عصاه فبسوء اختياره ، وإن أطاعه فبهدايته له كما نص عليه القرآن فى سورة الإنسان آية «٣» بقوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا ﴾ وقوله تعالى فى سورة البلد آية «١٠» : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أى أرشدناه إلى طريقى الخير والشر ..

❁ ❁ ❁

وقد جاء فى كتاب « المواقف لعضد الدين الأيجى » وشرحه « للسيد الشريف الجرجانى » وهو من الكتب التى تعد عمدة المتأخرين من الأشاعرة .

(جمهور المتكلمين والفقهاء على أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ، فإن الشيخ أبا الحسن – يعنى الأشعرى – قال فى أول كتابه « مقالات الإسلاميين » :

---

(١) وهذا هو رأى « المعتزلة » وهم فريق من أهل السنة .

اختلف المسلمون بعد نبيهم عليه السلام فى أشياء ، ضلل بعضهم بعضًا وتبرأ بعضهم من بعض فصاروا فرقًا متباينين ، إلا أن الإسلام يجمعهم ويعمهم، فهذا مذهبه ، وعليه أكثر أصحابنا .

وقد نقل عن الشافعى أنه قال : لا أرد شهادة أحد من أهل الأهواء - البدع - إلا الخطابية ، فإنهم يعتقدون حل الكذب .

وحكى الحاكم صاحب المختصر فى كتاب « المنتقى » عن أبى حنيفة - رحمة الله عليه - أنه لم يكفر أحدًا من أهل القبلة .

وأيد صاحب « المواقف » وشارحه رأى جمهور المتكلمين والفقهاء فى عدم تكفير أحد من أهل الإسلام ، ولو خالف الحق فى بعض المسائل الاعتقادية - التى اختلف فيها أهل القبلة - مثل :

هل الله موجد فعل العبد أم لا ؟ هل له جهة أم لا ؟ هل يُرى فى الآخرة أم لا ؟ هل يريد المعاصى أم لا ؟ ..

ونحو ذلك من القضايا النظرية - لم يكن النبى ﷺ يسأل من دخل فى الإسلام ، وحكم بإسلامه عن اعتقاده فيها ، ولا يبحث عن ذلك ، وكذلك الصحابة والتابعون[1] .

فعلم أن صحة دين الإسلام لا تتوقف على معرفة الحق فى تلك المسائل ، وأن الخطأ فيها ليس فادحا فى حقيقة الإسلام إذ لو توقفت صحة الإسلام عليها وكان الخطأ فادحًا فى تلك الحقيقة ، لوجب أن يبحث عن كيفية اعتقادهم فيها ، لكن لم يجر حديث شئ منها فى زمانه ﷺ ولا فى زمانهم أصلاً[2] .

وقال الإمام الغزالى بعد كلام عن المعتزلة والمشبهة والفرق المبتدعة:

---

(١) نقلاً عن كتاب « ظاهرة الغلو فى التكفير » د. يوسف القرضاوى - مكتبة وهبة - القاهرة .

(٢) انظر المواقف وشرحه - جـ٨ ص٢٣٩ ، ٢٤٠ .

والذى ينبغى أن نميل إليه : الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه سبيلاً ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول : لا إله إلا الله- خطأ .

والخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم .

❁ ❁ ❁

لقد سبق أن قمت برحلة إلى شرق أفريقيا ، « تنجانيقا »[١] ، وكينيا ، وأوغندا ، زنجبار .. لقد فوجئت بصورة بشعة من الطوائف والمذاهب ، والملل والنحل .

شيعة وسنة وأباضية ، عرب وهنود وباكستانيون ، وكان لكل طائفة مسجد ، بل كان لكل مذهب مسجد لا يدخله أتباع مذهب آخر .

فأعلنت أننى جئت إلى هنا لكل من يؤمن با لله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولاً وبالقرآن هاديًا ومرشدًا .. قلت هذا فى الصحف ، وأعلنته فى الإذاعة .

فلم يتخلف عن محاضرتى أحد ، وفى هذه اللقاءات قدمت الإسلام كما يؤمن به كل مسلم صحيح العقيدة ، وكان من نتيجة ذلك قيام جمعية لمسلمى شرق أفريقيا تستهدف الدعوة إلى الإسلام على هدى وبصيرة .

لقد حدث هذا فى نهاية الخمسينيات ، فى الوقت الذى كان فيه الاستعمار مسيطرًا على هذه الدول والولايات .

❁ ❁ ❁

فلنستمع إلى هذا الخبر القادم من الولايات المتحدة :

---

(١) ما يعرف الآن باسم « تنزانيا » بعد اتحادها مع زنجبار .

منذ سنوات أمرت قوات الأمن بإغلاق المسجد الرئيس فى « واشنطن » فلماذا أمرت قوات الأمن بإغلاق هذا المسجد[1] ؟

ألأن القوم هناك يضنون بحرية التبليغ على إتباع الإسلام . كلا ، فحرية الدعوة مكفولة .. لكن الذى حدث أن المسلمين من رواد المسجد انقسموا على أنفسهم انقسامًا شائنًا ، ووقعت بينهم فتن عكرت صفو الأمن فرأت الدولة أن تستريح من هذا الشغب ..

ترى ماذا قسم المسلمين هناك ، وأفسد ذات بينهم ، وانتهى بإغلاق مسجدهم ؟؟

قالوا : نزاع بين أتباع السلف وأتباع الخلف تفاقم حتى أوقد حربًا لا تؤمن عقباها ..

وتصورت أنا ما حدث ، يصلى إمام شافعى المذهب فيجهر بالبسملة ، ويقنت فى الفجر ، فيقول له مأموم من السلف : الجهر بالبسملة لم يرد ، والقنوت فى الفجر بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار ..

ثم يحاول هو ومؤيدوه أن يصلوا على مذهبهم هم ، وهنا يتشابكون ويكون النزاع بالأيدى ، ويخاف نصارى واشنطن أن يتحول إلى تشابك بالنعال أو بالنصال فيغلق المسجد .. !!

وربما كان الخلاف : هل يجهر بختم الصلاة أو يُسَر ؟ هل تقرأ سورة الكهف قبل الصلاة أو سورة أخرى أم لا قراءة البتة ؟

وهذه الخلافات الهائلة يمكن تصعيدها إلى مجلس الأمن ، ولكن من يدرى..

ربما استعمل الروس حق الاعتراض « الفيتو » فخذلوا السلف ، أو هزموا الخلف .. !!



---

(١) الإسلام خارج وطنه - الشيخ محمد الغزالى .

يقول الإمام محمد عبده :

إن السبب فى بقاء قوة سلطان الخلاف والنزاع هو فشو الجهل وتعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التى ينتسبون إليها ، وبجاهها يعيشون ، ويكرمون وتأييد الأمراء والسلاطين لهم استعانة بهم على إخضاع العامة ، وقطع طريق الاستقلال العقلى على الأمة ..!!

لأن هذا أعون لهم على الاستبداد ، وأشد تمكينًا لهم مما يحبون من الفساد والإفساد .

لأن اتفاق كلمة علماء الأمة واجتماعها على أن الحق كذا ، بدليل كذا ملزم للحكام بإتباعهم فيه ، لأن الخواص إذا اتحدوا اتبعهم العوام ، وهذه هى الوسيلة الوحيدة لمنع استبداد الحكام ..!!

۞ ۞ ۞

لنبحث إذن كيف تكون للمسلمين وحدة شاملة[١] ؟..

تساءلت : ألا يمكن تحرير ودعم المؤتمر الإسلامى لتحقيق هذه الغاية ؟ إن المؤتمر يتكون الآن من خمسين دولة مسلمة ، بيد أن المسلمين أوسع دائرة من هذه الدول الخمسين ، إن القلة المسلمة فى الهند أربى من عشر دول عربية .

ومعنى هذا إنه لابد من تمثيل طوائف المسلمين فى العالم كله وهم موزعون على نحو خمسين دولة أخرى كما بينا سابقًا .

ولابد من مواجهة قضايا عالمية ومحلية تعترض مقررات هذا المؤتمر ولن يكون الطريق أمامه مُعبَّدًا ، ولابد من الإقدام والتصدى للكارهين ..!!

وثمة اقتراح ثان .. ألا يمكن تحويل الدول والدويلات الإسلامية إلى «ولايات متحدة إسلامية» على غرار النظام الأمريكى ، ويكون الرئيس المنتخب من جماعة المسلمين فى أفريقيا وآسيا هو الإمام المنشود ، أو أمير المؤمنين .

---

(١) أزمة الشورى فى المجتمعات الإسلامية - للشيخ الغزالى - ص٧٥ وما بعدها - الناشر دار الشرق الأوسط.

وهنا لابد من مصارحة الأمة الإسلامية التى توطن فيها الفساد السياسى دهرًا .. أن تزوير الانتخابات خيانة عظمى ، وإذا كنا قد رفضنا توارث الخلافة لأنه يأتى بأدمغة تافهة ، فإن التزوير الذى اتقنه بعض الحكام لن يأتى إلا ببعض الفتاك والشطار وهواة الفرعنة ، ووجود هؤلاء طاعون يغتال الكفايات والأمانات .

(.. من سنين[1] قرأت أن الشعب الفرنسى فى انتخاب حر قال - للجنرال ديجول - لا أريدك) !!!

فجمع الجنرال ديجول أوراق مكتبه ومضى فى هدوء إلى بيته والجنرال ديجول هو محرر فرنسا من الاحتلال الألمانى .

قلت : لو كان الجنرال عربيًا فى بلد عربى لقال للشعب .. أنا أُنحى ؟ إنك أحقر من أن تكون شعبًا لى .. إنى سأبقى لأؤدبك حتى تتعلم احترام العظمة ..!

قال لى صديق : أنت مخطئ ، إنه لو كان فى بلد عربى ما أجرى هذه الانتخابات أبدًا .. ولو أجراها لهيأ كل شئ قبل خوضها ليخرج بالأغلبية الساحقة ..

قلت : يظهر أن رأيك هو الأصوب ..!!

وتدبرت الأوضاع السياسية فى الأمة الإسلامية ثم شعرت بغصة ، لأن الدين القائم فى ظل هذه الأوضاع مطلوب منه أن يحسن القبيح ويقبح الحسن، وفى الدنيا منافقون لا تحصيهم عددًا يرحبون بأداء هذه الوظيفة .. أهذا إسلام وأولئك حكام ؟؟

لقد كانت أرضنا - قديمًا - تصدر الحق والشرف ، والصدق والأمانة ، فماذا تصدر الآن فى سياسة الحكم والمال ؟

---

(١) المرجع السابق ، ص٤١ وما بعدها .

والغريب أن ناسًا يتخذون مـا كتـب فـى عصـور الاضمحـلال نبراسًا ، يظنونه دين اللـه ، وبذلك يضللون الأجيال الراغبة فى فهم دينها .

والكتابة فى السياسة الإسلامية لا تقبل إلا من المصادر المعصومة ولا تقبل من خدام السلاطين ومداهينهم ، ومؤلفات هـؤلاء منتشـرة فـى الأسـواق مـع الأسف .

❁ ❁ ❁

إن الواقع الإسلامى مخيف ، بشع ، مرعب ..!

- من يستطيع أ، يدافع عما يقع فى أفغانستان من تخلف واقتتال ؟
- من يستطيع أن يدافع عما يقع فى الجزائر من جرائم ومذابح ؟
- من يستطيع أن يدافع عما وقع فى مدينة الأقصر ؟
- ثم أى عاقل .. أو مجنون .. يتصور أن يكون هؤلاء القتلة والسفاحون هـم حكام العالم الإسلامى فى المستقبل ..؟!!
- ثم أين هو دور المؤسسات الدينية فى إطفاء هذه الحرائق ..؟
- وما هو دور المؤسسات السياسية .. إسلامية كـانت أو عربيـة فـى إيقـاف هذه المذابح ..؟

إن الذى يحدث يدين هذه المؤسسات كلها وإن من الواجب بل ومـن الضرورى أن نقيم حوارًا بين هذه المؤسسات جميعًا .

ولن يجدى « حوار » مع « الآخرين » ما لم يقم « حـوار » حقيقـى .. مع المسلمين أولاً .. وما لم يختف « التعصب المذهبى » ثانيًا .

وما لم تحترم حقوق الإنسان والعدالة فى بلادنا جميعًا .

يقول جمال الدين :

« إن مسلمى - اليوم - قد سـقطت هممهـم ونـامت عزائمهـم ومـاتت خواطرهم ، واستيقظ فيهم شئ واحد هو شهواتهم » ..!!

فلابد من تربية جيل جديد تربية دينية صحيحة ، يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم عهدًا ألا يقرعوا بابًا لسلطان ، ولا تضعضعهم الحدثان، ولا يثنى عزمهم الوعيد ولا يغرهم الوعد ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب . بل يرون فى تحمل المتاعب وتحمل المكاره غاية المغنم .

❁ ❁ ❁

لقد اتحدت الكنائس المسيحية رغم ما بينها من خلافات جذرية عميقة ، وقد أحصيت بعض هذه الخلافات فراعنى هذا الكم الهائل من الخلافات بين الكنائس المختلفة[١] .

- فقد اختلفوا حول « خليفة المسيح » هل هو بطرس أو مرقس ؟
- كما اختلفوا حول أسفار الكتاب المقدس وهل كلها صحيحة أم أن بعضها مزيف ؟
- واختلفوا حول « الروح القدس » وهل انبثق من الأب والابن أم من الأب فقط ؟
- واختلفوا حول أسرار الكنيسة وهل هى سبعة كاملة العدد أم أن أسرار الكنيسة تنحصر فى سرين فقط كما يقول البروتستانت ؟
- واختلفوا حول « التعميد » وهل يكون بالتغطيس الكامل لكل الجسد ، أم يكتفى فيه بالسكب والرش فقط ؟
- كما اختلفوا حول « طبيعة المسيح » وهل له طبيعتان مختلفتان أم أن له طبيعة واحدة فقط ؟
- واختلفوا حول السيدة مريم وهل كان لها أولاد غير المسيح أم أن المسيح هو ابنها الوحيد فقط ؟!

---

(١) نقلاً عن كتاب « الصخرة الأرثوذكسية » - من منشورات الكنيسة .

- كما اختلفوا حول اسم « السيدة مريم » أهى أم الإله ، أم أنهـا أم المسيح فقط ..؟!
- واختلفوا حول « البابا » وهل يجوز عليه الخطأ أم أنه معصوم من الخطأ ؟
- كما اختلفوا حول « الصيام » وهل هو واجب أم أنه متروك لحرية الفرد فقط ؟..
- كما اختلفوا حول « تناول الأطفال للقربان » أى تناول الخبز والخمر اللذين يتحولان إلى دم وجسد المسيح ..!!

  وهل هو جائز للأطفال أو غير جائز ؟..
- واختلفوا حول « سر الميرون » أى المسح بالزيت - وهل يجب بعد التعميد، أم يؤجل إلى سن البلوغ والنضج ؟..!!
- واختلفوا حول المكان الذى ينتقل إليه الإنسان بعد الموت : هل يدخل الجنة أو النار مباشرة ، أم أن هناك مرحلة انتقالية يتقرر بعدها مصير الإنسان إلى الجنة أم إلى جهنم ؟..!!
- كما اختلفوا حول تطليق الزانى أو الزانية فالكاثوليك يمنعون وقوع هذا الطلاق بينما يبيحه غيرهم كالأرثوذكس والبروتستانت .

❁ ❁ ❁

وبالرغم من كل هذه الخلافات .. التى تتناول العقائد والشرائع عند كل طائفة .. ويكفر بعضهم بعضًا بسبب هذه الاختلافات العقائدية المعروفة .

فإنهم جميعًا .. قد اتحدوا أخيرًا تحت مظلة « مجلس الكنائس » وهذا الاتحاد لم يكن من أجل التصحيح .. أو الاتفاق على رأى دينى صحيح . بل كان هذا الاتفاق وهذا الاتحاد لمواجهة الإسلام والمسلمين .

والمصيبة الكبرى أن « الكاثوليك » أو « الفاتيكان » كان له من إسرائيل موقف متشدد ، وكان يفسر النبوات تفسيرًا يخالف - شكلاً وموضوعًا - تفسيرات رجال الدين « البروتستانت » .. فأرض « الميعاد » لم تكن عند الكاثوليك تعنى منطقة جغرافية معينة .. بل كانت تعنى حقيقة روحية تجمع شمل المؤمنين فى « مملكة الله » فقط ..

وقد بيّن السيد المسيح عليه السلام أن مملكة الله ليست كيانًا سياسيًا يلم شمل اليهود .. وإنما هى حقيقة روحية موطنها القلب :

[ولما سأله الفريسيون : متى يأتى ملكوت الله ؟ أجابهم وقال : لا يأتى ملكوت الله بمراقبة ، ولا يقولون هو ذا ها هنا أو هو ذا هناك .. لأن ملكوت الله داخلكم][1] .

وطبقًا للعهد الجديد فإن ورثة أرض الميعاد الروحية ليسوا بنى إسرائيل ، وإنما هم جميع المؤمنين بالمسيح .. لأنهم نسل إبراهيم الحقيقيون .

يقول بولس : [وشعب الله المختار - فى العهد الجديد - ليس جنسًا بعينه هو ما يسمى بالجنس الإسرائيلى ، وإنما هو شعب عالمى من مختلف الأجناس يجمعه الإيمان بالمسيح : « وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله »][2] .

والمسيح ذاته أدان اليهود، وقرر أنهم فقدوا امتياز الاختيار حين قال لهم:

[لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى .. أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا][3] .

---

(١) لوقا : ١٧-٢٠ .

(٢) يوحنا : ١-١٢ .

(٣) يوحنا : ٨-٤٢ .

كما حكم المسيح على اليهود بالجحيم بسبب إنكارهم لـه ، وقـرر أنهـم لن يكونوا فى الجنة مع إبراهيم واسحق ويعقوب ..

[وأقول لكم : إن كثيرين سيأتون من المشـارق والمغـارب ويتكئـون مـع إبراهيم واسحق ويعقوب فى ملكوت السموات .. وأما بنو الملكوت – اليهود – فيطرحون إلى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان][١] .

كما قالوا عن المسيح : « إنه لم يكن يهوديًا ، ولو أنه ولد بـين اليهـود ، ولهذا قالوا بأصله الإلهى وبقلبه المقدس ، واسمه المقدس ، والمسيح الملـك ، ومـا إلى ذلك من العبارات التى تنفى نفيًا باتًا أى صلة بين المسيح ويوسف النجـار، وتؤكد أنه ابن اللـه ..!!

واستمرت الكنيسة تنص علـى ذلـك حتى آمـن النـاس فـى أوروبـا بـأن السيدة العذراء ليست من آل هارون وإن كانت قد ولدت فيهم .

فكان المسـيحيون وهـم يقتلـون اليهـود فـى مذابحهـم الكثـيرة فـى أوربـا يهتفون : تحيا مارية ..!!

وقد أنكرت السيدة العذراء نفسها أى صلة باليهود عندما ظهرت – فـى الأسطورة – لبرناديت – وقـالت : أنـا الحَمْـل «بفتـح الحـاء وسـكون الميـم» الطاهر .

غير أ، الموقف بدأ يتغير ، والتجديفات والتحريفات بـدأت تزحـف علـى كتابهم المقدس ، ففى عام ١٩٦٥م صدر عن المجمـع الفاتيكـانى الثـانى وثيقـة خاصة بالعلاقة بين الفاتيكان واليهود ..

تقول هذه الوثيقة :

[إن هذا المجمع المقدس إذ يتقصى سر الكنيسة يذكر الرباط الـذى يربـط روحيًا – شعب العهد الجديد – بذرية إبراهيم .. ولا تبرح أبـدًا أمـام نـاظرى

---

(١) إنجيل متى : ٨/١١-١٢ – طبعة دار الكتاب المقدس – القاهرة .

الكنيسة كلمات بولس الرسول فى بنى قومه ، الذين لهم التبنى والمجد والعهود والناموس والعبادة والمواعيد لهم أيضًا الآباء ومنهم المسيح بحسب الجسد « ابن مريم العذراء » ، وأنها تذكر أيضًا بأن الرسل الذين هم عواميد الكنيسة وأساساتها ولدوا من الشعب اليهودى ، وكذلك كثير من أولئك التلاميذ الأولين الذين بشّروا العالم بإنجيل المسيح .

ويشهد الكتاب المقدس بأن « أورشليم » جهلت زمان زيارتها ، وأن اليهود فى معظمهم لم يقبلوا الإنجيل .. لا بل كثيرون هم الذين قاوموا انتشاره.. غير أن اليهود كما يقول الرسول لا يزالون - بسبب الآباء - أعزاء لدى الله لأن مواهب الله ودعوته هى بلا ندامة .. وبما أن للمسيحيين ولليهود تراثًا روحيًا مشتركًا وساميًا يريد هذا المجمع المقدس أن يوحى بالمعرفة والاعتبار المتبادلين ، وأن يعززهما بين الاثنين وأن تكون سلطات اليهود وأتباعها هى التى حرضت على قتل المسيح فلا يمكن مع ذلك أن يعزى ما اقترفه فى أثناء آلامه إلى كل اليهود الذين كانوا يعيشون آنذاك دونما تمييز ، ولا إلى يهود اليوم .. وإن تكن الكنيسة شعب الله الجديد .. يجب مع ذلك ألا ينظر إلى اليهود كمن رذلهم الله ولعنهم كما لو كان ذلك ناتجًا من الكتب المقدسة ..!!

علاوة على ذلك أن الكنيسة التى تشجب الاضطهادات كلها ضد الناس أيًا كانوا تتأسف للبغضاء .. وللاضطهادات .. ولك لمظاهر مقاومة السامية التى استهدفت اليهود فى أى زمن كان ، وأيًا كان مقترفوها .. والكنيسة لا تدفعها فى ذلك الدوافع السياسة بل محبة الإنجيل الدينية متذكرة التراث المشترك مع اليهود][1] .

---

(١) الوثائق المجمعية للمجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى - دار المشرق ش.م.- منشورات المطبعة الكاثوليكية بيروت - ١٩٦٩م - ٢ - ٣٩٢-٣٩٤ .

وسرعان ما اتبعت هذه التبرئة الرسمية من دم المسيح بحذف سائر الصلوات التى تتضمن إدانة اليهود[١] ..!!

❋ ❋ ❋

فإذا كان الحوار بين المسلمين صعبًا .. وإذا كان الاتفاق فيما بينهم يكاد يكون مستحيلاً .. فكيف بالاتفاق أو « الحوار » مع أوربا وأمريكا .. أو مع اليهود والنصارى .

أنا لست متعصبًا ولن أكون متعصبًا أبدًا .. فالتعصب صنو التخلف والجهل .. ولا مكان للتخلف والجهل فى قلب المسلم الحق .

أذكر أننى حين تركت « القرية » إلى القاهرة فى بداية حياتى الأزهرية كثيرًا ما كنت ألتقى بالقسوس من رجال الكنيسة الأرثوذكسية لم أشعر مطلقًا تجاه هؤلاء القسوس والكهنة بأية مشاعر للبغض والكراهية[٢] .

كنا نتكلم دائمًا فى مسائل وطنية وإنسانية ، ثم تتسع هذه المناقشات لتشمل شئون عائلاتنا الخاصة ، وما يجب عمله لتعميق معنى الإخاء والمحبة بين عنصرى الأمة المصرية .

ولأول مرة فى حياتى بدأت أقرأ إنجيل «متى» و «مرقص» و «يوحنا» و «لوقا» .. لم أكن أشعر بأية غضاضة أن أحتفظ فى مكتبى بأناجيل المسيحية إلى جوار القرآن الكريم كتاب المسلمين .. ولا تزال مكتبتى حتى هذا اليوم تضم نسخة من هذه الأناجيل موقعًا عليها من الأب جبران الكاثوليكى العقيدة والمذهب .

وفى أوائل الخمسينيات حين كنت طالبًا فى كلية أصول الدين .. وكان مبنى هذه الكلية ملحقًا بمسجد الخازندارة بحى شبرا . ذهبت ومعى عشرون طالبًا إلى كنيسة القديسة « تريزا » التى تبعد قليلاً عن الكلية والمسجد .

---

[١] دليل جديد على أن القوم يحرفون كتبهم وعقيدتهم حسب الظروف .

[٢] انظر « رسالة إلى البابا بولس » - لكاتب البحث .

لقد فوجئ الكهنة والرهبان بهذه الزيارة وبدت على وجوههم الدهشة من هذه المفاجأة .. وارتسمت علامة استفهام كبيرة شملت المكان كله من المذبح إلى برج الكنيسة .. غير أنى شرحت لهم قصة قدومنا ببساطة .

قلت لهم :

إنكم جيراننا وللجار حقوق مقدسة .. ثم إنكم ضيوف فى بلدنا .. وللضيف حقوق مؤكدة .. فوق هذا كله فنحن جميعًا رعية الله وكلنا يدعو إلى ملكوته حسب إيمانه ومعتقدة .

لقد جئنا إلى هنا لنعلن حقيقة يجهلها أكثر الناس عن « نبى الإسلام » فنبينا محمد ﷺ كان يستقبل النصارى فى مسجده ويترك لهم حرية العبادة فيه.. فكانوا يصلون صلاتهم فى جانب منه ، ورسول الله وأصحابه يصلون فى جانب آخر ، فأى غضاضة أن نحضر إليكم ، أو تجيئوا إلينا ؟ فإذا كان الله « محبة » كما يقول المسيحيون .. فإن هذه « المحبة » فى نظر المسلمين هى أعلى درجات الإيمان والتقوى .

إننا الآن يجب أن نحارب معركة واحدة إنها معركة المؤمنين ضد الإلحاد لتبقى كلمة الله حية وباقية .

بل حدث أن ذهبت إلى أحد معارفى المسيحيين المقيمين فى حى شبرا - حيث كنت أقيم فى هذا الحى - منذ نهاية الأربعينيات - ذهبت إلى هذا الصديق كى أهنئه بعيد « الفصح » أو عيد القيامة .

فجأة دخل علينا أحد القساوسة .. وبدلاً من أن يهنئ رعاياه بالعيد .. نزل عليه - أى على الصديق المسيحى - توبيخًا وتقريعًا لتخلفه عن الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد .

لقد وافقت القس على موقفه .. ثم فوجئ هذا القس بقراءتى على الصديق كل وصايا الكتاب المقدس .. وعظات الآباء والبطاركة التى تحض على ضرورة الذهاب إلى الكنيسة والاشتراك فى قداس يوم الأحد ..!!

فجأة انجذب القس نحوى وشد على يدى ثـم قـال لى معاتبًـا : إنـك ابـن مبارك .. فلماذا لا أراك فى الكنيسة ؟!!

وهنا .. انفجر صديقى من شدة الضحك .. ثم قـال موجهًـا كلامـه إلى القس : أتعرف من صديقى هذا « يـا أبونـا » .. إنـه فـلان ويعمـل سـكرتيرًا لشيخ الأزهر[١] ..!

لم تكن دعوات التقارب بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود قـد ظهـرت .. و لم تكن دعوات التفاهم بين كنيسة رومـا وغيرهـا مـن كنـائس المسـيحية قـد عرفت .. و لم تكن فكرة « عقد مؤتمرات » بين الإسلام والمسيحية قد ذاعـت واشتهرت .. ذلك لأن هذا التقارب أو التفاهم بين المسلمين والنصارى مقـرر سلفًا فى شريعتنا ، ومودة المسلمين للنصارى من السمات البارزة فـى عقيدتنـا وحضارتنا ، ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهـود والذيـن أشـركوا ۞ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ۞ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون ﴾[٢] .

صحيح أن هذه الآية نزلت فى قوم من النصارى أسـلموا .. وهـم الذيـن تعنيهم كلمة ﴿منهم﴾ فى الآية الكريمة ، ولكن يبقى الحكم العام ، بعد ذلـك .. وهو تأكيد مودة النصارى للمسلمين ، ومودة المسلمين للنصارى[٣] .

وفى السادس مـن شـهر أغسـطس ١٩٧٦م وجـه البابـا بولـس السـادس رسالة إلى المجمع الفاتيكانى الثانى دعا فيها إلى مواقـف جديـدة مـن أصحـاب الديانات الأخـرى غـير المسيحية يتخـذ اسـم « الحـوار » ويهـدف إلى إيجـاد علاقات متنوعة بأصحاب هذه الديانات ..

---

(١) كان هذا فى عام ١٩٦٣م .

(٢) المائدة : ٨٢ .

(٣) انظر فى هذه المسألة كتاب « رسالة إلى البابا » و « الفاتيكـان ذو الألـف وجـه » - لكـاتب البحـث - الناشر : دار المختار الإسلامى - القاهرة .

فكانت هذه الرسالة إيذانًا بمرحلة جديدة من مراحل العمل الكنسي في مجال التبشير .. ثم أنشأ أمانة « تقابل سكرتارية أو وزارة » بالفاتيكان تختص بشئون غير المسيحيين ، وحدد المجمع مهامها – في البحث عن الأساليب والوسائل التي تؤدي إلى فتح باب الحوار مع غير المسيحيين والعمل الجاد للتعرف بدقة على الديانات غير المسيحية وتمكين غير المسيحيين من التعرف اللائق بالعقائد والحياة المسيحية[١] .

وكذلك أنشأ مجلس الكنائس العالمي هيئة « لإجراء الحوار مع الشعوب ذات العقائد الحية والأيدلوجيات » هيئة تابعة لقسم التبشير والدعوة إلى الإنجيل بهذا المجلس .

وأسرعت الأمانة العامة لشئون غير المسيحيين « بالفاتيكان » فارتبطت بعلاقات أخوية وثيقة بهذه الهيئة التي أنشأها مجلس الكنائس للتشاور والتعاون في مجال «الدعوة » و «الحوار » باصطلاحه الكنسي .. وكان الكاردينال «بنييد ولي » أول من تولي مسئولية الأمانة العامة لغير المسيحيين بالفاتيكان ومعه منسيور جان جادو .

وفي عهد الإمام الأكبر الراحل الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر طلب السنيور بنييد ولي إجراء حوار بين الفاتيكان والأزهر .

وكره الشيخ عبد الحليم محمود عليه رحمة الله هذا اللقاء وتردد كثيرا في الأمر وأخذت الاتصالات بالأزهر تترى من جهات عديدة ، واضطر الشيخ عبد الحليم أن يستقبل منسيور جادو والوفد المرافق له ، وان يعقد الأزهر مع هذا الوفد حوارا في يومين على أربع جلسات وكان لهذا الحوار آثار سيئة في المجال الإسلامي لكنها لم توضع في الاعتبار.

---

(١) هذا الكلام وما يليه تلخيص لوثائق رسمية من إحدى الهيئات العالمية المهتمة بتحركات الفاتيكان وأنشطته في جميع أنحاء العالم .

ويتميز هذا الحوار بأنـه يـدور فـي المواطـن التـي لا يستطاع فيهـا القيـام بأعمال التبشير صريحة كاملة أو مع رجالات الأديان البارزين .

عندئذ يأخذ التبشير صيغة «الحوار» وأعنى به عقـد المؤتمـرات واللقـاءات واللجان مـن أجـل السـلام والحريـة .. وتحقيـق العدالـة الاجتماعيـة ، ورعايـة حقوق الإنسان وهكذا .

وقد وضعت الكنيسة خططًا مرنة للدعوة .. للحـوار تلبـس لكـل ظـرف ولكل زمان لبوسه ، وقد ألمـح لهـذا كتـاب «موقـف الكنيسـة تجـاه أصحـاب الديانات الأخرى » ونلخص من هذا الذى عرضناه إلى :

أن خطة «الحوار» تمثل حجر الزاوية اليوم لكل عمـل تتجـه بـه الكنيسـة نحو الهيئات والمؤسسـات غـير المسـيحية ، وبـل كـل عمـل تتجـه بـه الكنيسـة الكاثوليكية نحو الفرق المسيحية الأخرى .

فالرسالة التى يوجهها البابا على رأس كل عام دعوة للسلام هى من باب الحوار ، والدعوة إلى إقامة صلاة فى «أسبزي » في ١٩٨٦/١٠/٢٧ من أجـل السلام .. والتي شارك فيها ممثلو عديد من الأديان .. ومنهم ممثل رابطة العـالم الإسلامي ، هي دعوة تدخل في باب الحوار الكنسى .

ومثلها الدعوة الواردة من اللجنة اليابانية لاتحاد الديانات العالمية «لحضـور مؤتمر يعقد لهذه الديانات في طوكيو ..» وهكذا .

لقد ذكرنا أن الحوار في حقيقة الأمر أسلوب من أساليب التبشـير ، وأنـه يرمي إلى الوصول إلى الطبقات التي لا تستطيع أساليب التبشير العادي أن تصل إليهـا ، مـن رجـالات الإسـلام البـارزين ، أو كهـان الديانـات الأخـرى غـير المسيحية.

إن مصطلح الحوار الكنسي الجديد لا يعني الاقتصار علي مجـالس المناقشـة والتغبير وتبادل الرأي ، ولكنه يشمل كل أساليب اللقاء ، بما فيها المؤتمـرات ،

والصلوات والندوات والاتحادات ، والزيارات ، والصداقات ، وعقد الصلات الشخصية ولجان العمل المشترك من أجل السلام والحرية ، والعدالة الاجتماعية، وحقوق الإنسان ، وهكذا .

ونضيف إلى هذا أن من أهداف الحوار :

١- جميع الكنائس علي عمل مشترك وهدف واحد ، وهو غزو الأمة الإسلامية في عقول قادتها ، وفي همتهم، وصلابتهم ، وقد حدث ائتلاف الكنائس علي هذا العمل .

٢- نقل المعركة إلى داخل الأمة الإسلامية بإحداث مزيد من التمزق والفرقة بين أبنائها ، ذلك أن ما يقتضيه الحوار من مجاملات وتنازلات عن مبادئ إسلامية مقررة .. لابد وأن يلقي معارضة من الفئات السلفية المحافظة ، ثم تتوالى النتائج عللاً وآفات بين المسلمين في سلسلة من التداعيات .

❁ ❁ ❁

فى إنجيل متى كلام على لسان المسيح عليه السلام يقول فيه :

[سمعتم أنه قيل للقدماء ، لا تحنث .. بل أوف للرب أقسامك .. وأما أنا فأقول لكم : لا تحلفوا البتة لا بالسماء لأنها كرسى الله ، ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه .. ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم ، ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء ولا سوداء .. بل ليكن كلامك نعم نعم ، ولا لا ، وما زاد على ذلك فهو من الشرير] .

وأسأل البابا .. والفاتيكان .. ومجلس الكنائس العالمى وكل قس أو كاهن أو أسقف .. أو بطريرك .. إنكم تؤكدون كل يوم ، وتعلنون كل ساعة ، أنكم لا تضمرون للمسلمين أى شر ، وأنكم على استعداد لتقديم كل ما يؤكد ذلك وتقسمون عليه كل يوم .

فماذا تقولون بعد أن كشف الغطاء عن مؤامراتكم ضد الإسلام ؟ ، وماذا تقولون عن مؤتمر « كلورادو » الذى اتفقتم فيه جميعًا على محو الإسلام[1] .

إن الخطة التى اعتمدها مؤتمر « كلورادو » تجئ فى مرحلة من أسوأ المراحل التى مر بها العرب والمسلمون من حيث التمزق والتفرق ، وحيث الجهل والتأخر وحيث لا تجد دولتين مسلمتين متفقتين على هدف واحد محدد، وإذا كان « التنصير » لم يحقق أهدافه فيما سبق لاعتبارات خاصة بصعوبة الاتصال فيما مضى ، فإن الأمر يختلف تمامًا فى هذا العصر ، حيث اقتحم التنصير آفاقًا جديدة . واستعمل وسائل تكنولوجية متطورة ، كالأقمار الصناعية والتليفزيون ، بالإضافة إلى الإذاعات المختلفة التى تغطى أو تملأ فضاء العالم وتذيع بكل اللغات ، وكل اللهجات ، ويكفى أن نعلم أن فى المنطقة العربية والأفريقية أكثر من عشر إذاعات متخصصة فى بث المواد التنصيرية .. إحداها ملاصقة تمامًا لإذاعة القرآن الكريم التى تبث إرسالها من القاهرة .

إن الاعتمادات المالية الكبرى لحركات التنصير تفوق فى ميزانيتها ميزانيات دول كثيرة فى أفريقيا وفى آسيا ، وهذه الميزانية تقدم فى صورة خدمات تعليمية وصحية ، وثقافية ورياضية تحتاجها هذه الشعوب الفقيرة التى لا يتوفر لأبنائها مثل هذه الخدمات الضرورية الملحة .. « يجمع سنويًا حوالى عشرة مليارات من الدولارات لتنفيذ هذه المؤامرة » .. لقد بدأ استخدام الكتاب والصحيفة والمجلة فى الأعمال التنصيرية .. ويكفى أن نعلم بأن أكبر مؤسسة تنصيرية فى مصر تقع خلف مبنى وزارة شئون الأزهر فى جاردن سيتى بالقاهرة ..!! وأن أكبر مكتبة تنصيرية تقع على بعد أمتار قليلة من المبنى

---

(١) اقرأ فى هذا الموضوع كتاب « الإسلام والتحديات الجديدة » دكتور محمد عمارة - وفى هذا الكتاب تتضح أبعاد هذه المؤامرة وخطرها على الإسلام والمسلمين .

نفسه واسمها « مكتبة الثقافة » ولها فروعها فى أسيوط والمنيا ، وغيرها من مدن الصعيد والدلتا[١] .

ومما يساعد على نجاح هذه الخطة .. تقصير مؤسسات الخدمات الصحية والتعليمية فى الدول النامية فتقوم هذه المؤسسات التنصيرية بسد الفراغ فى مجال هذه الخدمات الحيوية وكشاهد على هذا وكمثل واحد من «مصر» ففى منطقة «الدويقة» بالقرب من الأزهر وفى حى «الزبالين» بمصر الجديدة وفى مؤسسة «الجذام» بالخانكة تعمل هذه المؤسسات على مرأى ومسمع من الأجهزة التنفيذية والشعبية فى تنصير المسلمين جهارًا وعلنًا .

ومن أخطر ما جاء فى هذه الخطة التنصيرية : تحريض الكنائس المحلية على النزول إلى الساحة ، والدخول فى معركة مع الإسلام والمسلمين فى كل دولة، مما يؤدى إلى قلاقل وفتن تتهدد أمن الوطن وسلامته ، وتقضى على الاستقرار والأمن فى كل دولة ، وتنشر الكراهية والبغضاء فى كل مدينة أو قرية .

وقد أشادت هذه الخطة التى احتواها هذا الكتاب بقسيس مصرى قام بتنصير بعض المسلمين فى القاهرة[٢] ، واعتمدت أسلوبه فى التحرك لاختراق الأسر الإسلامية ومحاولة تنصيرها ببراعة «ص١١٢» .

إن أخطر ما جاء فى هذا التقرير - كما قلت - هو البند سادسًا - لأن معنى هذا أن يصطدم المسلم والمسيحى فى كل بيت وفى كل مكتب . وفى كل حى أى تحويل مصر إلى لبنان أخرى يتعامل فيها الناس بالديناميت والقتل.



(١) افتتحت فروع لهذه المكتبة أخيرًا فى الأماكن الآتية : « شارع الجمهورية - شاعر الترعة البولاقية - شارع كليوباترا بمصر الجديدة «بالقاهرة» - الجيزة - الإسكندرية .

(٢) انظر فى هذه القصة وغيرها كتاب « التنصير - خطة لغزو العالم الإسلامى » .. الناشر : دار مارك - الولايات المتحدة .

من أقوال المسيح عليه السلام :

[.. الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون .. فإنكم كالقبور المطلية.. تبدو جميلة من الخارج ، ولكنها من الداخل ممتلئة بعظام الموتي وبكل نجاسة .. كذلك أنتم ، تبدون أمام الناس أبرارًا ، ولكنكم من الداخل ممتلئون بالرياء والفسق ، يا أولاد الأفاعي .. كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم فجرة..؟!

❁ ❁ ❁

لا أريد أن أتوسع كثيرًا حول هذه القضية .. قضية الحوار مع الغرب أو مع الكنيسة ، فالصراع بين الإسلام وبين هذه المؤسسات لم يعد خافيًا علي أحد ، والحروب الإعلامية ضد الإسلام والمسلمين في العالم تجاوزت حدود اللياقة والأدب .

وإذا كان ولابد من إجراء «الحوار » فليكن موجهًا إلى «الشعوب» لا إلى «الحكومات» ، وإلى الناس إلى «المؤسسات».. ولكن كيف ؟

تلك «عقبة» أخرى من العقبات التى تعترض طريق الإسلام في الغرب.

❁ ❁ ❁

لقد سئل الطبيب الألمانى المسلم « كريم عبد الله » المقيم فى فرانكفورت : ما العقبات التى تحول بين الإسلام وبين شعوب الغرب ؟

فأجاب الطبيب الغيور المسلم :

هناك عقبتان :

أولاً : حال الأمة الإسلامية وواقعها المثير للأسف والحزن .

وثانيًا : سلوك المسلمين الذين يسافرون إلى بلاد الغرب ، وما يصاحب هذا السلوك من فجور وفسق .

أما العائق الأول : فلا يحتاج إلى أمثلة .

وأما العائق الثانى : أضرب لك مثلاً واحدًا من مئات الأمثلة .

فى عام ١٩٨٢ - بذلنا جهدًا شديدًا حتى حصلنا على موافقة بإنشاء مركز إسلامى ضخم ، وقمنا بتقديم التصميمات التى تكلفت وحدها مليون مارك .

بعد ذلك استطعنا جمع أكثر من خمسة ملايين مارك . ثم شرعنا لإتمام البناء على الفور ، وفجأة ، اختفى أمين الصندوق ومعه خمسة ملايين مارك ، وتوقف البناء فى المركز إلى هذا الوقت .

فماذا يقول الألمان عندما يسمعون بهذه الجريمة التى ارتكبها مسلم سيئ الخلق والسلوك إلى هذا الحد ؟!!

ويقول الدكتور كريم عبد الله :

لقد صدمت فى أشخاص يتمتعون بشهرة واسعة ، غير أنهم فى واقع الأمر وحقيقته لا يمتون إلى الإسلام بأية صلة .

وأكثر الناس - للإسلام عداوة - لا يمكن أن ينال من الإسلام كما تنال أفعال هذه الطائفة ..!!!

إن الإسلام دعوة ، والدعوة لابد لها من داعية ، وهذا الداعية إن لم يكن أسوة وكان فى حياته قدوة ، فقد الناس ثقتهم فيه ، وانقلب حالهم إلى أسوأ مما كانوا عليه ..!

منذ حوالى أربعين عامًا زارنى فى مكتبى بإدارة الأزهر أحد الفرنسيين المسلمين ، لقد حدثنى هذا الأخ الفرنسى المسلم عن أحد الأساتذة الذين أسلموا عن طريق القراءة والبحث فقال :

لقد أعجب الرجل بالإسلام أيما إعجاب فقد وجد فيه ما كان يفتقده فى غيره من الأديان وبلغ من شدة حماسه أن قرر زيارة بلاد المسلمين ليرى بنفسه كيف تنعم هذه البلاد بالحياة فى ظل الإسلام ..!!!

لقد بدأ بالجزائر والمغرب وتونس .. و .. و لم يكمل الرجل رحلته ثم قفل راجعًا إلى فرنسا .

وحين سأله أصدقاؤه لماذا لم تكمل رحلتك إلى بلاد الشرق ؟

قال هذا الفرنسى المسلم :

الحمد لله الذى جعلنى مسلمًا .. بالإسلام .. وقبل أن أرى أحدًا من المسلمين ..!!

❁ ❁ ❁

يقول الدكتور عبد الحليم محمود[١] :

زارنى أحد الأساتذة الأمريكان ، فأخذته إلى الجامع الأزهر وبينما كنا ننتقل من رواق إلى آخر سألنى هذا الأمريكى عن «لجنة الفتوى» ، فحدثت هذا الأمريكى عن لجنة الفتوى ورسالتها فرغب فى زيارتها والتعرف على أعضائها.

دخلنا القاعة فكان فيها المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم[٢] ، والمرحوم الشيخ محمد العنانى ، وبعد التعارف والتحية خاطب العالم الأمريكى فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم قائلاً :

إن الغرب الآن فى حالة روحية قلقة ومن الممكن أن يتجه إلى الإسلام ولكن من المحتمل أن يتجه إلى صوفية الهند فهل أعد الأزهر عدته لتوجيه الغرب نحو الإسلام ؟

وكان السؤال مفاجئًا أو مربكًا .

---

(١) أوروبا والإسلام – الدكتور عبدالحليم محمود – ص٢١٨ ، وانظر فى ذلك أيضًا كتابنا : «حتى لا نخدع» ص٢٣٨ .

(٢) شيخ الأزهر الأسبق .

ولكن فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم أجاب وفى أسلوب دبلوماسى لبق: إننا بصدد الدراسة والبحث .

وجعلنى سؤال هذا العالم أعود من جديد إلى التفكير فى موضوع الغرب والإسلام وصرفتنى الشواغل من جديد إلى أن وقع فى يدى كتاب «إيقاظ الغرب للإسلام» تأليف «اللورد هيدلى» فقرأت فيه :

من عدة سنين خلت .. كان أحد أفكار الرئيسية هو : كيف يمكن للإسلام أن يتغرب أى يصبح غربيًا أو بعبارة أخرى - الكلام لا يزال للورد هيدلى - كيف يمكننا نحن الأوربيين أن نعد أنفسنا لنفقه معنى الإسلام الحقيقى ، إنى أعتقد أن هناك آلافًا من الرجال والنساء أيضًا مسلمون قلبًا ، ولكن خوف الانتقاد والرغبة فى الابتعاد عن التعب الناشئ عن الدخول فى الإسلام يخفى هذه الحقيقة التى لابد أن تظهر يومًا .

۞ ۞ ۞

وقد نشرت مجلة «نيوز ويك» News Week [1] تحقيقًا مذهلاً عن عدد الطوائف التى بدأت تنتشر على نطاق واسع فى أمريكا وأوربا وذلك تحت عنوان «عالم الطوائف الغريب» Tthe Steraing Cuits World .. وتقول هذه المجلة :

إن مأساة مدينة «جايانا» لا تزال ماثلة أمام العين .. كيف استطاع قس مجنون اسمه «جونز» أن يسوق ضحاياه إلى الموت بابتلاع السم ، مئات من الرجال والنساء والأطفال ينتحرون فى حركة جماعية تلبية لأوامر الشيطان القس .. والذى يعرف باسم الأب «جونز»[2] ..!!

---

(١) ١٦ يناير سنة ١٩٨٦م .

(٢) وهذا ما حدث أخيرًا فى تكساس .. حيث قام «ديفيد قورش» بإحراق مئات الرجال والأطفال فى مستعمرة خاصة . وحيث يدعى ديفيد بأنه المسيح المنتظر .. انظر مجلة تايم ، ونيوزويك ١٩٩٣/٨/٧.

وبالرغم من مضى خمسة عشر سنة على حدوث هذه المأساة أو هذه المذبحة .. فلا تزال هذه الطقوس تمارس فى كل مكان ..

من مدينة «برث» فى جنوب استراليا إلى مدينة «باريس» فى فرنسا .. ومن «بوجوننا» إلى «بومباى» فى الشرق الأقصى .

إن انتشار هذه الطوائف الشيطانية لا تزال آخذة فى الانتشار والتوسع ، ومن أهم هذه الطوائف طائفة «صن ما يونج مون» الكورى الأصل والذى يزعم أن المسيح تحدث إليه منذ حوالى نصف قرن ..!

لقد أصبحت الطوائف المسيحية فى البرازيل أقل عدد من الطوائف غير المسيحية كما يقول الأسقف «بوهن» :

إنها غارة عاصفة على المسيحية فى أقطار كثيرة ، كما يقول هذا الأسقف .

❁ ❁ ❁

ومن الأمور المحيرة .. أن تقف الكنيسة موقفًا سلبيًا من كل هذه الظواهر العاصفة والمدمرة ، والتى تحيط بها من كل ناحية .

إن الكنائس متفرغة فقط لمطاردة الإسلام وحصاره ، لقد هربت من معركتها الحقيقية لتحارب «بالتنصير» فى جهات أخرى ضد المسلمين فى آسيا وأفريقيا .

وهى بهذا الهروب ترتكب خطيئتين فى حق نفسها ، وفى حق المسيحية فهى :

أولاً : تثبت فشلها فى مواجهة الوثنية والخرافة ، وهذه خطيئتها الأولى .

ثانيًا : لم تتوقف عن إرسال جحافل المنصرين للعدوان على الإسلام والمسلمين فى أنحاء الدنيا .

وهذه هى أكبر الخطايا .. والعقبة الكؤود فـى طريـق أى تفـاهم حقيقـى بين الذئب والضحايا . !!!

❁ ❁ ❁

فإذا كان الأمر كذلك ، فما الذى يمنع الغربيين من الدخول فى الإسـلام زرافات ووحدانًا ؟

الواقع أن العوامل التى تمنع الأوربيين مـن اعتنـاق الإسـلام كثـيرة قويـة ، ومن المؤسف أن بعض هذه العوامل يرجع إلى المسـلمين أنفسـهم ، ولنتحـدث أولاً عن العوامل الخارجية عن الإسلام والمسلمين .

١- وأول هذه العوامل هى الكنيسة[١] :

لقد اتقنت الكنيسة فن النظام ، فـلا ارتجـال فيهـا ، كـل شـئ فيهـا معـد مرتب منسق ، قد بُحث عن روية وأعد إعدادًا تامًا .

وكان مما أعدته مشروعان كبيران :

أحدهما : للتبشير .. والثانى : لصد الهجوم عن الديانة المسيحية .

أما فيما يتعلق بالتبشير ، فإنه من الأولويات عندهـا ، أن يعـرف المبعـوث لغة المرسل إليهم ، ويدرس عاداتهم ، وتقاليدهم ، وديانتهم .

ومواطن الضعف فيهم ، والوسائل التـى تجذبهـم ، وأن يعلـم فضـلاً عـن ذلك بعض مبادئ الطب ، ويعلم قبل ذلك وبعده كيفية الهجـوم علـى الديانـة المتوطنة وكيفية الدعوة لديانته .

أما المشروع الآخر وهو الذى يعنينا هنا ، فهو على الخصوص يـتركز فـى دراسة مستمرة متجددة فى أحدث الوسائل لتشويه ديانات الآخرين .

---

(١) أوربا والإسلام ، دكتور عبد الحليم محمود ، الطبعة الثالثة ، ص٤١ وما بعدها - دار المعارف - القاهرة .

وما نشر من أضاليل عن الإسلام لا يحصر ولا يعد ، إنها أضاليل تنشر متتابعة متكررة ، تتردد فى صور مختلفة ، وينتهى بها التكرار والترديد إلى إيمان من تنشر عليه بها ، وتبلغ بهم الصفاقة إلى أن يعكسوا الحقائق عكسًا تامًا .

فالدين الإسلامى مثلاً : وهو دين التوحيد الخاص ، ودين التنزيه التام ، يشيعون عنه إنه دين عبادة الأوثان .

ويكررون ذلك فى مختلف الأمكنة والأزمنة ، وينتهى المسيحيون بالاعتقاد بأن هذا الدين إنما هو : عبادة الأوثان .

وهكذا تسير الدعاية تضليلاً ، وتشويهًا وعكسًا للحقائق .

ومن أهم الوسائل أيضًا لتحصين المسيحية ما يسمونه نظام الحرمان من الدين المسيحى ، وهو نظام بمقتضاه يسهل على الكنيسة أن تحرم قراءة أى كتاب فيه خطر على المسيحية سواء كان هذا الكتاب هجومًا عنيفًا على المسيحية ، أو دعاية بارعة للإسلام ، أو حتى نمطًا ممتازًا من الدعاية القوية لسعة الأفق وتحرير الفكر .

وقد استعملت الكنيسة هذا الحق فى شأن كثير من الكتب الممتازة واستعملت هذا الحق أيضًا فى شأن كثير من الكاتبين ، وكان موقفها من كل كاتب لا يمكنها أن تستولى عليه ، بوسيلة الرغبة أو بوسيلة الرهبة أن تحرم قراءة كتبه ، وأن تحرمه هو من رحمة السماء .

عند الكنيسة إذن : الرغبة والرهبة ، عندها المال ، وعندها الحرمان .

٢- على أن الأسباب التى ترجع إلى المسلمين ، لا تقل خطرًا عن الكنيسة :

إن أية دعوة مهما كانت من السمو لا يمكن أن تجتذب إليها الأنصار إلا إذا كان لها دعاية ، وقد أخذت الدعاية فى العصر الحديث مكانًا يجعلها فى الدرجة الأولى من الأهمية ..

ويعرف ذلك المسلمون ، يعرفه تجارهم ورجال الأحزاب منهم ، ويعرفه كل مثقف ، ولكنهم لا يعملون به فيما يتعلق بنشر الإسلام .

أين دعاتنا فى الشرق أو فى الغرب .. أين مبعوثونا .. أين الدعاة منا ؟

لا شئ من ذلك مطلقًا ، ومن المعروف أن مبعوثى الحكومة ، ومبعوثى الأزهر إلى الأقطار الخارجية : إنما بعثوا لتعليم الحساب والخط والإملاء واللغة العربية فى مدارس إسلامية ابتدائية أو إعدادية أو ثانوية ، ليس لنا فى الخارج قط مبعوثون ، وإذا كان الدين الإسلامى ينتشر فإنما ينتشر بقوته الذاتية ، برغم الهجوم عليه ، وبرغم العقبات التى تعترض طريقه[1] .

ولنقارن ذلك كله بالإرساليات التبشيرية ، ومن أمامها ومن خلفها المستشفيات ، والملاجئ ، والمدارس ، والمعاهد ، والمال يغدق ، والوظائف تهيأ ، ولنتصور كفتى ميزان إحداهما لا شئ فيها وتلك هى كفة المسلمين بالنسبة للإسلام ، والأخرى فيها كل شئ ، وتلك هى كفة المسيحيين بالنسبة للمسيحية .

وسبب آخر تحدث عنه جمال الدين الأفغانى ، وكان يرى أنه أقوى الأسباب ، ذلك هو حالة المسلمين .

وكثيرًا ما قال « جمال الدين » : إن الغربيين يستمدون فكرتهم عن الإسلام من مجرد رؤيتهم للمسلمين ، فإنهم يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء أذلاء مستكينين ، فرقت بينهم الأهواء والشهوات ، وقعدت بهم الصغائر وانصرفوا عن عظائم الأمور ، وأصبحوا مستعبدين مستذلين ، ولو كان الإسلام دينًا قويًا لما كان المسلمون هكذا .

ينظر الغربيون إلى المسلمين فى العصر الحاضر ، وينسون شيئين : ينسون أن المسلمين فى العصر الحاضر غير مستمسكين بالإسلام وتكاد الصلة التى

---

(١) أوروبا والإسلام ، مصدر سابق .

بينهم وبينه تكون مجرد صلة اسمية ، وينسون عظمة المسلمين وقوتهم أيام كانوا مستمسكين بالإسلام ، وأيام أن كانت الدنيا لهم .

ولعل المسلمين يعودون إلى دينهم صافيًا نقيًا ، ويستمسكون به فيكونون مرآة حقيقية يتمثل فيها الإسلام قويًا ساميًا .

وآداب الإسلام حقيقة كفيلة بأن تجعل من المسلم رجلاً قويًا مهذبًا كريم النفس ، ولكن المسلمين ابتعدوا كل البعد عن الإسلام .

ولنتخذ مثلاً بسيطًا ، مسألة النظافة ، لقد دعا الإسلام إلى النظافة دعوة لم يدعها دين من الأديان ، و لم يدعها مذهب من المذاهب قديمًا أو حديثًا ، ولكن إذا نظرنا إلى الأقاليم الإسلامية أو إلى الأحياء الإسلامية ، وقارناها بالأقاليم ، أو الأحياء الأخرى ، نجد الفرق واضحًا ، سواء كنا فى مصر ، أو فى تونس ، أو فى مراكش أو فى غير ذلك من البلدان .

ونأخذ مسألة أهم من ذلك ، مسألة اتحاد الأمم الإسلامية ..

فقد دعا إليها الإسلام فى صور لا حصر لها ، وبأساليب لا حد لتنوعها، مهددًا متوعدًا تارة ، مرغبًا محببًا تارة أخرى ، متحدثًا عن الثمرات المادية والدنيوية للاتحاد ، ومع ذلك فقد كان كل ذلك صرخة فى واد ، وكأن المسلمين عن الاتحاد صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

يقول جمال الدين : « إذا أردنا أن ندعو للإسلام ، فليكن أول ما نبدأ به أن نبرهن للغربيين أننا لسنا مسلمين » ..!!

❁ ❁ ❁

ما العمل ؟ أجل .. ما العمل ؟؟!!

لابد من قيام استراتيجية إسلامية شاملة ..

لنختلف كما نشاء فى الأمور الفرعية ، وفى الاتجاهات السياسية ، ولكن لابد من «هدف» يتجه إليه الجميع فى إخاء ومحبة وفى ترابط ووحدة .

لقد سألنى أكثر من مستشرق هذا السؤال ...؟

أريد أن أعرف كم إسلامًا عندكم أيها المسلمون ؟؟!!!

لقد فهمت ما يقصده الرجل ، فهو يحكم على الإسلام من خلال ما يراه من تناقض بين هذه الجماعة وهذه الجماعة ، أو هذه الدولة وهذه الدولة .

❁ ❁ ❁

أعلم أن هذه قضية خطيرة ، وحساسة ، وشائكة ، كما أعلم أن فى العالم الإسلامى تيارات كثيرة مختلفة ، وأعلم أن هناك بدعًا وخرافات شائعة .

ولكن .. هل يصعب أن نتفق على هدف مشترك ؟ إننى لا أطالب بالموافقة على ما هو قائم من خطأ ، ولكننى أعلم أن التقارب وحسن الظن طريقان ميسران للداعية المخلص .

إننى أتكلم فى هذا الموضوع من واقع مسئولية سابقة ، ومن خلال خبرة وتجربة طويلة .

لقد شغلت منصب الأمين العام للدعوة لمدة خمس سنوات كاملة ، ومن خلال متابعتى لأحوال الدعاة شعرت بغصة وحسرة .

وماذا يمكن أن يقال عن مبعوث لا يعرف الفرق بين : الشيعة والشيوعية!! أو بين آسيا وأفريقيا ؟؟

إن الصورة كئيبة ، والواقع المر يحتاج إلى مواجهة حاسمة لتغييره وتصحيحه .

وقد تناول الشيخ الغزالى - بقلمه عرض وتحليل هذه القضية[١] .

وفيما يلى أنقل ما قاله فى تحليل هذه الظاهرة :

(.. نظرت بعيدً عن دار الإسلام ، وراقبت زحام الفلسفات والملل التى تتنافس على امتلاك زمام العالم .. فوجدت الإعلاميين أو الدعاة يختارون من أوسع الناس فكرًا وأرقهم خلقًا .

---

(١) «ضوء على تفكيرنا الدينى» الشيخ محمد الغزالى - ص٣٧ وما بعدها - دار الاعتصام - القاهرة .

فلما رجعت ببصرى إلى ميدان الدعوة فى أرض الإسلام غاص قلبى من الكآبة .!!

كأنما يختار الدعاة وفق مواصفات تعكر صفو الإسلام ، وتطيح بحاضره ، ومستقبله ، وما أنكر أن هناك رجالاً فى معادنهم نفاسة ، وفى مسالكهم عقل ونبل ، بيد أن ندرتهم لا تحل أزمة الدعاة التى تشتد يومًا بعد يوم .

والغريب أن الجهود مبذولة لمطاردة الدعاة الصادقين ، من العلماء الأصلاء ، والفقهاء الحكماء ، للقضاء عليهم ، وترك المجال للبوم والغربان من الأميين والجهلة والسطحيين يتصدون للدعوة ويتحدثون باسم الإسلام ، تصور تلميذًا يقال له : ارسم خريطة لجزيرة العرب ، ووضح مكان الحرمين بها ، فإذا هو يرسم الخريطة وليس بها إلا الربع الخالى .!!

فإذا سألته وأين مكان الحرمين ؟ وضع نقطة بين تبوك والأردن . !!

أو تلميذًا يقال له : ارسم خريطة لنهر النيل .. فإذا هو يجعل فرعى الدلتا يبدأن من الخرطوم لا من القناطر الخيرية .

إن كلا التلميذين ساقط لا محالة فى هذا الاختبار ، فما الرأى إذا اختير كلاهما مدرسًا للجغرافيا ؟!!

❁ ❁ ❁

فى تقرير رسمى أرسل – قبل اثنين وعشرين عامًا – من لندن .. والتقرير لا يزال مدفونًا فى أحد أدراج إدارة الأزهر ..

يقول التقرير :

فى كل عام يقام حفل تحضره الملكة يدعى إليه ممثلو الأديان فى المملكة المتحدة البريطانية .. وبداهة فلابد أن يكون ممثلو كل دين من خيرة علماء هذا الدين وأكثرهم علمًا وثقافة .

حاخامات ، وأساقفة ، وكرادلة ، على أعلى مستوى من العلم والفهم والدراية .

أتدرون من مثّل الإسلام فى هذا الحفل الذى تحضره الملكة ؟

ويشترك فيه علماء من كل دين وملة ؟!!

اكتموا أنفاسكم وتجلدوا قبل أن تتعرفوا على هذه الكارثة ..

يقول التقرير : لقد اختير طالب لتمثيل الإسلام والمسلمين فى هذه المناسبة التى تحضرها الملكة !!.

طالب يحمل الشهادة الثانوية ، ولا صلة له بالعلوم الدينية ، يمثل أكثر من ألف مليون مسلم أمام الحاخامات والأساقفة .. والملكة ..!!

يقول التقرير :

وكى يبدو الطالب فى صورة دينية ألبسوه عمامة وجبة حتى يبدو وكأن هناك شيخًا تحت « القبة » ..!!

وكانت فضيحة للإسلام والمسلمين فى لندن وأوروبا ..

وللأمانة ، ومنعًا للحرج لدى بعض أجهزة الدعوة ، فقد حدث هذا فى عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين ميلادية .

❁ ❁ ❁

منذ خمس سنوات .. وقبل أن أترك عملى كأمين عام للدعوة تقدمت بمشروع إلى مشيخة الأزهر ..

فى مسودة هذا المشروع قلت :

لابد من عودة معهد الإعداد والتوجيه الذى كان قائمًا فى الأزهر فى أوائل الستينيات .

صحيح أن هذا المعهد كان متخصصًا فى تعليم اللغات الأجنبية فقط ، غير أن المشروع الذى تقدمت به يختلف عن مشروع المعهد الأول فى المنهج والخطة ، وفى التركيز على هذه النقاط الحيوية الهامة :

تقسيم العالم إلى قارات .. وتقسم القارات إلى مناطق ولا يخرج مبعوث للعمل فى أية منطقة أو قارة إلا بعد النجاح فى المواد الآتية :

١) اللغة التى يتحدث الناس بها فى كل منطقة .

٢) دراسة المشكلات الخاصة فى كل منطقة أو قارة .. وتقديم الحلول المناسبة لكل مشكلة .

٣) دراسة البدع والخرافات الشائعة فى كل منطقة أو قارة وموقف الإسلام من هذه البدع والخرافات وبخاصة ما يتعارض منها مع الدين والعقيدة .

٤) الإلمام بتاريخ وجغرافية كل منطقة أو قارة .

٥) أن يجتاز المبعوث امتحانًا حقيقيًا فى علوم الدين واللغة ، وفى التاريخ الإسلامى والسيرة ، وفى علوم القرآن والسنة .

٦) أن يجتاز المبعوث الامتحان الخاص بالحضارة الإسلامية ، وأثرها فى نهضة أوروبا الحديثة .

٧) أن يجتاز المبعوث الامتحان الخاص فى علم مقارنة الأديان والنحل والمذاهب الهدّامة .

٨) أن يجتاز المبعوث الامتحان الخاص بالحركة التنصيرية ، والشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام بالنسبة لقضايا الإنسان والحرية .

٩) تدريب المبعوث على الخطابة ، ودراسة فن الإلقاء والمحاضرة .

١٠) يقتصر اختيار المبعوثين على المتخرجين فى هذا المعهد بعد أداء الامتحان فى القدرة والكفاءة .



فى عهد السلطان سليمان القانونى أعلن عن وظيفة إمام مسجد خالية .. أتدرون ماذا كانت الشروط المطلوبة فى اختيار المرشح ..؟

ـ أن يجيد اللغة العربية ، والتركية ، والفارسية ، واللاتينية .

ـ أن يكون دارسًا وفاهمًا للقرآن الكريم ، والإنجيل ، والتوراة .

ـ أن يكون عالمًا فى الشريعة والفقه والسيرة النبوية وتاريخ الإسلام .

ـ أن يكون عالمًا فى الرياضة والطبيعة .

ـ أن يجيد ركوب الخيل والمبارزة بالسيف للجهاد .

ـ أن يكون حسن المظهر .

ـ أن يكون جميل الصوت .

• وقبل هذا وبعده أن يكون قدوة حسنة ، وأسوة صالحة .

هذه هى الشروط المطلوب توافرها فى الداعية كما جاء ذلك فى الإعلان التركى قبل أربعمائة سنة ..!!

❁ ❁ ❁

ويرى الإمام الغزالى أن التبعة الكبرى فى هذا الفساد الشامل ، والضعف فى الدين والانحلال فى الأخلاق ، تقع على العلماء ورجال الدين ، وهم السبب الأول فى فساد هذه الأوضاع ، لأنهم ملح الأمة ، وإذا فسد الملح فما الذى يصلحه[1] ؟؟

(فأدلة الطريق هم العلماء هم الذين ورثة الأنبياء، وقد شغر منهم الزمان، ولم يبق إلا المتمرسون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفًا ، فصار يرى المعروف منكرًا

---

(١) إحياء علوم الدين – جـ١ ص٥٤ ، وكتاب : رجال الفكر والدعوة – للعلاّمة الندوى – ص٢٢٨ .

والمنكر معروفًا ، حتى ظل علم الدين مندرسًا ، ومنار الهدى فى منطقة الأرض منطمسًا)[١] .

لقد وقف الأستاذ : «تى.بى. أرفنج» T. B. Arveng[٢] الأستاذ فى جامعة «تنسى» Tensy الأمريكية ، وقف يخاطب المسلمين فى مدينة «جلاسجو» ببريطانيا منذ سنوات .

فماذا قال البروفيسور «أرفنج» ؟

لقد قال :

إنكم - أيها المسلمون - لن تستطيعوا - أن تنافسوا الدول الكبرى علميًا، أو اقتصاديًا ، أو عسكريًا .. فى الوقت الحاضر على الأقل .

ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا هذه الدول تجثو على ركبها أمامكم بالإسلام ..!!

أفيقوا من غفلتكم لقيمة هذا النور الذى تحملون .. والذى تتعطش إليه أرواح الناس فى مختلف جنبات الأرض .

تعلموا الإسلام وطبقوه ، واحملوه لغيركم من البشر تتفتح أمامكم الدنيا.. ويدن لكم كل ذى سلطان .

أعطونى أربعين شابًا ممن يفهمون هذا الدين فهمًا عميقًا .. ويطبقونه على حياتهم تطبيقًا صحيحًا ويحسنون عرضه على الناس بأسلوب العصر وأنا أفتح بهم الأمريكتين[٣] .



---

(١) رجال الفكر والدعوة فى الإسلام - للعلامة أبو الحسن الندوى - ص٢٢٦ .

(٢) للدكتور تى . أرفنج - دراسة تقول : بأن المسلمين هم أول من اكتشف أمريكا .

(٣) دكتور زغلول النجار - قضية التخلف فى العالم الإسلامى المعاصر - ص١٣٧، ١٣٨ - كتاب الأمة .

هذا هو المدخل الحقيقى إلى شعوب الغرب ، وهذه هى القضية التى يجب أن نبدأ بها من اليوم .

صحيح . أن هناك أنشطة لبعض المؤسسات الدعوية فى آسيا وأفريقيا .

وعلى سبيل المثال لا الحصر :

** الجمعية الخيرية الإسلامية فى الكويت .

** وجمعية الدعوة الإسلامية فى ليبيا .

** ومنظمة الدعوة الإسلامية فى السودان .

غير أننا نريد عملاً موحدًا .. وتنسيقًا كاملاً ، وتخطيطًا واعيًا وشاملاً .



فاسأل نفسك أيها المسلم ..

من أنت ..؟ أأنت فى مرحلة الحياة .. أم الموت ..؟!! أو الموت فى الحياة ..؟!!

فما أجمل أن يعرف الإنسان ذاته .. وإلا فحياته لا تزيد عن حلقة من دخان[1] ..!!!



ولا جدوى من إجراء حوار بين الإسلام والغرب .. ما لم نبدأ بالحوار الأهم ..

حوار بين المسلمين والإسلام ، وحوار بين المسلمين والمسلمين .

هذا هو الطريق الوحيد لاحترامنا والاعتراف بوجودنا .

---

(١) جاويد نامة - محمد إقبال - لاهور .

احترام يقوم على الإيمان الحق بأخوة الإسلام .. واحترام يقوم على الوحدة الفكرية بين جميع المسلمين .. واحترام يقوم على الاعتراف بحق الإنسان المسلم فى الحرية والعدل ، والمساواة الكاملة أمام القانون ..!!.. احترام يعيد الثقة بين الأنظمة والشعوب .

إن المسلمين يعيشون فى جزر منعزلة يحارب بعضها البعض ويلعن بعضها البعض .

وإلا .. فلماذا كانت حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران ؟.. ولماذا كانت حرب الخليج الثانية بين العراق والكويت .

بل لحساب مَنْ .. كانت هذه الحرب التى وقعت على شاطئ الخليج ؟

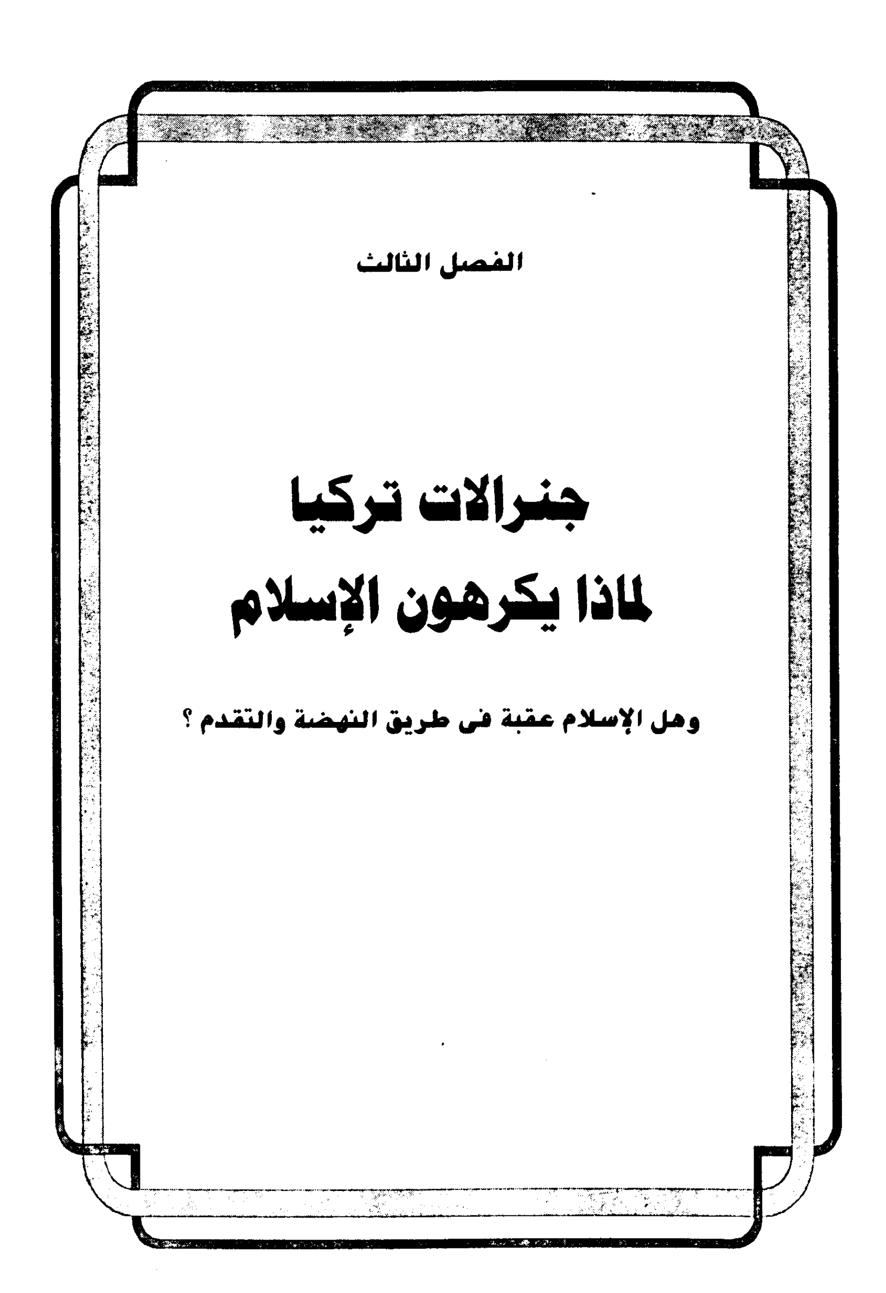
ثم ماذا كان دور «نادى الثرثرة» المعروف باسم «جامعة العرب»[1] ؟!!

أو نادى « التثاؤب والنوم » المعروف باسم «منظمة المؤتمر»[2] !!

---

(١) جامعة الدول العربية .

(٢) منظمة المؤتمر الإسلامى .



الفصل الثالث

جنرالات تركيا
لماذا يكرهون الإسلام

وهل الإسلام عقبة فى طريق النهضة والتقدم ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير
أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار
به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾

سورة التوبة



نصيحة وتحذير

أيها الأتراك

إنكم قد اخترتم جوار أوربا وصحبتها
مع إنكم بفضل الإسلام كنتم على مقربة
من النجوم والكواكب ...
إن« ماء » أوربا سراب لا رى فيه
وان « نورها « نار » تحرق ولا تضئ !!!

« العلامة محمد إقبال »

رجل .. وموقف !

في ساحة المحكمة.. ومنظر جثث خمسة عشر مشنوقًا تشاهد من وراء قضبان النافذة ... وجه رئيس المحكمة – إلى الإمام المجاهد بديع الزمان سعيد النورسي – هذا السؤال :

أنت متهم بالدعوة إلى تطبيق الشريعة . إن من يطالب بها مصيره الشنق كما ترى في جثث هؤلاء المشنوقين الخمسة عشر!!!

وهنا يصرخ – بديع الزمان – في وجه القاضي قائلا :

لو أن لي ألف روح ما ترددت أن أضحي بها كلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام !

إنني أقول لكم وأنا واقف أمام البرزخ الذي تسمونه السجن في انتظار القطار الذي يحملني إلى الآخرة .. إنني مستعد لمرافقة هؤلاء الذين علقوا على المشانق ؟

لقد كانت الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد .. والآن فان هذه الحكومة تعادي الحياة .. !!!

ألا ... فليعيش الجنون ...

وليعيش الموت ...

وللظالمين ... فلتعيش جهنم .. !!

« **بديع الزمان سعيد النورسي** »



مقدمة تاريخية

صبيحة اليوم الذى أكتب فيه هذا البحث كنت استمع إلى النشرة الصباحية من هيئة الإذاعة البريطانية ألـ B.B.C ·

وقد جاء فى هذه النشرة : أن دول الاتحاد الأوربى رفضت انضمام تركيا إلى هذا الاتحاد .. أما لماذا ؟ فلأن تركيا دولة مسلمة ، ولا يجوز أن تنضم دولة مسلمة إلى اتحاد يضم دولا مسيحية ... !!!

فى الوقت نفسه .. وفى النشرة نفسها قالت الإذاعة :

أن الجيش فى تركيا ضغط على رئيس الوزراء لإلغاء المدارس القرآنية ..!! ومنع الدخول بالزى الإسلامى إلى الدوائر الحكومية .. !! وفرض حظر شامل على أى نشاط إسلامى فى تركيا .. !!!

❁ ❁ ❁

ما معنى هذا كله .. ؟

معناه أن الإسلام يحاصر من الداخل ومن الخارج ؟

ومعناه أن المسلمين لم يعد لهم شأن ولا قيمة فى نظر العالم ؟

ومعناه أن « بعض » حكامنا المسلمين يقفون مع عدو المسلمين فى مربع واحد .. !!

❁ ❁ ❁

قبل عامين سافرت إلى «اسلامبول» التى تعرف حاليا باسم "استانبول» لحضور الندوة العالمية عن الإمام المجاهد «بديع الزمان سعيد النورسى» ·

وفى حفل غداء دعينا إليه من رئيس بلدية المدينة سمعنا عجبا ... أن رئيس البلدية الذى دعانا إلى حفل الغداء كان عضوا فى حزب « الرفاه » الإسلامى الذى حله الجنرالات ..!

كانت مدينة « استانبول » قبل أن يتسلمها هـذا الرجـل أو هـذا الشـاب غارقة فى مشكلات عويصة استعصى حلها على جميع رؤساء البلدية السابقين.

مشكلات فى المواصلات . ومشكلات فى المرافق ومشكلات فـى توفـير المساكن للفقراء من أبناء الشعب . كانت « استانبول » - أكبر وأجمل المـدن - تعيش مرحلة احتضار حقيقية .

وفى ظرف عام . بعد تولى هذا « الشاب » شئون المدينة تغير كل شئ . توفرت وسائل المواصلات والنقل ، وتوفـرت المسـاكن للفقـراء البـاحثين عـن مأوى . وأصبحت المرافق تعمل بصورة جيدة فى كل شئ .

حتى « المياه » التى كانت شحيحة أصبحت فائضة عن الحاجة .

وهناك قصة لطيفة تتحدث عن نقص المياه فى هذه المدينة يقول رواة هذه القصة : أن رئيـس البلـدية دعا إلى إقامة صـلاة « الاستسقـاء » فـى جميـع المساجـد . فخرجت الصحـــف « العلمانيـة » تسـخر وتنـدد بهـذا الغبـاء وهذا التخلف .. !!

وكانت المفاجأة التى ألقمتهم حجرا .. فقد تجمعـت السـحب فـى سمـاء المدينة فجأة .. وأمطرت السماء مطرا ملأ كل « الخزانات » الفارغة .. !!!

لم يكتف الرئيس الشاب بكل هذه الإنجازات فقد خطا خطـوات أخـرى كان لها وقع الصاعقة فقد أغلـق نـوادى القمـار والخمر . وذهـب إلى زعيمـة «الداعرات» فى المدينة - وهى أرمينية الأصل - يعرض عليها وعلى ضحاياها «التوبة» ويعدهم بتوفير حياة كريمة لائقة بعيدة عن الفجور والدعارة !

وعادت الصحف « العلمانية » تدق طبول الحـرب ضـد هـذه « المصيبـة القومية » ! كيف يجرؤ رئيس البلدية على إغلاق « أوكار الدعارة » وكيـف يقضى على «بؤر الفساد» التى توفر للحكومة عشرة مليارات كل سنة...!!!

فماذا حدث بعد ذلك لهذا الشاب التقى الصالح ؟ !

فى « عموده » اليومى بصحيفة الأهرام كتب الأستاذ « أحمد بهجت » يقول :

كنا نتهيأ لمغادرة اسطنبول ، وكانت طائرتنا تتحرك الساعة التاسعة مساء ولما كان المفترض أن يصل المسافرون إلى المطار قبل ساعتين من حركة الطائرة، فهذا كان يعنى بالنسبة لنا عدة ساعات نقضيها فى السياحة ومشاهدة معالم المدينة .

ونحن نفخر فى مصر بأن القاهرة هى مدينة الألف مئذنة .. وأن فيها ألف مسجد إلى جوار الكنائس ، أما اسطنبول فهى مدينة تضم ثلاثة آلاف مسجد إلى جوار الكنائس الشهيرة .. واسطنبول مدينة تشبه كتابا مفتوحا من كتب التاريخ .

أن كل ركن فيها وكل بناء يحمل أثرا من أثار التاريخ .

مضينا نضرب فى طرقات المدينة ثم أحسسنا حين أقبلت الظهيرة أن هناك شيئا غير عادى قد وقع .. لقد بدأ المرور يتحول إلى البطء وضاعت سيولة الحركة فى شوارع المدينة..

وبدأنا نتتبع الخبر .. كان الخبر من أعجب ما سمعنا فى حياتنا الصحفية على كثرة ما شاهدنا وسمعنا من عجائب .

قيل لنا أن حركة المرور أبطأت وأصابها ما يشبه الشلل بسبب مظاهرة هائلة تتكون من مائة ألف مواطن تركى اجتمعوا فى الساحات والميادين والشوارع ابتداء من مسجد الفاتح إلى مسجد بايازيد وسط اسطنبول .

سألنا : لماذا احتشدت المظاهرة ؟

قالوا : احتشدت المظاهرة احتجاجًا على قرار المحكمة الدستورية العليا بتأكيد حبس عمدة اسطنبول ورئيس بلدياتها «رجب طيب أردغان» .

سألنا : ما هى الجريمة التى كانت سببا فى الحكم عليه بالحبس ؟

قالوا : هى جريمة خطيرة .. لقد قرأ منذ ثمانية أشهر .

وهو يخطب فى الجماهير بيتًا من الشعر كتبه الشاعر التركى محمد عاكف، وهو شاعر كانت له اتجاهات إسلامية ، وهو يقول فى قصيدته :

«المساجد ثكنات المؤمنين، وقبابها خوذاتهم، أما مآذنها فهى رماحهم».
بسبب بيت واحد من الشعر حكم بالحبس على رجل له تقديره واحترامه فى الشارع السياسى التركى ، وقد اتهم بأنه يعمل على تقويض الأسس العلمانية للدولة التركية وإقامة نظام إسلامى .. هذه هى الجريمة التى دخل بها الشعز إلى السجن .!

فلماذا كل هذه الكراهية للإسلام . ولماذا يقف جنرالات تركيا من الإسلام موقف البغض والعداء .. ؟

لنعد قليلا إلى الوراء ... إلى السبب الحقيقى لهذه الكراهية وهذا العداء..

وبعبارة أكثر – دقة ووضوحا – إلى هذا المستنقع الذى انتشر منه هذا الوباء وهذا البلاء ... !!!

« ... ... لقد بلغ الإسلام فى بداية القرن التاسع عشر نهاية جزره فى القوتين : المادية والمعنوية ، لأنه تلقى عن القرون السابقة أثقالا من المتاعب لم تمتحن أمة من قبله بمثلها ، ولا نعرف من المؤرخين من يستغرب مصاب الإسلام بعد ما تلقاه من الضربات منذ القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر... وإنما الغريب عندهم هو تلك القوة المنيعة التى صابر بها الكوارث والشدائد زهاء تسعة قرون و لم يزل بعدها وحدة إنسانية هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الأمم...

ضربات لم تصمد لمثلها دولة من الدول الجامعة ، أو الدول التى سميت بالإمبراطوريات فى العصرين القديم والحديث .

« وقد رأينا[١] كثيرا من المؤرخين يوازنون بين أخطار هذه الضربات ويجعلون الحروب الصليبية فى مقدمتها من هذه الحركات والاغارات ، أو يجعلونها فاتحة الضربات يتلوها ما تعاقبها من الأخطار والأخطاء » .

وهذه الحروب من غير شك كانت من اعظم الأخطار التى امتحنت بها الأمة الإسلامية . لكنها من غير شك أوقفت عوامل الشقاق بين الأمم الإسلامية ردحا من الزمن ... وكان صلاح الدين الأيوبى بطل هذه الحروب غير مدافع فى نظر الدول الأوربية . ونظر الشرقيين على السواء « ... فهو الرجل الذى هيأته العناية الإلهية لهذه المهمة العظيمة وجمع فيه من خصال الحزم والعزم والإخلاص والحرص على الجهاد ، والتفانى فى سبيله ، وعلو الهمة فى نصر الإسلام ، وحسن القيادة وقوة التنظيم ، والصلاح والديانة ، ومكارم الأخلاق ما لا يجتمع إلا فى أفذاذ الرجال فى العالم ، وقد توحد العالم الإسلامى من بين نهر الفرات ونهر النيل للمرة الأولى - بعد مدة طويلة - تحت قيادته ، واجتمع تحت لوائه أجناس كثيرة من المسلمين لم تجتمع من قبل»[٢] . إلا أن هذا الرجل الحليم الرصين ثارت ثائرته وجن جنونه حين سمع بعزم أرنولد « Arnold » صاحب « الكرك » على فتح الحجاز ، وإعداد العدة فى البر والبحر لاقتحام المدينة المنورة وهدم المسجد النبوى .. ! فأقسم صلاح الدين ليقتلن هذا الرجل بيده إن مكنه الله منه . فكانت موقعة « حطين »[٣] التى تعد من المواقع الحاسمة فى تاريخ الإسلام . وظفر صلاح الدين بشرذمة من الملوك والأمراء ... وعفا عنهم جميعا إلا أرنولد هذا ... فانه لم يقبل فيه شفاعة من أحد ... وتناول سيفه وضرب به عنقه بيده وهو يقول: برئت من شفاعة محمد إن قبلت فى هذا الأحمق شفاعة شفيع[٣] .... !

---

(١) عباس محمود العقاد «الإسلام فى القرن العشرين» ص٤٠ .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوى ص١٥٣ .

(٣) قرية فى فلسطين وعندها كانت المعركة الشهيرة بين صلاح الدين الأيوبى والصليبيون سنة ١١٨٧م .

(٣) الإسلام فى القرن العشرين ص٤١ .

وقد مات صلاح الدين بعد ما قضى مهمته إلى حد بعيد .. وتراجع سيل الصليبيين بعد أن تعلموا دروسًا جديدة مفيدة ... درسوا جوانب الضعف والقوة فى الجهتين ... الجبهة الإسلامية ... والجبهة الصليبية ، وعاد المسلمون سيرتهم الأولى من انقسام وتنافس وغفلة ، و لم تزل قوتهم تضعف وتهن دون أن يشعر بذلك أحد ، حتى كانت الإغارة التترية التى تركت خلفها الدمار والخراب وكشفت للمسلمين وللعالم الخارجى - وبخاصة الصليبى - حقيقة أنفسهم وضعفهم وبعد أن اجتيحت بغداد زال ذلك الشبح، وسقط «الجدار»[1] فعاثت الطيور والوحوش فى الحقل ، وتجاسر الناس على المسلمين وبلادهم .

فى ذلك الحين . ظهر الترك العثمانيون على مسرح التاريخ ، وفتح محمد الثانى مدينة « القسطنطينية » فى سنة ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م .. فتجدد بهذا الفتح رجاء الإسلام ، وانبعث الأمل فى المسلمين . وكان فتح مدينة «القسطنطينية» دليلاً على قوة الأتراك الحربية ، وحسن قيادتهم العسكرية . وكان عمر « محمد الفاتح » فى ذلك الوقت أربعا وعشرين سنة .. !!!

ويقول البارون كارادافو « Baron Carrdevauy » إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقًا، ولا تيسر لمجرد ضعف دولة «بيزنطة» بل كان هذا السلطان يدير التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم كل ما كان فى عصره من قوة العلم ، فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد ، فعمل على تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ ، وانتدب مهندسا مجريًا ركب مدفعًا كان وزن الكرة - القذيفة - التى يرمى بها ثلثمائة كيلو جرام ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيل انه كان يلزم هذا المدفع سبعمائة رجل ليتمكنوا من سحبه، وكان يلزم له ساعتين لحشوه، ولما ذهب محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلثمائة ألف مقاتل ، ومائة وعشرون سفينة حربية »[2] .

---

(١) ما ينصب فى الزرع لطرد الطير والوحش ، ويعرف فى مصر بـ«خيال المآتة» .

(٢) حاضر العالم الإسلامى جـ١ ، ص٢٥٠ .

ولكن كان من سوء حظ الأتراك والمسلمين معا أنهم أخذوا فى الانحطاط والتدلى ، ودب إليهم داء الأمم من قبلهم من البغضاء والتحاسد واستبداد الملوك وجورهم ، وسوء تربيتهم ، وفساد أخلاقهم ، وخيانة الولاة والأمراء ، وغشهم الأمة وإخلاد الشعب إلى الراحة والدعة ،وتفشى الجهل والخرافة .... « ... وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الأولى ، فندر فيهم من كان يتعلم النافع منها كالفقه واللغة والأدب ، والرياضة ، وانقطع ما بينهم وبين العلوم العصرية ، فنظر الكثيرون منهم إلى علوم الجغرافيا ، والطبيعة ، والكيمياء ، كأنها الكفر البواح ،أو السحر المزيف ، فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتخريف ، وطلبوا الخلاص من غير بابه ، وتوسلوا للعمل بغير أسبابه ، واتهموا الناصحين ، وأرسلوا مقادتهم للدجالين والمحتالين ، وفى هذه الفترة كان الإسلام كما يفهم الجهلاء مزيجا من الخرافة والشعوذة ، ومن الطلاسم والأوهام ، ومن الوثنية وعبادة الموتى وكان طلاب الفتوى - من مشارق الأرض ومغاربها - يسألون عن الكبريت هل يجوز مسه ؟ ! وهل يجوز قدح النار منه ؟ أو طبخ الطعام على ناره ؟ أو يأثم من يمس صنفرته ، لأنه مادة نجسة تنقض الطهارة . »[1] ... !

ومع كل هذه العلل .. فقد كانت الإمبراطورية العثمانية قلعة للإسلام و لم تكد هذه القلعة تنهار ، ويصيبها الوهن والضعف ، حتى فتح الباب على مصراعيه أمام الغرب ، وانطلق البخار المسموم من مراجل الحقد ليدمر كل من يقف فى طريقه إلى الشرق . !!

« وقد كان القرن التاسع عشر ولا ريب أسوأ من كل القرون التى تقدمته لأنه القرن الذى انبعث فيه « المسألة الشرقية »[2] من بقايا الحروب الصليبية ... وكانت المسألة الشرقية تمخضت عن دور آخر وراء دور الحروب

---

(١) الإسلام فى القرن العشرين ص٤٣ .

(٢) كانت المسألة الشرقية تعنى فى أول الأمر تخليص المماليك المسيحية من أيدى الدولة العثمانية . وفى مرحلة ثانية أصبحت تعنى تقسيم الدولة العثمانية والدول الإسلامية التابعة لها بين الدول الأوربية .

الصليبية وهو دور التفاهم بين دول الاستعمار على تركة «الرجل المريـض»[١] وتبادل الإغضاء عن كل طرف متفق عليـه يقـع فـى قبضـة الطـامعين فيـه مـن المتنازعين على التركة وصاحبها على قيد الحياة »[٢] ...

إن القلب ليمتلئ رعبا وهـو يطـالع تفـاصيل هـذه المؤامـرة التـى حيكـت لتقسيم العالم الإسلامى وابتزازه ، والعمل على تدميره وتحطيمه ، وقد ذكر لنا المرحوم شكيب أرسلان مائة مشروع وضعت لتقسيم دولة الخلافة ، وفى هذا الحوار بين القيصر نيقولا إمبراطور الروسيا ، والسير هـاملتون سـيموز سـفير بريطانيا تتضح أبعاد هـذه المؤامـرة الخطـيرة ، وكيفيـة التدبـير أو التفكـير تجـاه العالم الإسلامى وتدميره[٣] .

« .... ففـى ليلـة سمـر عنـد الغراندوقـة « هيلانـة » الروسـية - ٩ ينـاير ١٨٥٣م قال الإمبراطور نيقولا للسير هاملتون :

« تأمل . نحن بين أيدينا رجل مريض ... ومريض جدا ، ويكون بـالفعل وبالاً عظيمًا علينا إن خرج أمره من أيدينا ! »

وفى مرة ثانية دعى السفير هاملتون لمقابلة القيصر فقال له أيضا :

- أنت لا تجهل المقاصد والمرامـى التى لا تـزال فـى الروسيا منـذ عهـد كاترينا ... وتركيا هى كما قلت لك - من قبل - رجل مريـض ، ويجـوز أن تموت بالرغم منا ! فتبقى عبئا علينا ، وليس فى استطاعتنا نشر الموتى ! » ...

- « أفلا يكون من الأفضل بحقنا - تفاديا من حرب أوربيـة - أن نتفـق من قبل على أمرها حتى لا نؤخذ على غرة ! وإننى أقول لك بصراحة .. إننـا أن استطعنا أنا وإنجلترا أن نتفق فى هذا الموضوع لم يهمنا الآخرون ... وأنا لا أكتمك أنه إن كان فى نية إنجلترا الاستيلاء على الاستانة فلن أتحمل ذلك . لا

---

(١) اصطلاح أطلقته الدول الأوربية على الإمبراطورية العثمانية فى مرحلتها الأخيرة .

(٢) عباس العقاد - محمد عبده ص١٠ .

(٣) حاضر العالم الإسلامى جـ٣ ص٣٠٧-٣٠٨ .

أقول إن لكم هذه النية . ولكن أقول إن صحت هذه النية فلن أكون راضيا . وأنا نفسى أتعهد أيضا بأن لا احتلها مالكا ... أما بصورة مؤقتة على سبيل الاستيداع فقد أرضى ... !!!

وأما إذا بقيت الأمور بدون قرار بشأنها ، فقد يجوز أنى احتلها قولا واحدا .. !!! » .

فأجاب السير هاملتون : « ليسمح لى جلالتك بالقول انه ليس عندنا أدنى سبب للظن بأن المريض هو على وشك الهلاك ! » .

فرد القيصر فى حدة قائلا :

« إذا كان عند حكومتك أمل بأن تركيا لا تزال فيها عناصر الحياة فتكون المعلومات التى لديها غير صحيحة ... وأنا أؤكد لك أن المريض هو فى حالة الاحتضار وأنه لا يجوز أن يموت ونحن عنه غافلون .. بل يجب أن نتفق ... ولست أكلفكم عقد معاهدة .. أو تحرير صك .. وإنما أطلب كلمة اتفاق عامة ، وهذا كاف فيما بين الرجال الأكياس !!! » .

لم يحدث فى التاريخ ، وفى أشد عصوره همجية أن تآمر رئيس دولة على دولة مجاورة ، والعمل على تدميرها بهذه الطريقة التى كان يفكر بها قيصر الروسيا ، و لم يحدث فى أظلم عصور التاريخ ، وأشدها همجية ووحشية أن حكم رئيس دولة على دولة أخرى بالموت ، وحدد ساعة موتها بهذه الطريقة ، و لم يحدث ولن يحدث فى المستقبل كما نظن . ولكن الأحقاد التى تشعبت جذورها فى العقل الأوربى وغارت فى أعماق مشاعره وإحساسه هى التى كانت تخطط لهذا العمل الهمجى ، وتنظم هذا الهجوم الوحشى ... وتتفق على توزيع التركة قبل التنفيذ العملى ...

وسواء أكان موقف السفير الإنجليزى تعبيرا عن موقف حكومته .. أم لم يكن فان الواقع ينفى كل اعتبار لحسن النية ، واعتقادنا هو : أن بريطانيا لم تشأ أن تشرك روسيا معها فى اقتسام الضحية .

لقد بدأ الهجوم على العالم الإسلامى فى كل أقطاره ، وأحاطت به الجيوش والأساطيل ، فى عقر داره ، دمرت بريطانيا ممالك الإسلام فى الهند ، وسيطرت على الخليج . واحتلت فى طريقها عدن ، وأبحرت أساطيلها شرقا وغربا ، فلم تدع جزيرة فى بحر أو مدينة على ساحل .

وانطلقت فرنسا من وراء بريطانيا ، فاحتلت الجزائر والمغرب وتونس .

وذهبت إيطاليا إلى الصومال وإريتريا ، وسيطرت هولندا على جزر الهند الشرقية بأكملها .. وأحيط بممالك الإسلام وسلطناته فى شرق وغرب أفريقيا وأخيرا وقعت مصر والسودان فى قبضة بريطانيا ...

لقد سقط « الجدار » ومشت سكة الأجنبى فى حقل الإسلام ، وتداعت الأمم على المسلمين كما تنبأ النبى – صلى الله عليه وسلم – قبل ذلك بأكثر من ألف وأربعمائة عام[١] ....

كانت النازلة شديدة ، والكارثة كبيرة ، والمعركة ضد الإسلام والمسلمين ضاربة عنيفة ، كانت هذه الأيام والسنوات كما يقول المؤرخ الجبرتى :

« ... ... أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »[٢] .

وقد لعبت « اليهودية العالمية » دورا رئيسيا فى إسقاط دولة الخلافة ، وهو دور يرجع إلى أسباب كثيرة . من أهمها وقوف هذه الدولة فى وجه مطامع اليهود الذين كانوا يخططون لاستلاب فلسطين منذ قرون عديدة .

---

(١) فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها» ، الحديث رواه أبو داود والبيهقى فى دلائل النبوة . انظر : مشكاة المصابيح جـ٢ طبعة المكتب الإسلامى ١٣٨١هـ .

(٢) عجائب الآثار للجبرتى – ط. دار الشعب بالقاهرة .

فقد تطلع اليهود على مر العصور التاريخية إلى فلسطين كإقليم يجمع شتاتهم[1] وينشئون فيه دولة . وكانت أصواتهم تعلو حينا وتخفت حينا آخر تبعا للملابسات التى أحاطت بهم ، وتبعا لظروف الدولة التى كانت تمارس سيادة فعلية على فلسطين . ولكن لوحظ أن أصواتهم ازدادت ارتفاعا بل ضجيجا وعلى فترات متقاربة منذ الثمانينات فى القرن التاسع عشر . وتنادوا إلى تهجير اليهود المشتتين فى أنحاء العالم إلى فلسطين وإنقاذهم من الاضطهاد الذى يتعرضون له فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، وطالبوا بإنشاء دولة يهودية فى فلسطين . وأطلقوا على حركتهم اسم الحركة الصهيونية نسبة إلى صهيون وهو جبل يقع على المشارف الجنوبية لمدينة القدس القديمة تأكيدا لإصرارهم على إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين . وشقت هذه الحركة طريقها بما توفر لها من قيادات سياسية على أعلى المستويات العلمية ، ووسائل الدعاية والإعلام ، والتنظيم الدقيق ، والتمويل الرتيب وما إلى ذلك من عناصر القوة ، وأنشأت الحركة منظمات أو أجهزة صهيونية تتولى اتخاذ الخطوات التى تؤدى فى النهاية إلى تحقيق هدفها المنشود . ونجحت فى استقطاب الدول الكبرى إليها عطفا وتأييدا وبذلا . ولئن كانت فلسطين تعتبر فى نظر اليهود أرض الميعاد تشدهم دينيا إليها ، فقد أصبحت أيضا أرض الخلاص تجذبهم سياسيا إليها يقيمون فيها دولة يتفيأون فى ظلالها الأمن بعيدا عن الاضطهادات الدينية وتعيد إليهم مجدا سياسيا تألق فى فترة قصيرة موغلة فى القدم ثم ذوى أعصرًا وأدهارًا وعاشوا على ذكرياته يبكون ويتباكون ..

وكان على الدولة صاحبة السيادة وقتذاك على فلسطين ، وهى الدولة العثمانية ، أن تخوض دفاعا عن فلسطين صراعا سياسيا مريرا ضد القوى الصهيونية والدول المناصرة لها . ونجح الصهيونيون فى توقيت حركتهم نجاحا باهرا ، فاختاروا فترة عصيبة من فترات الاضمحلال التى كانت تمر بها الدولة العثمانية ، واتضح للمراقبين السياسيين فى ذلك الوقت مدى التدهور الذى

---

[1] الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها - د. عبدالعزيز الشناوى ص٩٧٣ وما بعدها .

أصابها فى مواجهة الزحف الاستعمارى الأوربى على ممتلكاتها بحيث أصبح سقوطها وشيكا . فلم يعد للدولة الوزن السياسى أو الثقل العسكرى الذى كانت تتمتع به على عهد سلاطين الفترة الأولى ، ولذلك فلم يكن فى مقدورها أن تخوض بنجاح صراعا سياسيا رهيبا ضد الصهيونية والدول الأوربية فعملت فى حدود إمكانياتها على الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

كان السلطان عبد الحميد قد عرف خطة الصهيونية العالمية فى الاستيلاء على بيت المقدس وإقامة هيكل سليمان نتيجة للمخططات التى كان يجرى تنفيذها فى الإمبراطورية العثمانية تحت ستار التنظيمات الماسونية التى نشرتها قوى اليهودية فى مختلف أنحاء بلاد الخلافة ، وكانت ركيزتهم الأساسية هى جماعة الدونمة فى سالونيك ، هؤلاء اليهود الذين كانوا قد هاجروا من الأندلس بعد سقوطها فى يد الفرنجة وانتهاء الحكم الإسلامى فيها ، فقد قصدوا إلى تركيا ليستظلوا بظل المسلمين بها ، وفى سالونيك كانت خطتهم لإقامة المحافل الماسونية واستقطاب الاتحاديين لخدمة أهدافهم ، حتى استطاعوا إسقاط السلطان عبد الحميد حين عجزوا عن اغرائه أو احتوائه وكان للاتحاديين[1] دورهم الخطير فى هذه المؤامرة .



كان هرتزل قد حاول إغراء السلطان ليسمح لهم بالهجرة إلى فلسطين ورفض العروض التى قدمت له فوضعهم أمام قرار التخلص منه : وقد وضح هذا فى مذكرات هرتزل ، كما أشار إليه السلطان فى الوثيقة المعروفة التى نشرت أخيرا :

« إننى كأمانة فى ذمة التاريخ لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى إننى بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقى المعروفة باسم

---

(١) الاتحاديون اسم يطلق على بعض الأتراك الذين يرون الرابطة القومية أهم من الرابطة الإسلامية .

(جون ترك) وتهديدهـم اضطررت وأجبرت علـى تـرك الخلافـة . إن هـؤلاء الاتحاديين قد أصروا بأن أصادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الأراضـى المقدسة ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليـف وأخيرا وعـدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة ذهبية إنجليزية فرفضت هـذا التكليـف بصـورة قطعية أيضا ، وأجبتهم بالجواب القطعى .

انه لو دفعتم مـلء الدنيـا ذهبـا فلـن أقبـل تكليفكـم ، لقـد خدمـت الملـة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيـد علـى ثلاثـين سـنة فكيـف أسـود صحـائف المسلمين آبائى وأجدادى مـن السـلاطين والخلفـاء العثمـانيين ، لهـذا لـن أقبـل تكليفكم بوجه قطعى .

وبعد جوابى اتفقوا على خلعى فقبلت التكليـف وحمـدت المـولى إننـى لم ألطخ وجه الدولة العثمانية والعالم الإسلامى بهذا العار الأبدى » ... !!!

وهكذا دفع السلطان عبد الحميد ثمن موقفة الحاسم من الصهيونية العالميـة وكان للنفوذ الأجنبى مشاركة ضخمة فى هذا الأمر ، ذلك لأن اللـواء الـذى رفعه تحت اسم « الجامعة الإسـلامية » : خـارج نطـاق الدولـة العثمانيـة : يـا مسلمى العالم اتحدوا قد هز الدوائر الاستعمارية هـزا شـديدا ومـن ثـم كـانت المؤامرة ذات شقين :

(١) إسقاط السلطان عبد الحميد : وهذه كانت مهمة الاتحاديين .

(٢) إسقاط الخلافة العثمانية : وهذه مهمة الكماليين[1] .

و لم يكن الكماليون والاتحاديون إلا فرع دوحة واحدة : تقـاسمت العمـل علـى مرحلتـين للإجهـاز علـى الدولـة العثمانيـة والخلافـة وفتـح الطريـق أمـام الصهيونيـة العالميـة لتصـل إلى فلسـطين ، ولتمـزق العـرب والـترك ولتمكـن للاستعمار البريطانى والفرنسـى مـن اقتسـام تركـة كـان يطلـق عليهـا « إسـم الرجل المريض » ...

(١) كمال أتاتورك وأتباعه .

وقد كان السلطان عبد الحميد يعرف دخائل هذا المخطط كله : بفروعه وخلفياته ، فيما يتصل « بالدونمة » والمحافل الماسونية ومخططات الاتحاديين (تركيا الفتاة) وفى مقدمتهم مدحت وأحمد رضا . ويعرف الأهداف الخطيرة التى يدور حولها تآمر الصهيونية مع بريطانيا وغيرها من دول أوروبا ، ولكنه بعد كل هذه الوساطات التى بذلها هرتزل أرسل إليه كلمته الواضحة الحاسمة الصريحة :

انصحوا الدكتور هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة فى هذا الموضوع . إنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهى ليست ملك يمينى بل هى ملك شعبى .

لقد قاتل شعبى فى سبيل هذه الأرض و رواها بدمه فليختفظ اليهود بملايينهم . إذا مزقت إمبراطوريتى فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق أولا فى جثثنا . وإنى لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة ... !!!

❁ ❁ ❁

فى المركز الإسلامى فى لندن عندما سافرت إلى بريطانيا فى أول مرحلة من مراحل البحث للحصول على درجة الدكتوراه . التقيت بأحد أولاد السلطان عبد الحميد الذى كان يقيم لاجئا فى بريطانيا ...

سألته عن أبعاد الحركة التى أطاحت بوالده من سدة الخلافة والحكم ؟

فأجاب – بينما كان يسترجع ذكريات هذه الأيام العصيبة – قائلا :

هناك سببان رئيسيان لهذه الأحداث الأليمة :

أولهما :

موقف والدى من الحركة الصهيونية ورفضه رفضا باتا بالسماح للهجرة اليهودية إلى فلسطين ..

وأما ثانيهما :

فلأن والدى حاول فى سنوات حكمه الأخيرة إحياء الوحدة الإسلامية للوقوف صفًا واحدًا فى وجه المؤامرات التى كان يحيكها الغرب ضد الخلافة التى كانت تمثل – فى ذلك الوقت – راية يتجمع حولها المسلمون فى الشرق والغرب.

وأضاف قائلا :

إن والدى لم يكن بهذه الصورة البشعة التى تصوره بها دوائر الغرب ومن ورائها الصهيونية العالمية . لقد كان مسلما قوى الإيمان والعقيدة . كما كان فى حياته « الخاصة » « صوفيا » يحرص على قراءة « أوراده فى كل ليلة ».. ولن نجد أصدق من هذه « الوثيقة » التى بعث بها السلطان من منفاه إلى شيخ الطريقة الشاذلية تقول هذه الوثيقة :

« الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين .

أرفع عريضتى هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية ، إلى مفيض الروح والحياة ، إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندى أبى الشامات ، وأقبل يديه المباركتين راجيا دعواته الصالحة .. !!!

بعد تقديم احترامى ، أعرض أنى تلقيت كتابكم المؤرخ ٢٢ مارس فى السنة الحالية وحمدت المولى وشكرته إنكم بصحة وسلامة دائمتين .

سيدى ، إنى بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلا ونهارا وأعرض إننى مازلت محتاجا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة .

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم، والى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة فى ذمة التاريخ.

إننى لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أننى – بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم « جون تورك» وتهديدهم اضطرت وأجبرت على ترك الخلافة.

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا على بأن أصادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الأرض المقدسة (فلسطين)، ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف.

وأخيرا وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبا. فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضا. وأجبتهم بهذا الجواب القطعى الآتى :

«إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا - فضلا عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبا فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعى. لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية، ما يزيد عن ثلاثين سنة، فلم أسوِّد صحائف المسلمين أبائى وأجدادى والخلفاء العثمانيين. لهذا لن أقبلَ بتكليفكم بوجه قطعى أيضًا».

وبعد جوابى القطعى اتفقوا على خلعى، وأبلغونى أنهم سيعيدوننى إلى سالونيك فقبلت بهذا التكليف الأخير.

هذا وحمدت المولى وأحمده أننى لم اقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامى بهذا العار الأبدى الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية فى الأراضى المقدسة (فلسطين)..

وقد كان ذلك ما كان . ولذا فإننى أكرر الحمد والثناء على الله المتعال. وأعتقد أن ما عرضته كاف فى هذا الموضوع الهام، وبه أختم رسالتى هذه. ألثم يديكم المباركتين وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامى وسلامى إلى جميع الأخوان والأصدقاء..

يا أستاذى المعظم، لقد أطلت عليكم البحث ، ولكن دفعنى لهذه الإطالة أن أحيط سماحتكم علما، وتحيط جماعتكم بذلك علما..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

٢٢ أيلول ١٣٢٩ هـ

خادم المسلمين

عبد الحميد عبد المجيد

« كان أصحاب العقول المحركة لحركة الانقلاب والترقى عام ١٩٠٨ كانوا يهودا من الدونمة[١] أما المساعدات المالية فإنما كانت تصلهم عن طريق الدونمة ويهود سالونيك[٢] المتمولين. وتقول صحيفة المشرق :

(بأن الكل يعلم أن مركز الانقلاب إنما كان فى سالونيك واليهود فيها نيف وسبعون ألفا) وهناك معلومات تؤكد أن الحقيقة الظاهرة فى تكوين جمعية الاتحاد والترقى إنها غير إسلامية وغير تركية فمنذ نشأتها لم يظهر بين قادتها وزعمائها عضو واحد من أصل تركى خالص..

كان "جاويد" يهوديا من الدونمة وقارصوه من اليهود الأسبان وطلعت بلغاريا أما احمد رضا فقد كان نصفه شركسيا والنصف الآخر مجريا، أما نسيم روسو ونسيم مازلياح فقد كانا يهوديين . ويقول :

ويبرز دور اليهود ثانية فى حادثة خلع السلطان عبد الحميد الثانى عندما مارس الاتحاديون الضغوط على مفتى الإسلام محمد ضياء الدين بإصدار فتوى الخلع ثم أوفدوا هيئة مكونة من عارف حكمت وأسعد طوبتانى وغالب باشا ومن زعماء اليهود قراصوه رئيس المحفل الماسونى فى سالونيك وشلمون ابران ووصلوا إلى يلدز لابلاغ السلطان نبأ الخلع.

وكانت مشاعر التأثر والانزعاج بادية عليه فقال بغضب :

ما هو عمل هذا اليهودى. (يقصد قراصوه) فى مقام الخلافة.

بأى قصد جئتم بهذا الرجل أمامى. ويذكر النقيب التركى (ديبريلى) بأن السلطان عبد الحميد حدثه عندما كان مسجونا فى سلانيك عن آخر اجتماع له مع الزعيم الصهيونى هرتزل ورئيس الحاخامين فى تركيا فقال :

---

(١) الدونمة معناها : المرتد عن اليهودية ظاهرًا والمرتد عن الإسلام باطنًا .

(٢) سالونيك : تقع حاليًا فى بلاد اليونان .

تصور أن هذين اليهوديين مثلا أمامى ليقدما إلى سلطتنا رشوة. صرخت فى وجههما قائلا : أن أخرجا من هنا، إن الوطن لا يباع بالنقود. طلبت إلى رجال القصر أن يقودوهما حالا إلى خارج القصر. وبعد ذلك أصبح اليهود أعدائى فما ألاقيه هنا فى سلانيك من عذاب الاعتقال ليس سوى جزائى منهم حيث لم أرض أن أقتطع لهم أرضا لدولتهم المزعومة"..

ويذكر السلطان نفسه فى وثيقة على قدر من الأهمية موقف الاتحاديين والصهيونية من سياسته.

فيقول : أن هؤلاء الاتحاديين أصروا على بأن أصادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الأرض المقدسة - فلسطين - ووعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليره إنجليزية ذهبًا فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية وبعد جوابى القطعى اتفقوا على خلعى وأبلغونى أنهم سيعيدوننى إلى سالونيك».

« ... والآن لنبدأ القصة من أولها[١] :

ففى عام «١٦٦٥م» ادعى حاخام فى « أزمير» يدعى «شبتاى زيفى» أنه المسيح بن الله، بعثه ليهود العالم مرشدا ومنقذا، وكان أول بيان له كما يلى :" من ابن الله الولد الأول والوحيد له « شبتاى زيفى»، المسيح والمنقذ الإسرائيلى، إلى بنى إسرائيل السلام. لما كان لكم شرف المعاصرة لخلاص بنى إسرائيل، ولنحقق ما أخبر به الأنبياء ، والآباء ، تحولت آلامكم إلى مسرات وصيامكم إلى التنعم بالملذات .يا بنى إسرائيل، لن يكون لكم بعد اليوم بكاء وقد منحكم الله قوة للتأسى يصعب التعبير عنها، حافظوا على عبادتكم التى اعتدتم عليها من قبل ما عدا يوم الحزن والحداد، فانه - تكريما لقدومى - يتحول إلى يوم شكر ومسرة، لا تخشوا شيئا أبدا فان حاكميتكم ستشمل جميع الشعوب وستكون على الكائنات الحية كلها، سواء التى على وجه الأرض أو التى فى أعماق البحار».

---

(١) د. محمد طه الجاسر - مجلة العربى - العدد ٤٧٣ .

وتنتشر دعوته، ويكثر أتباعه، ويشاع الكثير عن معجزاته، وأهمها أنـه لا تخترق جسمه السـهام ولا تعمـل فيـه السيوف والحراب. وتصل أخبـاره إلى الآستانة، ويرى فيه رجـال الدولـة العثمانيـة نشـاطا هداما يسـمم العقـول الساذجة، فيأمر السلطان العثمانى فى ذلك العهد« محمـد الرابـع » بإحضـاره إلى القصر فى جلسة خاصة حضرها السلطان نفسه والصـدر الأعظـم « أحمـد باشا الكوبرلى» ونخبة من رجال الدولة، وأخبروه أنـه تـأكيدا لصـدق دعوتـه، سيعرضون جسده لوابل من السهام من ثمانيـة مـن أمهـر الرمـاة. وكمـا كـان متوقعا، ارتعد الرجل من رأسه إلى قدميه، وحاول أن ينكر كل شىء، ولكـن القرائن كانت دامغة، حينئذ خطرت له فكرة شيطانية يلجـأ فيهـا إلى خديعـة ينجو بها برأسه وينقذ حياته، لاختراق الأمة التركية وتضليلهـا، فـأخذ يتوسـل إلى السلطان ويعـده إن عفـا عنـه أنـه سيعتنق الإسـلام، وسيكون مـن دعاتـه المخلصين، وربما كان ذلك سببا فى هداية اليهود إلى الإسـلام، وهكـذا أشـهر الرجل إسلامه وسمى نفسه « محمدا »،ولبس الجبة والعمامـة، وعـين لـه راتـب شهرى وخصص له جناح فى القصر درءا للفساد، ولكيلا يختلط بالناس ويعود سيرته الأولى.

ويذكر المؤرخون أن إسلامه كان نكبة على الدولة الإسـلامية والمسـلمين بقدر ما كان انتصارا لليهودية العالمية، فإسلامه كان مجرد كلمة فاه بها لينجو برأسه وليخلق سرطانا رهيبا فـى الجسـم العثمـانى يستفحل وينتشـر، وينتقـل بالوراثة من جيل لآخر، محافظا على نشاطه الهدام. إذ ما لبـث « المهتـدى» أن طلب إذنا من القصر ليقوم بنشاط جدى، يدعو فيه ذويه وأقاربه ومن يثـق بـه إلى الإسلام وقد استجاب القصر لذلك، فسمحوا له بجولات فـى أنحـاء الـبلاد وأطلقوا وراؤه رجال المخابرات. فماذا كانت النتيجة؟ لقد أخذ الرجل يدعـو كل من استمع إليه والتف حوله من اليهود فى تركيا، إلى أن يشهروا الإسلام بأفواههم، ويمارسوا نشاطا هداما، لإفساد الأمة التركية وجعلها آلة فـى أيـدى الصهيونية..!

وأشهر اجتماع انكشف فيه أمره كان فى إحدى ضواحى اسطنبول على البوسفور تدعى « كورو جشمه»، حيث ضبط يخاطب أتباعه بالعبرية، وأهم ما قاله : « (الآن قد أصبحتم مسلمين، اعملوا بكل حرية، عليكم أن تسيطروا على المصادر الدينية والطبيعية والمالية والتجارية والروحية والحيوية للأتراك، واستنفروا فى سبيل ذلك كل إمكاناتكم، واستخدموا مختلف الوسائل حتى تتم لكم السيطرة الشاملة عليهم)»، حينئذ ألقى القبض على الرجل، وكان من المفترض أن يعدم لولا أن تدخل شيخ الإسلام ونصح بنفيه إلى مكان يؤمن فيه شره، لأن قتله سيجعله شهيدا ويضاعف من الأساطير التى أشيعت حوله ، وهكذا تم نفيه إلى « سلانيك» ولحق به الكثير من أتباعه، وهكذا أيضا تحولت المدينة إلى مركز للدونمة، ومصدر إشعاع للخيانة والتآمر والأفكار المسمومة فيها وضعت كل الخطط التى أدت إلى تصفية الدولة العثمانية، ومنها انبعثت كل الأفكار التى اتخذت طابع التحرر وعملت فى الشخصية التركية تحطيما حتى تمكنت من تسخير فئة قليلة لمآربها، ووجهتها وجهة لا يربطها بالعرب والمسلمين إلا العداء والنفور. من « سلانيك» خرج كل من ساهموا فى تحقيق المطامع الصهيونية، وفيها زرعت بذور البغضاء بين الأتراك والعرب، وحيكت المؤامرات لتفتيت الدولة العثمانية وتوزيعها على دول الغرب وإقامة دولة إسرائيل . وفى مقدمة هذه الفئة : جمال وأنور ونيازى.. وآخرهم مصطفى كمال الذى لقب بعد انقلابه« (أتاتورك)» أى : أبو الأتراك ... !!!

وفور أن استولى الاتحاديون على السلطة بمساندة المثلث المشئوم، كان أول شيء فعلوه أن فتحوا لهم أبواب اسطنبول والمدن التركية الكبرى بل وحتى أبواب فلسطين أيضا ليهاجر إليها اليهود ويستوطنوا فيها. والى سلانيك نفى السلطان عبد الحميد الثانى، الذى - على الرغم من كل ما كتب عنه من أباطيل - يثبت التحليل الموضوعى لوقائع التاريخ، أنه كان ذا توجه إسلامى وعربى فى سياسته، كما أنه وقف ضد أطماع الصهيونية فى فلسطين

ورفض إعطاءهم أى امتيازات بالرغم من العروض المغرية لدعم ميزانية الدولة بمبالغ طائلة من المال.

فى اسطنبول بدأت جماعة « الدونمة» بالسيطرة على مقدرات البلاد، بدءا بالحكام، والعسكريين فرجال الدين، حتى أن أول شيخ للإسلام عين فى بدء عصر نفوذهم كان : « موسى كاظم أفندى» فى ١٩١٠/٧/١٢ فى أوائل عهد الاتحاديين، وأخذت تصدر عنه تصرفات وفتاوى تخدم أغراضهم وتبرر تصرفاتهم، ثم وضعوا أيديهم على موارد البلاد فجرى تعيين « دونمه حاويد» وزيرا للمالية، وفى عهده تقدم الدونميون فى المجالات الاقتصادية، والتجارية، واستطاعوا بالربا الفاحش والاحتكار وبالاحتيال والاستغلال أن يسيطروا على الأسواق الداخلية، ثم انتقل نشاطهم إلى الإعلام والثقافة، فأسسوا صحفا تدعو لكل ما يتنافى مع الإسلام ويزعزع ثقة التركى بمعتقداته وتراثه. فأصدر « احمد أمين يالمان» جريدة الوطن » ثم قدموا الدعم المالى لبعض أتباعهم لإصدار الصحف الموالية لهم كصحيفة « حريات» واغلب صحف اليوم، إما يملكها ويديرها الدونمة، أو تتلقى الدعم المالى منهم، شريطة أن تسير فى فلكهم وتحقق أغراضهم . من هذه الصحف نذكر « ملليات » وجريدة « صباح» الأكثر انتشارا والأشد عداوة للإسلام والمسلمين، والعرب باعتبارهم حملة الرسالة . ثم قام « عمر رضا دغرول» وهو من الدونمة أيضا بترجمة القرآن ودعا إلى قراءته فى الجوامع والصلوات بالتركية، كما ترجم الأذان ومنع الآذان بالعربية وألف « ألف تكين الب » وهو يهودى الأصل وكان يدعى قبل إسلامه « وايز كوهين » - كتابا أسماه (التتريك) ونشره بين طبقات الشعب يدعوهم فيه إلى نبذ كل ما يتعلق بدينهم وتراثهم لأنها رموز التخلف والرجعية ولقد ورد فى إحدى صفحاته« ومما لا ينكر أن الدين شىء إضافى، أو بعبارة أخرى أمر ثانوى بالنسبة للإنسان وتنظيم حياته.

وأن الذين فسدت مشاعرهم السامية وتحللت روابطهم القومية، فالدين لهم، والدين عندهم كل شيء».

ثم كانت انقلابات « أتاتورك»، والرجل من سلانيك وهناك شبهات حول جذوره، إلا أن الرجل كان قائدا عسكريا فذا ، وهو بطل معارك الدردنيل أثناء الحرب العالمية الأولى، التى أفشلت حملات الأسطول البريطانى لاحتلاله، وحين قام بانقلابه اعتمد على قائد الجيش المؤمن« الجنرال فوزى جقمق» وتظاهر بأنه مسلم ملتزم ومؤمن صالح، فكان يحرص على حضور صلاة الجمعة ويدعو ا لله رافعا يديه إلى السماء . إلا أنه ما كاد يستتب له الأمر حتى أعلن علمانية الدولة، وأخذ يقضى على كل رابطة مع العالمين العربى والإسلامى فالغى الكتابة بالحروف العربية، ودعا إلى التخلص من المصطلحات العربية فى اللغة التركية، ومكن نخبة من الدونمة من مقاليد الحكم الذين بدأوا حملة القضاء على هوية الشعب التركى بدءا بدينة ومعتقداته، وإثارة العداوة والكراهية بينه وبين العرب والمسلمين، وما زالت هذه الحملة حتى الآن ... » ..

كان «أتاتورك» كما يقول عنه صديقه ومؤرخ سيرته «عرفان أوركا»[١]:

« كان قليل الاختلاط، غير محبب بين الأصدقاء فى حياته المدرسية، كان أصدقاؤه قليلين جدا، كان يثور ويهيج بسرعة، وكان فى صفه طالبا مثاليا ذكيا مجتهدا متواضعا، وكان شديد الغرام بالإناث، يجذبه هذا الجنس كالمغناطيس ..!!!

وكان يتسلى بالخمر ويشغل نفسه بها فانه لا يجد ما يسلى به نفسه وروحه كالإيمان با لله واليوم الآخر لأنه كان لا يؤمن بهما ...

---

(١) نقلاً عن كتاب «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» العلامة أبو الحسن الندوى ص٥٦ وما بعدها .

وكان يشعر بفرح وسرور حين يعتدى على الآخر ويسطو به، وكانت هذه طبيعته التى فطر عليها، وقد تجلت هذه الطبيعة فى تصرفاته.

ولم يكن يعترف بعواطف غيره لأنه لا يرى أحدا يوازيه، وكان مفطورا على حب التغلب على الآخرين وإخضاعهم لإرادته وهواه، وكان يحب أن يبقى على القمة دائما، وقد اطلع على كتابات والتر، وروسو، التى بعثت فيه روح الثورة وأيقظت فيه عواطفها الخامدة »..

« وقد هضم فى شبابه مع أفكاره الثورية تعاليم ضياء كوك ألب هضما جيدا، وقد كافح كوك ألب للتنور والحرية الدينية، وكان رائد التنور الفكرى الغربى، وقد تكهن فى سنة ١٩٠٠م بانقراض الدولة العثمانية واضطراب حبلها، وأنه واقع لا محالة لأنها عضت بالنواجذ على أسس الحكومة الفردية، وكان يقول فى اكثر الأحيان « إن الحكومة الدينية حليفة وفية للحكومة الفردية دائما »، وقد انتصر للتحرر عن السلطة الدينية انتصارا قويا، وكان يرى أن تحدد سلطات العلماء ويجب أن تحدد الجماعات الدينية المختلفة، ويحظر على الأحزاب المتحمسة للدين ويضيق الخناق عليها لأنها (كما يقول) تقع فريسة الشيطان فتهتف بالجهاد، وقد دعا بقوة إلى إلغاء الشريعة وإقصاء قضاة المحاكم الدينية الذين هم يشرحون القانون الإسلامى ويفسرونه، وكان يرى أن تقام المحاكم الحديثة والمحاكم الدينية » ....!!!

ويقول متحدثا عن ما كان يضمره ويعتقده كمال عن الدين عامة، وعن الإسلام بصفة خاصة وعن وجهة نظره فى كل ذلك :

« قد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجهه إلى الدين، فانه منافسه الأكبر وكان يعتقد من صغره أنه لا حاجة إلى الله، انه اسم غامض خداع مجرد عن كل حقيقة، وكان لا يؤمن إلا بالمشاهد المحسوس[1] ، وكان يرى أن الإسلام إنما ظل عاملا هداما فى الماضى، وأنه قد جنى على تركيا جناية كبيرة وألحق

---

(١) وقد ذكر المؤلف فى كتابه أن كمال فى آخر عهده كان يرفع قبضته ويشير بها إلى السماء ساخرًا مهددًا .

بها خسائر فادحة، وقد تناسى أن الإسلام وحده هو الذى أسس الإمبراطورية العثمانية الواسعة، وكان يرى أن الناس قد اصبحوا فريسة الأوهام والجمود بتأثير الإسلام، وكان يبغض الرجل الذى يخضع للقضاء والقدر ويقول :

-« هكذا أراد الله »« وهذا الذى قدر لى » وكان يعتقد أنه لا وجود للإله، والإنسان يصنع قدره، وكان يقول فى أكثر الأحيان: إن قوة العقل وقوة الإرادة تتغلبان على « قسوة » الإله، ولكن يقول المتدينون : « الله يمهل ولا يهمل»، كان يقول : ألم يطلع هؤلاء المتدينون على الطاقة الكهربائية التى تشتغل بسرعة ؟ « وكان مصمما على سن القانون لتحريم الدين فى تركيا، ولو احتاج ذلك إلى استخدام القوة والى الخدعة والتضليل ».

ويقول فى موضع أخر :

« و لم يكن لديه معنى لمبادئ علم النفس وللنظريات والفلسفات، لذلك لم يمنعه شيء عن أن يعتبر الدين غير لازم لتركيا وشيئا لا حاجة إليه، ولكن الذى أعطاه للآمة التركية عوضا عن الدين هو « الإله الجديد » أى الحضارة الغربية، وليس من الغريب أن الأمة قد حاربت لروحها وقد تعلم درسا من تاريخ المدنيات الأخرى أن الآلهة القديمة تموت بصعوبة وعسر (لذلك لا تخرج عقيدة الإله من قلب الأمة التركية إلا بعد مدة طويلة)».

ويقول فى موضع أخر :

«وكان يبغض الإسلام والعقيدة الصحيحة الراسخة بغضا شديدا، وكان يقول : يجب أن نكون رجالا من كل ناحية، قد قاسينا خطوبا ومصائب عظيمة وكان السبب فى ذلك أننا عشنا فى عزلة عن الحياة و لم نحاول معرفة اتجاه العالم ويجب أن لا نحتفل بما يقول الناس، نحن فى طريق الحضارة والمدنية، ويجب أن نعتز بذلك ونفتخر، أنظر إلى المسلمين فى نواحى العالم الإسلامى ماذا يعانون من المصائب والنوازل والدمار، لماذا ؟ لأنهم لم يستطيعوا أن يستخدموا عقولهم للانسجام مع هذه الحضارة السامية المشرفة، وهذا سبب

بقائنا مدة طويلة فى الحضيض ، ووراء الركب، وتردينا الآن فى الهوة السحيقة، وان استطعنا فى السنوات الماضية أن ننجح إلى حد فى إنقاذ أنفسنا فذلك لأن عقلياتنا قد تطورت، ولكننا لا نقف على مكان، بل إننا نهضنا لنتقدم ونواصل السير إلى الأمام فليحدث ما يحدث، ليست لنا الآن طريق أخرى، ويجب أن تعلم الأمة أن الحضارة نار ملتهبة تحرق جميع من يخضع لها.

ويذكر بغضه وعداءه للدين فى موضع أخر، فيقول :

« لم يكن ذلك سرا أن مصطفى كمال لا يدين بدين، لذلك كان شائعا بين الناس أن الخلافة ستلغى قريبا، وقد فزع الناس حين شاع أن مصطفى كمال رمى المصحف على رأس شيخ الإسلام الذى كان من كبار علماء الإسلام وشخصية محترمة » .

ويذكر المؤلف حبه وهيامه بالحضارة الغربية وما كان لها فى نظره من القدس والحرمة وكيف كانت تسيطر على عواطفه وتتغلغل فى عروقه ودمه، فيقول :

« إن مصطفى كمال كان يتمسك إلى حد كبير بما يلقن ويقول ويأمر به الناس، وكان يعبد هذا الإله الجديد(الحضارة الحديثة) بحماس ولهفة وكان له عابدا وفيا، وقد نشر هذه الكلمة « الحضارة» من أقصى البلاد إلى أقصاها، وعندما يتحدث عن هذه الحضارة تتقد عيناه لمعا وإشراقا، ويظهر على وجهه إشراق كإشراق الصوفية عند مراقبة الجنة ».

ماذا كانت فكرته عن الحضارة وكيف كان يريد أن يرى الأمة التركية؟

يقدر ذلك من الكلمات التالية التى يذكرها المؤلف :

« يقول مصطفى كمال لشعبه يجب علينا أن نلبس ملابس الشعوب المتحضرة الراقية، وعلينا أن نبرهن للعالم أننا أمة كبيرة راقية، ولا نسمح لمن يجهلنا فى الشعوب الأخرى بالضحك علينا وعلى موضتنا القديمة البالية، نريد أن نسير مع التيار والزمن ».

« كان يتصور تركيا متطورة مصوغة فى صياغة جديدة، ولكن المواد الخام الإنسانية التى رزقها (الشعب التركى) كانت مجموعة بشرية تتسم بالتشاؤم والكآبة و لم تتناولها يد صناع حاذق شأن الأغمار الذين يدخلون فى الخدمة العسكرية جديدا، بدأ يشتغل وحيدا وهو دافق بالحياة لا يثق إلا بنفسه، لا يهدأ ولا يستريح، وقد أصبح التدخل فى شئون غيره عادة، وكان ممتلئا بالحيوية والقوة الفكرية ».

وقد قرر منع الطربوش وغطاء الرأس، والزم لبس القبعة على الرأس عوضا عنه لكى ينصبغ الشعب التركى بصبغة الأمم الغربية بأسرع ما يمكن، ويندمج بها اندماجا كليا، ولا تبقى ميزة يمتاز بها الشعب التركى عنها.

استعمل القسوة النادرة والعنف البالغ فى تحقيق هذا الغرض كأنه لا إصلاح أكبر وأهم من هذا، وكأن سعادة الشعب كانت تتوقف على ذلك، وكأنه الشرط الأساسى لمجد تركيا وكرامتها، أن حرب القبعة الدموية تحولت إلى حروب صليبية .

❁ ❁ ❁

يذكر مؤلف سيرته التركى هذه المعركة ويقول :

« وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا، حتى أصدرت الحكومة أمرها لبارجة بالبقاء فى ميناء البحر الأسود ، وأقيمت المحاكم فى كل ناحية وصوب وفى أمكنة مختلفة للبلاد، وبدأت تشتغل وتحكم، أن هذه الأحكام أهاجت الثوار أكثر من ذى قبل، وأعدم رجال الطبقة الدينية الذين نفخوا فى قلوب الناس روح المقاومة والحماس الدينى القوى، أو اضطروا لأن يختفوا عن الأنظار، و لم يستعمل رفقا ورحمة ومسامحة فى مناسبة وقرر مصطفى كمال تنفيذ المشروع وإتمامه، و لم يكن يحتفل بالوسائل والطرق التى يستخدمها فى هذا الشأن، يلقى القبض على الناس

وكانوا يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام واستهدف لذلك الأبرياء والمجرمين سواء ..

إن كمال لم يؤنب المحاكم على إجراءاتها العنيفة و لم يتوقف فى تحطيم إرادة الشعب.

وكان يقول فى ذلك الحين فى فخار وكبرياء :« أنا تركيا، هزيمتى هزيمة تركيا » وقد أثارت هذه الأنانية الجنونية أولئك الذين كانوا يعدونه منقذ تركيا، وقد كسبت معركة القبعة أخيرا، وفازت المحاكم واعترف الجمهور والشعب بهزيمتهم وقد أرسل مصطفى كمال مندوبا من قبله من أعضاء البرلمان أديب ثروت إلى المؤتمر الإسلامى بمكة المكرمة « ١٩٢٧م» ليثبت للعالم نجاحه وانتصاره وكان أديب ثروت المسلم الوحيد الذى حضر المؤتمر وهو لابس قبعة، وقد استقبله الممثلون المسلمون الآخرون بانقباض وعلى غضاضة »..

❁ ❁ ❁

ولقد نظر الكثيرون من الزعماء والقادة إلى مصطفى كمال نظرة إعجاب وحب وكان المرحوم مصطفى النحاس باشا من المعجبين به هنا فى مصر ... وقد ذكر الرئيس محمد أنور السادات أنه تأثر به فى مرحلة مبكرة من العمر، وأن والده كان يعلق صورته فى البيت . ويشيد بزعامته وجهاده فى كل وقت...

فهل كان « أتاتورك » يستحق كل هذا الإعجاب والحب ؟

إن ما فعله الرجل لتحرير بلاده عظيم من غير شك .

لكن .. قليل هم العظماء والزعماء الذين يثرون هذه العظمة وتلك الزعامة إلى نهاية الشوط ...

هتلر ... كان أكثر عظمة من أتاتورك ... وانتهى به الأمر إلى الانتحار فى قبو مظلم تحت الأرض وموسولينى فعل لإيطاليا أكثر مما فعل اتاتورك...

وكان مصيره الصلب على جذع شجرة فى جبال الألب ! وغيرهما كثير من المغرورين والزعماء الذين جلبوا لأوطانهم المذلة والعار والقحط والجدب !!!



لقد بدأت معرفتى تتسع حول هذه الشخصية منذ سنوات قليلة خلت كنت فى رحلة دراسية لمدينة كمبردج « Cambridge City » فالتقيت هناك مصادفة ببعض الطلبة الأتراك الذين يدرسون فى جامعتها الشهيرة . وبعد أن تعارفنا، وتعمقت بيننا الألفة سألت هؤلاء الاخوة قائلا :

« ترى إلى أى مدى نجح أتاتورك، وفى أى صف من القادة العظام يضعه الناس والشعب ؟

وكانت مفاجأة لم أتوقعها من قبل ... لقد صاح هؤلاء الطلبة فى وجهى بعنف .. وقالوا : لا تقل « اتاتورك» بل قل « أخبث ترك » !!!

فعلمت من هذه اللحظة أن « أتاتورك » معناها (أبو الترك) وأن هؤلاء الاخوة الأشقاء يرفضون الاعتراف به كأب .. بل هو فى نظرهم أخبث الخبثاء الذين نكب بهم الشعب !!!

وفى موسم الحج عام ١٣٩٠ هـ التقيت فى فندق «جدة بالاس» - بوفد يمثل حزب السلامة الوطنى. وسمعت من هؤلاء النواب و القادة ما لا يكتب! وكشفوا النقاب عن كثير من حياة « الذئب » أو « الثعلب» !



لقد ذكر الأستاذ/عبد الحميد عبد الغنى فى مقال له نشر بأخبار اليوم[1].

« فى الواقع أن حركته - أى حركة أتاتورك - لم تكن حركة عداء للدين الإسلامى ! ولا حركة انفصال اجتماعى أو فكرى عن العالم الإسلامى! بل كانت حركته حركة قومية بحتة ترمى إلى النهوض بتركيا من القيود

---

[1] أخبار اليوم ١٩٧٦/٩/٢٥ .

بتخليصها من القيود التى تكبل أيديها، وتقيد خطاها باسم الخلافة الإسلامية، وطقوسها ومراسمها «. وفى المقال نفسه .. وبعد أسطر قليلة . وفى الصفحة نفسها يقول الكاتب ما نصه :

« قرر أتاتورك أن يستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتينية حتى فى طبع المصحف الشريف، وكذلك أسرف أتاتورك فى قوانين الأحوال الشخصية إلى دائرة الخروج على القواعد الإسلامية المقررة !!! فقد حرم القانون تعدد الزوجات تحريما باتا ؟! وجعل للقضاء وحده حق الفصل فى طلب الطلاق ! وعدل قواعد الميراث فسوى بين الابن والبنت !!! ورفع عن المرأة الحجاب .. ! واشتط وأسرف فدخل دائرة محرمة؟ ! حيث أباح للمرأة المسلمة أن تتزوج من تشاء من أى دين كان ؟! وقرر إلغاء الأوقاف ووزارة الأوقاف ..؟!

هذا هو ما فعل « أتاتورك » كما ذكر الكاتب بخط يده . فكيف يستقيم ما كتبه أولا، مع ذكره ثانيا ؟ وكيف يقول الكاتب قبل ذلك بأن حركته لم تكن حركة عداء للدين الإسلامى، ولا حركة انفصال اجتماعى أو فكرى عن العالم الإسلامى ؟

وإذا لم يكن هذا هو الإلحاد والردة، والانفصال والقطيعة فهل كان ينتظر الكاتب أن يقوم صاحبنا بهدم الكعبة وتخريب المسجد النبوى فى المدينة ؟ !

إن « أتاتورك » لم يكن ينطق بلسانه، أو يفكر بعقله أو يعمل لحساب شعبه ووطنه. لقد كان آلة من آلات التدمير التى صنعها الغرب لحسابه، وكان لعبة من تلك اللعب التى تجيد تشغيلها الجمعيات السرية لحساب الصليبية واليهودية وقد نشأ أتاتورك وعاش فى أحضان جمعية « الاتحاد والترقى » التى لعبت أخطر الأدوار لتدمير دولة الخلافة.

وكانت هذه الجمعية وأعضائها من أكبر المخربين للدولة..

غير أننا لا نلوم هذا المؤلف أو ذاك حين يكتب . فالكاتب والقارئ يكتب ويقرأ ما يملى عليه أو يفرض، لان أكثر كتابنا ومفكرينا من تلامذة

الغرب الذى يرى فى الإسلام عدوه اللدود الأوحد، و لم يكن مصطفى كمال إلا واحدا من هؤلاء التلاميذ فى الروح والمشرب.!

لقد دعا أتاتورك بقوة إلى إلغاء الشريعة، وإقصاء قضاة المحاكم الدينية ..

وقد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجهه إلى الدين فانه منافسه الأكبر ! وكان يعتقد من صغره أنه لا حاجة إلى الله !!! وكان فى أخر عهده يرفع قبضته ويشير بها إلى السماء ساخرا مهددا ! وكان يرى أن الإسلام إنما ظل عاملا هداما فى الماضى، وأنه جنى على تركيا جناية كبيرة، وألحق بها خسائر فادحة وكان يقول فى أكثر الأحيان إن قوة العقل وقوة الإرادة تتغلبان على قوة الإله .. !! وكان مصمما على سن القانون لتحريم الدين فى تركيا ولو احتاج ذلك إلى استخدام القوة، والى الخدعة والتضليل.

كان يبغض الإسلام والعقيدة الراسخة بغضًا شديدًا ! و لم يكن سرا أن «مصطفى كمال» لا يدين بدين، وقد فزع الناس حين شاع أن « مصطفى كمال » رمى بالمصحف على رأس شيخ الإسلام !!!

وقد قرر منع الطربوش وغطاء الرأس وألزم لبس القبعة، واستعمل القسوة النادرة والعنف فى هذا الغرض كأنه لا إصلاح أكبر واهم من هذا .. وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا، وأقيمت محاكم فى كل ناحية، وأعدم رجال الطبقة الدينية الذين نفخوا فى قلوب الناس روح المقاومة والحماس الدينى .. و لم يكن يعبأ بالوسائل والطرق التى يستخدمها فى هذا الشأن .. يلقى القبض على الناس وكانوا يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام، واستهدف لذلك الأبرياء والمجرمين على السواء .



ولما ابتدأت مفاوضات مؤتمر لوزان لعقد صلح بين المتحاربين اشترطت إنجلترا على تركيا أنها لن تنسحب من أراضيها إلا بعد تنفيذ الشروط التالية:

أ ــ إلغاء الخلافة الإسلامية، وطرد الخليفة من تركيا ومصادرة أمواله.

ب ــ أن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.

جـ ــ أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

د ــ أن تختار لها دستورا مدنيا بدلا من دستورها المستمد من أحكام الإسلام.

فنفذ « كمال أتاتورك » الشروط السابقة، فانسحبت الدول المحتلة من تركيا. !!!

ولما وقف « كرزون» وزير خارجية إنجلترا فى مجلس العموم البريطانى يستعرض ما جرى مع تركيا، احتج بعض النواب الإنجليز بعنف على « كرزون» واستغربوا كيف اعترفت إنجلترا باستقلال تركيا، التى يمكن أن تجمع حولها الدول الإسلامية مرة أخرى وتهجم على الغرب.

فأجاب « كرزون» : لقد قضينا على تركيا، التى لن تقوم لها قائمة بعد اليوم... لأننا قضينا على قوتها المتمثلة فى أمرين :

الإسلام والخلافة ....!!!

فصفق النواب الإنجليز كلهم، وسكتت المعارضة ..!

* * *

ومن الوثائق السرية التى نشرت مؤخرا وثيقة موقعة باسم وزير المستعمرات البريطانى واسمه « اورسرجو».

تقول هذه الوثيقة :

إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأعظم الذى يجب أن نحاربه وان نقاومه .!

وليست بريطانيا وحدها هى التى تلتزم بذلك بل تقف معها فرنسا وكل دول أوربا .!

ومن دواعى فرحتنا أن الخلافة الإسلامية قد زالت ! ونتمنى أن يكون ذلك بغير رجعة!

إن سياستنا تستهدف دائما منع قيام الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامى ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك[1] .!!!

إن سياستنا فى الحرب العالمية الأولى - مع العرب - لم يكن الغرض منها القضاء على هذه الخلافة فقط بل والعمل على أحياء النعرات القومية والعنصرية فى مصر وتركيا وغيرها.!!!

وهذا هو ما فعله « أتاتورك» ونفذه بالكلمة وبالحرف !!!

يقول العلامة محمد إقبال :

« إن كمال الذى تغنى بالتجديد فى حياة تركيا ودعا إلى محو كل اثر قديم وتراث قديم لقد جهل أن الكعبة لا تجدد ولا تعود إلى الحياة والنشاط إذا جلبت لها من أوروبا أصنام جديدة، إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة إنما هى كلها أغان مرددة معادة تتغنى بها أوروبا من زمان، إن الجديد عنده هو القديم الأوروبى الذى أكل عليه الدهر وشرب، ليس فى صدره نفس جديد وليس فى ضميره عالم حديث فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالم الأوربى المعاصر، انه لم يستطيع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيته[2] .



---

(١) تاريخ الوثيقة ١٩٣٨/١/٩ .

(٢) بال حبريل .

فى كتاب « كليلة ودمنة» قال الملك دبشليم لبيدبا الفيلسوف :

أخبرنى عمن يدع عمله الذى يليق به، ويطلب سواه فلا يقدر عليه . فيراجع الذى كان فى يده من عمله فيفوته ويبقى حيران متلددا - أى مترددا.

فقال الفيلسوف : زعموا أن « غرابا» رأى « حجلة» فأعجبته مشيتها فطمع فى تعلمها . فراض نفسه فلم يقدر على إحكامها. فانصرف (عاد) إلى مشيته التى كان عليها فلم يحسن. فبقى حيران مترددا لم يدرك ما طلب، و لم يحسن لما كان فى يده الحفظ .!!!

ثم قال الفيلسوف للملك :

فالولاة فى قلة تعاهدهم للرعية فى هذا وأشباهه ألوم وأسوأ تدبيرا، لآن تنقل الناس من بعض المنازل إلى بعض فيه صعوبة ومشقة شديدة، ثم إن الأشياء فى ذلك تجرى على منازل حتى تنتهى إلى الخطر الجسيم من مضادة الملك فى ملكه[1] .

❁ ❁ ❁

و لم يكن « أتاتورك» إلا « غرابا» فى دنيا الزعامة ! و لم تكن « أوربا» أو « الحجلة » التى تعلق بها إلا نكبة عليه إلى يوم القيامة ؟!

إن المأساة هنا لاتكمن فقط فى محاربته للدين والعقيدة، لقد ترك الرجل تركيا من ورائه عالة تعيش فى كنف غيرها فكرا وسياسة ولا تزال تركيا - حتى يومنا هذا - دولة متخلفة بمقاييس التقدم والحضارة و لم يعترف بها الغرب كدولة أوربية، وكل علاقاتها مع أوربا لا تزيد عن علاقتها بأية دويلة فى البحر الكاريبى، أو المحيط الهندى، باستثناء تلك الأحلاف التى جعلت من تركيا سندا للغرب فى وقت الشدة وغمة على الشعب فى أوقات السلام والهدنة .. وكما يقول المرحوم العلامة إقبال :

---

[1] كليلة ودمنة ط - دار الشروق - بيروت - ١٣٧٣هـ - ١٩٧٣م .

« إنكم أيها الأتراك أخذتم جوار أوربا وصحبتها، مع أنكم كنتم بفضل الإسلام على مقربة من النجوم والكواكب ..»!!!

۞ ۞ ۞

« والجنرالات » الذين يحكمون تركيا الآن صورة طبق الأصل « من شيطانهم الأكبر ! لقد زرعهم أتاتورك فى أحشاء « الشعب » بطرقة غير شرعية ..!

انهم نسخة مكررة من لقطاء « التاريخ » الذين لا يعرف لهم اصل ولا تعرف لهم هوية. !!!

وقريبا يكشف « الستار » عن حقيقة هؤلاء الجنرالات الذين فقدوا نور البصيرة والبصر وتلطخت جباههم وأيديهم بدماء الأبرياء من أبناء الشعب التركى البطل .

۞ ۞ ۞

إن « أتاتورك» لن يفيدهم شيئا يوم الحساب الذى أصبح قريبا. وأن أوربا أو « الغرب» لن يحميهم من نهايتهم السوداء أبدا !

إن هؤلاء الجنرالات لا يعون دروس التاريخ جيدا. إن تاريخ ستة قرون من الجهاد فى سبيل الله لن يذهب عبثا. والشعب التركى لن يقبل أن يضيع تاريخه سدى.

۞ ۞ ۞

فى « وصيته» إلى ابنه كتب الأمير « عثمان» مؤسس الدولة العثمانية إلى ولده وولى عهده يقول له :

« يا بنى إياك أن تشتغل بشىء لم يأمر به اللـه رب العالمين ،وإذا واجهتك فى الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلا..

يابنى أحط من أطاعك بالإعزاز، وانعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يابنى انك تعلم أن غايتنا هى إرضاء ا لله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة ا لله جل جلاله.

يا بنى ! لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت ، وهذا يا ولدى ما أنت أهل له»..!!!

❁ ❁ ❁

غير أن الجهاد ضد هذا التجديف والهرطقة من الجنرالات كان قد بدأ فى السنوات الأولى من حكم أتاتورك. كان هناك شيخ اسمه «بديع الزمان» وقد حضر بديع الزمان إلى «اسطنبول» من شرق تركيا فى عهد السلطان عبدالحميد يطلب فتح المدارس، وإنشاء جامعة فى «ديار بكر» غير أن الأحداث عاجلته وخلع السلطان، ثم كانت الحرب العالمية الأولى فتطوع للقتال، ثم أسره الروس ونفوه إلى « سيبيريا » وتمكن هناك من الفرار والعودة إلى تركيا التى كانت قد سقطت فى أيدى الغزاة، فانضم إلى حركة مصطفى كمال التى كانت تستهدف فى هذا الوقت تحرير الوطن وإنقاذه من يد الأعداء ثم اختلف بعد ذلك مع« أتاتورك» حين ظهر الانحراف، فنفته السلطة إلى غرب البلاد فظل ما بين نفى وسجن وتحديد إقامة من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٥٠، وخلال تلك الفترة ألف مائة وثلاثين كتابا سماها « رسائل النور » شرح فيها الدين بأسلوب جديد استهوى الشباب المثقف . فتناقل الناس رسائله نسخا باليد، واصبح قراء الرسائل يسمون طلاب « رسائل النور » أو جماعة «نورجو» وهى جماعة تضم على الأقل ثلاثة ملايين شاب تركى.



فى تاريخنا الإسلامى .. كانت هناك ثلاث حركات تكاد تكون متشابهة بل تكاد تكون متطابقة . كان لكل حركة من هذه الحركات دورها وأثرها فى الحفاظ على عقيدة الأمة، وعلى بقائها صافية نقية، وعلى تجنيبها مخاطر التفتت والذوبان، فى عقائد أخرى زائفة، أو السقوط فى شراك الحضارة الوثنية القائمة ..

اقدم هذه الحركات الثلاث هى حركة الإمام المجدد المجاهد الزاهد الشيخ احمد بن عبد الأحد الفاروقى السرهندى الملقب بمجدد الألف الثانى للهجرة فى الهند.

وثانى هذه الحركات هى حركة الإمام الشيخ عبدالحميد بن باديس فى الجزائر .

وثالث هذه الحركات هى حركة الإمام المجاهد بديع الزمان سعيد النورسى فى تركيا .

❁ ❁ ❁

كانت حركة « ابن باديس» تجسيدا للمقاومة والثورة ضد الاستعمار الفرنسى الذى حاول طمس وتغيير كل ما هو إسلامى أو عربى فى الجزائر . ألم يعلن الكاردينال الفرنسى « لافيجرى» أن الجزائر لم تعد مسلمة. وأن الجزائر أصبحت مهدا للمسيحية، وان أجراس الكنائس يجب أن تعلن لتحل مكان الأذان فى أى مسجد أو زاوية ..!!

وكما يخرج اللبن من بين فرث ودم ، ويطلع الفجر من بين ثنايا الظلام والليل استيقظت الجزائر كلها على صوت الشيخ عبدالحميد بن باديس وهو يعلن بأعلى .. صوت :

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له ... رام المحال من الطلب

وقد سلك في ذلك طريق التعليم والتربية، والوعظ والدعوة، والنشر والصحافة..

كانت حركة الشيخ بن باديس معاصرة لحركة الشيخ سعيد . فالشيخ سعيد ولد فى عام ١٢٩٣ هـ. بينما ولد الشيخ بن باديس فى عام ١٣٠٨ هـ.

أى أن الشيخ سعيد أكبر من الشيخ بن باديس بحوالى خمسة عشر عاما .

وبينما توفى الشيخ عبدالحميد بن باديس مبكرا أى فى عام ١٣٥٩ هـ فقد توفى الشيخ سعيد متأخرا أى عام ١٣٧٩ هـ.



غير أننا نرى فى حركة الإمام « احمد السرهندى» تطابقا كاملا مع حركة الإمام سعيد النورسى .. من حيث الظروف التى نشأت فيها والمشكلات التى واجهتها، والنتيجة التى انتهت إليها كل منهما ..

فالإمام «السرهندى» نشأ فى عصر أسوأ ملوك الإسلام فى الهند قاطبة.. فى عصر الملك«أكبر» .. ذلك الملك الغر الذى أراد أن يقضى على الإسلام فى الهند قضاء مبرما والى الأبد .. !!!

وان يضع دينا جديدا مقتبسا من شعائر الوثنية ورسومها يتخللها شىء من تعاليم الإسلام وتوجيهاته. والذى حمله على اقتراف هذه الجريمة الشنعاء، حرصه على بقاء الملك والتحبب إلى أهالى البلاد من الهنادك، وزعمه الفاسد بأن هذا الصنيع يقربه إليهم ويرفع مقامه فى أعينهم ويحله محل الصدارة من قلوبهم . فأختار لذلك طرقا عديدة ومناهج متشبعة.

منها تزوجه من بنات أمراء الهنادك مع بقائهن على عقائدهن وتمسكهن بدياناتهن وأدائهن لشعائرهن فى القصر الملكى.

ومنها تخلقه بأخلاق الوثنيين وعاداتهم وتقليدهم فى ملابسهم. وقد بلغ منه الكره والعداء للإسلام أن كان يسمى الخدم والفراشين بأسماء النبى «صلى الله عليه وسلم» (احمد ومحمد)، تحقيرا لشأن الرسالة وغضا من كرامتها.

وكذلك استبدل بالتقويم الهجرى الإسلامى تقويمـا جديدًا سماه التقويم الإلهى يبتدئ بسنة جلوسه على سرير الملك..

ومن بدعه أنه أحل الخمر والقمار وغيرهما من الخبائث والمنكرات وأعانه على ذلك علماء السوء فى عصره من عبيد الدينار والدرهم، فزينوا له ما سوله له عقله المعتوه، وجعلوه يستيقن مـن نفسه العصمة، وقدموا إليه عريضة - تسمى محضرا باللغة الفارسية - تثبت للملك الغر العصمة وتخوله الحق فى أن يشرع من القانون ما يشاء ويضع من الأحكام ما يريد إلى غير ذلك من الأباطيل والخزعبلات التى تضيق هذه العجالة عن سردها.

وجملة القول أن هذه البدع والمنكرات ما كانت إلا مقدمة لما كان عقد العزم عليه من وضع دين جديد ينسخ به دين الله الخالد بزعمه، ظنا منه ومن خواص أشياعه أن هذا الدين (الإسلام) الذى جاء به محمد العربى - و«البدوى» حسب تعبير أولئك الزنادقة، قد مضى عليه ألف سنة، والعصر الجديد يومئذ فى حاجة إلى دين جديد يوافق ميول أهل العصر وأهوائهم ونزعاتهم. فأعلنوا دينهم الجديد وسموه«الدين الإلهى».

وكان شعارهم فى ذلك « الله أكبر » يريدون به أن هذا الملك الضليل المعتوه (اكبر) هو الله[1] ..!!

فكان من أثر كل ذلك أن اصبح عصر هذا الملك المأفون (٩٦٤-١٠١٤هـ) عصر بلاء ومحنة للإسلام والمسلمين فى هذه الديار اتسع فيه الخرق على الراقع وجاوز السيل الزبى. فاضطهد من اضطهد من عباد الله، وحبس، واعتقل من اعتقل. إلا انه مما يؤلم القلب ويدمع العين أنه قد زلت فى هذه الفتنة العمياء أقدام الخاصة والعامة ولم ينج من شرها حتى من كان يعد من كبار العلماء الفقهاء فى ذلك العصر، فلم يثبت فى تلك المحنة الكبرى إلا عدد قليل منهم جدا . أما جمهور العلماء والعدد الغالب منهم، فقد استسلموا لأمر

(١) كان من أشد المعجبين بهذا الملك المعتوه - هنا فى مصر - الهالك لويس عوض ؟!

الملك وجبروت السلطان القاهر و لم يتحرجوا من التوقيع على « المحضر » الذى ادعى للملك العصمة وخوله الحق فى وضع الشريعة.

لما آل الأمر إلى ما تقدم بيانه من غربة الإسلام فى هذه البلاد، والتضييق على المسلمين واضطهادهم، واصبح مثل القابض عل الدين من بينهم كمثل القابض على الجمر.

وقف الرجل الذى قيض ا لله أن يقف فى وجه هذا الطاغية وأنصاره الضالين المضلين، ويرفع لواء افضل الجهاد، ويصدع بكلمة الحق، ويكبح جماح غوايتهم، ويقضى على بدعهم وشرورهم قضاء مبرمًا ، فقام الإمام المجاهد العالم الزاهد الشيخ احمد بن عبد الأحد الفاروقى السرهندى الملقب بمجدد الألف الثانى للهجرة بالجدارة والاستحقاق، وشمر عن أذياله لمقاومة الفتنة الاكبرية ورد مكايد أعداء الإسلام، وتهذيب نفوس أهل الغواية وجاهد فى ذلك جهادا موفقا مبرورا حتى أنجحه ا لله فى مساعيه، وقضى قضاء مبرما على فتنة هذا الملك المعتوه وحوارييه..

❁ ❁ ❁

كانت انتخابات سنة ١٩٥٠ معلما من معالم التحول فى تاريخ تركيا الحديث وبعبارة – أكثر تحديدا ودقة – بداية سقوط«أتاتورك» فى أعين الشعب التركى الشقيق . ففى هذه الانتخابات نزل الحزب الديمقراطى ببرنامج عجيب يتلخص فى عدة نقاط :

أولها : عودة الأذان باللغة العربية .

وثانيها : السماح للأتراك بالحج.

وثالثها : إعادة تدريس الدين بالمدارس.

ورابعها : إعادة «أيا صوفيا » مسجدا كما كان .

وكانت النتيجة مذهلة .. فقد حصل الحزب الديمقراطى على ثلاثمائة وثمانية عشر مقعدا، وسقط حزب « أتاتورك» الذى لم يحصل على أكثر من اثنين وثلاثين مقعدا .. واستجاب « عدنان مندريس» زعيم الحزب الديمقراطى لمطالب الشعب على الفور. فعقد أول جلسة لمجلس الوزراء فى غرة رمضان ! وأعاد « الأذان » باللغة العربية كما كان. وبدأ تعمير المساجد وأصدرت الحكومة قانونا تستعيد به المساجد التى باعها « أتاتورك» ! وتقرر تدريس الدين فى المدارس. وفتحت مدرستان للأئمة والخطباء ! كما تقرر فتح خمس وثلاثون ألف مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم !!! وقد ذكر المراسلون ووكالات الأنباء أنه فى اليوم الذى تم فيه إعلان الأذان باللغة العربية خرج الرجال والنساء إلى الشوارع باكين من الفرحة قائلين :

آذان عربى شريف .. آذان عربى شريف ..!!!

وقد كتبت « بارى ماتش » الفرنسية حول مظاهر الصحوة الإسلامية وتحذير الغرب منها فقالت :

« من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى ومن أفريقيا السوداء إلى حدود سيبريا بدأ صوت الإسلام يرفع راية الإسلام فى كل مكان، وراية الإسلام بدأت تخفق من جديد بعد طول غياب فى بعض الأماكن بينما هى تستعد للارتفاع فى مناطق أخرى. فما هى الاحتياطات التى ينبغى على الدول الغربية أن تتخذها فى مواجهة ذلك، وكيف تستطيع أن تدرك حقيقة ما يجرى لكى لا نفاجأ بالأحداث »..؟!!

إن الأجواء مهيأة لحدوث الصحوة الحقيقية التى تتوج باستئناف الحياة الإسلامية، من خلال صياغة نظام إسلامى بديل للنظم الوضعية المعاصرة، وبحيث يستوعب ضرورات الحياة الحديثة ومستجداتها، ويتلمس لها الحلول الشرعية، عن طريق فتح باب الاجتهاد، سواء من قبل الفقهاء كأفراد أو من قبل المجامع الفقهية فى العواصم الإسلامية.

وإذا كانت الحقبة الأخيرة قد أكدت انتصار الإسلام فى معركة التحدى لكل من الرأسمالية العلمانية والشيوعية الإلحادية، بدليل الفشل الذى نلمسه فى الحضارتين الماديتين الشرقية والغربية، فان الإسلام يؤكد لنا جدارته للعودة إلى حياتنا من خلال صموده فى كل المعارك التى تعرض لخوضها حتى الآن .؟!

وكما يقول الكاتب البريطانى والصحافى المعروف « إدوارد مورتيمر » أن مصطفى كمال بالرغم من كل الإجراءات التى اتخذها، لتحديث وعلمنة تركيا : إلا انه لم يستطع قتل الشعور الدينى الجارف داخل قلوب ومشاعر غالبية الشعب التركى رغم الحظر الذى مارسه « الكماليون» فى تركيا طيلة السنوات الستين الماضية. ويقول : (أن شعورا جارفا وقويا للعودة للتقاليد والنظم الإسلامية قد نما بين مختلف طبقات الشعب التركى)..

❁ ❁ ❁

لقد ذهب مراسل جريدة « التايمز » The Times إلى أحد البنوك التركية فشاهد هذا المشهد : لدى إحدى مناضد الصرف، وعدد من موظفى المصرف يقبلون فى جدال عنيف على سيدة كهلة تدل ملابسها الظاهرة على أنها من الفلاحين..

وكانت السيدة تصيح بلهجة تركية حازمة :

« كلا أبدا .. اصنعوا بالنقود ما بدا لكم ولا تعطونى إياها ..

ألم يرد فى كتاب الله ان أكل الربا حرام مهلك ..!!!

ودنوت منهم مأخوذا بهذا المشهد الرائع .. وقام من بينهم محمد « بك» وهو تركى من أبناء الجيل الحديث ذى الصبغة الأوروبية الخالصة ولا يكاد يظن الناظر اليه فى أى مكان الا أنه غربى، وقد عهدته باسما رزينا - قد علاه خليط عجيب من الحرج - . فأقبل على مبينا أنها قروية لها مع المصرف حساب، وهو أمر اصبح مألوفا نتيجة الاثراء الذى طرأ منذ اعوام على كثير

من الفلاحين الأتراك .. ثم روى لى كذلك أنها (مسلمة شديدة التدين شـأن سائر الفلاحين) وأنها استحقت خمسين ليرة فائدة على ودائعها لكنها تأبى إباء قاطعا أن تمس شيئا منها لأن القرآن ينهى عن اخذ الربا)... !!!

أمعنت النظر فيها، فإذا هى ضاربة على رأسها بالخمار المعهود سـاترة بـه ذقنها و مسدلة إياه على أسفل الجبهة .. وهذا الشرشف -كما يسمونه - هو البقية الباقية من سالف الحجاب فى تركيا .. وكانت ترتدى ثيابا فاقعة الألوان وسراويل واسعة فضفاضة مما يعرفونه باسم « الشلفاز»..

ولبثت تتأمل فى كشف رصيدها بكثير من الريبة ..

ثم انبرت فجـأة مشيرة ببنانهـا - إشـارة اتهـام - إلى جملـة مـن الأرقـام أضيفت إلى الحساب، معلنة بحزم فاصل :

« هذا هو » الفائض ولن أخذه أبدا .. !!!..

يقول مراسل التايمز « The times» :

لقد أيقنت من هذه اللحظة إن الإسلام فى تركيا يستعصى على الموت!.. وأن كل ما فعله « أتاتورك» تلاشى أمامى فى غمضة عين .. !!!

❁ ❁ ❁

إن رأس الأمـر كلـه هـو الديـن - كمـا قـال مولانـا محمـد علـى - فـى محاكمته الشهيرة فى مدينة كراتشى - والمرء الذى لم يبدأ حياتـه بـه لا يتمتـع بحياة حقيقية ولا يشعر بالمعنى الحقيقى لهذه الحياة.!

أن واجبـه الأول وولاءه الأوحـد يجب أن يكـون لله. قـد يتمتـع ببعـض التكريم . وقد ينال شيئا من الولاء غير أن هذا التكريـم وهـذا الـولاء بمقارنتـه بالولاء والإخلاص لله يذوى كالورقة التى يلفحها اللهـب المشـبوب فتذروهـا الرياح الأربع .. ! أو تلوث يد الممسك بها بالسواد ..!!!



إن الإيمان لا يموت بالقتل ! وأن قطرة واحدة من دم شهيد كافية لإشعال النار فى الجليد والثلج . وفى تركيا اليوم نداء جديد يتردد صداه مع كل فجر. انه نداء الإيمان الذى انكمش داخل الصدور فترة من الوقت فمدارس القرآن تنتشر وتزداد. ومجالس العلم تعود إلى سابق عهدها فى المساجد، وقد تساءلت جريدة « لوموند» الفرنسية عن هذه الظاهرة الجديدة فى تركيا فقالت :

ترى هل استيقظ الرجل الميت ؟!

نعم قد استيقظ !!! فالشعب الذى حمل لواء الجهاد ستة قرون دفاعا عن الإسلام لا يمكن أن يموت والأمة التى من رجالها رجال كمحمد الفاتح وسليمان القانونى وسعيد النورسى.

لا يمكن أن تقهر ..!!!

❁ ❁ ❁

لكن ..

هل يقف الإسلام عقبة فى طريق التقدم، وهل الدين هو سبب تأخر المسلمين بين الأمم.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله مجيبا على هذا السؤال : كتب إلى تلميذى المرشد الشيخ محمد بسيونى عمران. إمام مهراجا جزيرة سمبس. بورنيو(إندونيسيا) . كتابا يقترح فيه على أخينا المجاهد (أمير البيان) أن يكتب للمنار مقالا بقلمه السيال يبين فيه أسباب ضعف المسلمين فى هذا العصر وأسباب قوة غيرهم من اليابان والإفرنج ...

وقال فى كتابه : إنه قرأ ما كتبناه فى (المنار) وتفسيره من بيان الأسباب فى الأمرين وما كتبه الأستاذ الإمام محمد عبده فى مقالات (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) فى الموضوع نفسه. وأنه يريد برسالته أن يكتب ذلك أمير البيان شكيب أرسلان بقلمه...

يقول الشيخ محمد بسيونى عمران فى رسالته :

ما أسباب ما صار إليه المسلمون من الضعف والانحطاط فى الأمور الدينية والدنيوية معاً؟ رغم ما يقول ا لله فى كتابه : (و لله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فأين هى عزة المؤمنين الآن؟ وهل يصح لمؤمن أن يدعى أنه عزيز ؟

ويتساءل أيضًا :

ما الأسباب التى ارتقى بها الأوربيون واليابانيون ارتقاء هائلا ؟

وهل يمكن أن يكون المسلمون أمثالهم فى هذا الارتقاء مع المحافظة على دينهم وعقيدتهم ؟

هذه هى الأسئلة التى وضع بشأنها هذا الكتاب[1] .. وكان ذلك منذ حوالى نصف قرن تقريبا . وقبل أن تبدأ الحرب العالمية الثانية بحوالى عشر سنوات . وبعد أن تقاسم العالم الإسلامى والعربى قوى الاستعمار الغربية وبدأت تمارس فيه أحقادها الدفينة ومؤامراتها الدنيئة .. كان العالم العربى فى هذه الآونة شراذم ممزقة. والمسلمون يتامى فى كل أمة. فقد أجهضت دولة الخلافة ووجهت إلى الإسلام طعنة قاتلة وخرجت من الجحور والشقوق عقارب البغضاء والكراهية . وارتفعت هنا وهناك شعارات تطالب بالفصل بين الدين والدولة ووقف أتاتورك يعلن إلى العالم تبرأه من الإسلام والعروبة.

وفى هذا الجو الخانق يصدر هذا الكتاب ويجىء جوابا على تساؤل أذهان الكثيرين من أبناء العالم الإسلامى الذين تكاثفت من حولهم الظلمة .. وأحاط بهم يأس قاتل تموت فيه الهمة ...

لكن من هو أولا المرحوم الأمير شكيب أرسلان ..؟

لقد ولد الأمير شكيب فى بيت «أرسلان» العريق فى لبنان فى شهر رمضان المبارك سنة ١٢٨٦ هـ وتعلم مبادئ القراءة والكتابة على يد معلم

(١) يقصد كتاب «لماذا تأخر المسلمون» الذى كتبه الأمير شكيب أرسلان .

خاص حسبما كانت عليه عادة السراة في ذلك الحين . ثم انتقل إلى التعلم على يد أستاذ أخر فحفظ جانبًا من القرآن الكريم وحين بلغ العاشرة من عمره دخل مدرسة الحكمة في بيروت وتلقى فيها دروس العربية على يد الشيخ عبد الله البستانى.

وفى مدرسة الحكمة تعلم اللغة الفرنسية والتركية وظهرت تباشير شاعريته وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان فى سن دراسته مبرزا على أقرانه وما هى إلا سنوات قليلة حتى رحل إلى دمشق وبدأ يجالس المشاهير ويتعرف عليهم من أمثال : الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول ، والشيخ على البستانى، والشيخ على يوسف صاحب جريدة «المؤيد» ، وحفنى ناصف، وأحمد زكى باشا، وطفق رحمه الله وهو فى سن الشباب ينشئ علاقات شخصية وأدبية مع أعلام عصره أمثال الشاعر إسماعيل باشا صبرى، وأمير الشعراء أحمد شوقى، والبارودى، وعبد الله باشا فكرى.

وتقلبت به السنون شاعرا، وثائرا، ومصلحا، وبحاثة لغويا، وزعيما سياسيا، ومترجما ومحققا ، وهو فى كل ذلك لسان حال العروبة الصادق، ورجل العقيدة الذى لا يخاف فى الله لومة لائم...

لقى الأمير شكيب أرسلان ربه فى الخامس عشر من محرم ١٣٦٦ هـ / ديسمبر ١٩٤٦ م فأفل النجم الذى أضاء دنيا العرب واغمد ذلك السيف الذى طالما دافع عن قضايا العروبة والإسلام..

وقد لاقى هذا الكتاب .. الذى دبجه يراع الأمير شكيب أرسلان بقلمه - رواجًا فى كل أنحاء العالم الإسلامى - وكان أشبه بعود الثقاب فى الظلام الدامس المدلهم وقد قوبل هذا الكتاب بمعارضة ومطاردة من الدوائر الاستعمارية. وقابلته فرنسا بحماقة شديدة فمنعت دخوله بلاد شمال إفريقيا وحرمت قراءته على الناس كأنه وباء...

وفرضت العقوبات الصارمة على كل من يوجد عنده هذا الكتاب ..

يقول الأمير شكيب :

لقد ظن كثير من المسلمين أنهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام وكل ما لا يكلفهم بذل دم أو مال. وانتظروا بذلك النصر من الله .. وليس الأمر كذلك فإن فرائض الإسلام لا تنحصر في الصلاة والصيام ولا في الدعاء والاستغفار . وكيف يقبل الدعاء ممن قعدوا وتخلفوا، وبخلوا وما بذلوا.. فكيف يطمع المسلمون أن تكون لهم منزلة الأوربيين في البسطة والقوة وهم مقصرون عنهم بمراحل في الإيثار والتضحية ؟

ويقول الأمير شكيب :

يقولون : لماذا سادت الأمة الإنجليزية هذه السيادة على العالم ؟

ونقول لهم جوابا عن ذلك : أنها سادت بالأخلاق والمبادئ الوطنية العالية. إني أعرف رجلا إنجليزيا كان يأمر خادمه أن يشترى له الحوائج اللازمة لبيته يوميا من دكان رجل إنجليزى فى البلدة التى يقيم فيها. فجاءه الخادم يوما بجدول حساب وفر عليه به عشرين جنيها فى الشهر فسأله الإنجليزى : كيف أمكنك هذا التوفير ؟

فقال له الخادم : تركنا دكان الإنجليزى الذى كنا نشترى منه إلى دكان آخر يبيع بسعر أرخص . فقال له الإنجليزى :

ارجع إلى الدكان الأول الذى كنا نشترى منه. فقال الخادم : ولو كان ذلك يكلفنا عشرين جنيها زيادة ...؟

قال الإنجليزى :ولو كلفنا عشرين جنيها أخرى ..؟

إن العطاء والتضحية والبذل هى التى تصنع تاريخ الرجال والأمم لقد قام أهل الريف المغربى فى وجه الدولة الأسبانية فطردوا جيوشا بعد أن أبادوا فى معركة واحدة ٢٦٠٠٠ (ستة وعشرون ألفا) من الأسبان وغنموا منهم ١٧٠ مدفعا مع أن أهل الريف جميعهم لم يكونوا يزيدون فى هذا الوقت عن ثمانمائة

ألف رجل وامرأة وطفل وكان عدد سكان أسبانيا فى ذلك الحين يقارب اثنين وعشرين مليونا ..

إن المبالغ الزهيدة التى جمعها المسلمون لنصرة المجاهدين فى برقة وطرابلس هى التى أوقعت بإيطاليا أفدح الخسائر وكبدت ميزانيتها مئات الملايين من الجنيهات ففى وقعة واحدة هى وقعة « الفويهات» على باب (بنغازى) ثبت مائة وخمسون مجاهدا عربيا لثلاثة آلاف جندى إيطالى من الفجر إلى غروب الشمس حتى انقرضوا جميعا وبينما كان المسلمون فى حزن لوفاة هؤلاء المجاهدين جاءت الأخبار بأن إيطاليا فقدت فى هذه المعركة وحدها ١٥٠٠ جندى .. وأصيب سبعة من ضباطها بالجنون .. وصدق الله العظيم : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ».

لقد كانت نتيجة هذه الموقعة انفجارا زلزل أرجاء إيطاليا . مائة وخمسون يقتلون ألفا وخمسمائة .. ويتسببون فى جنون سبعة من الضباط.. مائة وخمسون بالبنادق والأسلحة العتيقة يتصدون لجيش أوربى فيدمرونه ويدحرونه..

لقد جن جنون إيطاليا . فما سر هذه التضحية فى جنود العرب ؟ إنه الإسلام .. فلنحرك فى شبابنا أحقاد الماضى الدفينة وتاريخ الحروب الصليبية.. فكان هذا النشيد الذى يقطر حقدا وعداوة وهمجية ..

صلى يا أماه ولا تبكى ..

بل اضحكى وتأملى ..

ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة .. ولأحارب الديانة الإسلامية..

سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن..

ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطاليا حقا ..

يا أماه .. أنا مسافر .. ألا تعلمين أن الأمواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستلقى سفائننا على المراسى ..؟ أنا ذاهب إلى طرابلس مسرورا لأن رايتنا المثلثة الألوان تدعونى وذلك القطر تحت ظلها..

لا تموتى لأننا فى طريق الحياة .. وإن لم أرجع فلا تبكى على ولدك ..

ولكن اذهبى كل مساء وزروى المقبرة ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذى يأبى الحداد على قبر فلذة كبدك ..

وإذا سالك أحد عن عدم حدادك على .. فأجيبه..

إنه مات فى محاربة الإسلام...

يقول المرحوم أرسلان :

ومن أغرب الأمور أن نرى الأوربيين ودعاتهم وتلاميذهم من الشرقيين يتهمون المسلمين بالتعصب . ويزعمون لأنفسهم التساهل فى أمور العقيدة والدين ..؟

بل أن بعض المسلمين «جغرافيا» ينساقون ببلاهة وراء هذه الأكذوبة الضخمة فيتساهلون فى أمور دينهم حتى يكونوا « متمدنين » وعصريين ..

فالمسلم فى نظر هؤلاء لا يكون « غير متعصب » إلا إذا سمع بتنصير المسلمين ثم يمر بذلك كأن لم يسمع شيئا .. وإلا إذا سمع أن الهولنديين والفرنسيين نصَّروا عشرات الألوف من المسلمين فهز كتفيه كأن لم ير شيئا .. هنالك يصير « راقيا » ويعد « عصريا» ويصبح عند أعداء الله محبوبا .

أما الأوروبى فله أن يبذل القناطر المقنطرة على بث الدعاية التبشيرية بين المسلمين وله أن يحميها بالمدافع والطيارات والدبابات .

وله أن يحول بين المسلمين ودينهم بالقوة والمدرعات .. وله أن يدس كل دسيسة ممكنة لهدم الإسلام فى بلاد الإسلام وليس عليه من حرج فى ذلك ولا يسلبه هذا العدوان والبغض صفة « راق» و « متمدين » و « عصرى».

وهؤلاء المسلمون الجغرافيون برغم هذه الشواهد والأدلة ورغم ما فعلته فرنسا « اللادينية» فى محاولة تنصير البربر وفصلهم عن الإسلام .. ورغم حماية « هولنده» لمبشرى الإنجيل وإصرار بلجيكا على تنصير أهل الكونغو . ومنع الإنجليز للدعاة المسلمين فى كينيا وأوغندا وتنجانيقا وجنوب السودان . وبرغم أمور كثيرة لا نستطيع شرحها فإن الأغبياء لا يزالون يقولون :

إن أوربا قد رفست الدين .. وصارت دولها علمانية لا دينية .. ولهذا تقدمت وترقت ولا سبيل لرقينا حتى نترك الدين ..؟

ونقول لهؤلاء الأغبياء والعمى فى أمتنا .. إن التبشير والاستعمار يسيران جنبا إلى جنب .. بل إن التبشير كان دائما هو طليعة الاستعمار فى كل ارض، فقد أرادت أن توهم المسلمين بتخليها عن « الدين» حتى يحذوها وينفصلوا عن مصدر القوة والعزة والحرية .. أوهمت المسلمين ظاهرا بهذه الأكذوبة ثم أطلقت « عصابات التبشير» فى مستعمراتها تحت حماية قواتها المسلحة لتدمر وتخرب فى عقائد المسلمين .. لأن الإسلام هو العزة والحرية .. وما بقى المسلمون مسلمين فلا بقاء لمستعمر فى أرض تدين بالإسلام والرسالة المحمدية .. وهنا نقف وقفة قصيرة ..

لقد حدثنى فى العام الماضى[١] رجل كان يشغل منصبا قانونيا كبيرا فى هيئة دولية قال ذلك الرجل المسلم : عندما أممت قناة السويس وجد فى ميزانيتها قرار باعتماد خمسة ملايين جنيه ترصد لأعمال التبشير سنويا فى المنطقة. والأغرب من هذا كله أن .. « فرديناند ديلسبس » المهندس الفرنسى الذى أشرف على شق القناة أرسل إلى بابا روما بعد حفل الافتتاح برقية يخبره

---

(١) ١٩٧٢ .

فيها بأن الطريق إلى غزو العالم الإسلامى والسيطرة عليه أصبح ممهدا .. وسهلا .. !

بل أن أحد الرهبان واسمه « سان لوى » هو الذى فكر منذ زمن بعيد بشق هذه القناة ليصبح الطريق مفتوحا أمام جحافل الغزو الصليبى فى قلب العالم الإسلامى ..

ولم أعجب حين سمعت من الرجل القانونى هذه القصة .. فقد رأيت بعينى تلك المدارس التبشيرية التى أنشأتها شركة قناة السويس فى مدن القناة كلها . وكل هذه المدارس تديرها راهبات بإشراف الكنيسة والكرادلة وهى مدارس « سان فنسان دى بول » و « سان لوى » و «الفرنسيسكان » وبانباستير والصليبى الحاقد . فرديناند ديليسبس .

نعود مرة ثانية إلى كتاب المرحوم شكيب أرسلان :

يقول رحمه الله :

إن من أكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم فكما أن آفة الإسلام هى الفئة التى تريد أن تلغى كل شىء قديم بدون نظر فيما هو ضار أو نافع . كذلك آفة الإسلام هى الفئة الجامدة التى لا تريد أن تغير شيئا ولا ترضى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم الإسلامى ظنا منها بأن الإقتداء بالكفار كفر ، وأن نظام التعليم الحديث مع وضع الكفار..

لقد أضاع الإسلام جاحد وجامد ..

أما الجاحد فهو الذى يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ، ويحملهم على إنكار ماضيهم ويجعلهم أشبه بالعنصر الكيماوى الذى يدخل فى تركيب جسم أخر فيذوب فيه ويفقد هويته . وذلك لا يصدر إلا من الفسل الخسيس التعس الذى يشعر أنه فى وسط قومه دنىء الأصل فيسعى هو فى إنكار أصل أمته لأنه يعلم نفسه منها

بمكانة خسيسة ليس له نصيب من الأصالة فيريد أن يجعل الكل شريكا لـه فـى هذه الخسة .

إنهم كالقرود يقلدون بغير وعى ولا إدراك .. فقد قال المستر «شمـبرلين» ناظر خارجية إنكلترا سابقا . ورئيس وزرائها فى مطلع الحرب العالميـة الثانيـة. نحـن الإنكلـيز أمـة تقليديـة محافظـة علـى القديـم لا نرضـى بتبديـل شـىء مـن أوضاعنا إلا إذا ثبت ضرره و لم يبق مناص من تغييره..

ومما يزيد هذا المثال تأثيرا فـى النفـس أن الأيرلنديـين أمـة صغـيرة مجـاورة للإنجليز وقد حاولت بريطانيا كل ما يتصـوره العقـل لدمـج هـذا الشـعب فـى الأمة الإنجليزية مـدة تزيـد عـن سبعمائة عـام فـأبوا أن يصـيروا إنجلـيزا وبقـوا أيرلنديين بلسانهم وعقيدتهم ..

وفى فرنسا تأبى جماعة « الـبريتون » إلا أن يحـافظوا علـى أصلهـم وفـى جنوب فرنسا توجد جماعة يقال لهم« الباشـكنس » ظلـوا محتفظـين بقوميتهـم تجاه القوط .. والعرب .. والفرنسيين .. والأسبان ، وفى سويسرا ثلاثة أقسام لكل قسم لغة . الأمثلة كثيرة ولا تنهـى فـى أوربـا وأقطارهـا وقـد حصـرت أمثلتى فى أوربا لأنها القدوة لهؤلاء الجاحدين فى العالم الإسـلامى والعربـى .. واليابان ..؟

أنها دولة شرقية مائة فى المائة فكيف نهضـت وتقدمـت وسـبقت الكثـير من دول أوربا والغرب ؟ هل تخلصت من قوميتهـا وعقيدتهـا؟ هـل انسـلخت عن ماضيها وتراثها ؟ هذه الأمـة الشـرقية التـى يضـرب بهـا المثـل فـى الرقـى والتقدم لا تزال ملتزمة بعادات وتقاليد مضـى عليهـا أكـثر مـن ألفـى سـنة .. وامبراطورها هو ابن السماء والكاهن الأعظم.

ملـك إنجلـترا وإمـبراطور الهنـد .. فيمـا مضـى.. هـو رئيـس الكنيسـة الانجليكانية (حسب الدسـتور) ومجالسـه النيابيـه تنـاقش فـى قضايـا لاهوتيـة خطيرة مثل قضية الخبز والخمر وهل يستحيلان بمجرد كلام القسيس إلى جسد

المسيح ودمه كما تنص تعـاليم الكنيسـة فكيـف لا يقـال عـن هـذا الملـك إنـه رجعى وأن دولته العظمى متأخرة متقهقرة ..؟

إنها أمثلة لا تحصى أيضا فى الأمم الأوربية الأمم التى تدعى العلمانيـة .. وفصل الدين عن الدولة.

وهنا نقف وقفة ثانية .

فإسرائيل دولة انبثقت من تعاليم التلمـود والتـوراة .. العبرانيـة تعـود مـن جديد إلى الحياة .. المخترعات تحمل أسمـاء كـانت قـد اندثـرت تحـت أنقـاض الزمن.. كل شىء فى إسرائيل يتعطل يوم السبت لأنه يوم مقدس .. الأحزاب الدينية تكيف الحياة فى إسرائيل حسب التعاليم التى انقرضت .. فى كل فرقـة من الجيش حاخام يفرض وجوده على قواد الفرق .. ومع ذلـك فـان إسـرائيل كما يردد القرود فى العالم العربى دولة عصرية .. دولـة عصريـة رغـم كونهـا عنصرية .. دولة تقدمية وكل شىء فيها ملون بأحبار الكهنة والحاخامات.

ويقول المرحوم شكيب أرسلان ..

بقى بعد ذلك أن نتحدث عن الجامدين فى العالم الإسلامى هؤلاء الذيـن مهدوا لأعداء المدنية الإسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنيـة محتجـين بـأن التـأخر الذى عليه العالم الإسلامى وإنما هو ثمرة تعاليمه وقيمه .

إن المسلم الجامد هو سبب الفقـر فـى العـالم الإسـلامى لأنـه جعـل مـن الإسلام دين آخرة فقط. بينما الإسلام ديـن ودنيـا . والجـامد هـو الـذى شـن الحرب على العلـوم الطبيعيـة والرياضيـة بحجـة أنهـا مـن علـوم الكفـار فحـرم الإسلام ثمرات هذه العلوم وأورث أبناءه الفقر ، والمسلم الجـامد لا يـدرى انـه بهذا المشرب يسعى لبوار أمته وحطها عن الأمم الأخرى ولا يتنبه لشـىء مـن المصائب التى جلبها على قومه إهمـالهم للعلـوم الكونيـة حتـى انتهـوا إلى هـذا الجهل الذى هم فيه وصاروا عيالا على أعدائهم الذين لا يرقبون فيهـم إلا ولا ذمة.

والحقيقة أن هؤلاء الجامدين هم الذين لا تأتلف عقائدهم مع المدنية وهم الذين يحولون دون الرقي العصرى . والإسلام قبل غيره برىء من جمودهم وسذاجتهم.

إن الإسلام ثورة على القديم الفاسد ، وقطع كل العلائق مع غير الحقائق فكيف يكون الإسلام ملة الجمود وهو وحده دين التقدم والتطور..؟

فالمسلم الجامد يحارب كل علم غير العلم الدينى الذى ألفه . وينسى أن العلوم الطبيعية والرياضية والفلك والطب والهندسة والكيمياء وكل علم يفيد الاجتماع البشرى هى علوم دينية. وكم جرى تدريس هذه العلوم فى الأزهر الشريف والزيتونة والقرويين وقرطبة. وبغداد، وسمرقند وغيرها عندما كان للإسلام دول ورجال أعاظم .. وكم نبغ فى الإسلام من عظماء جمعوا بين الحكمة والشريعة ونظموا بين الحديث والرياضة وأن أكبر فيلسوف عربى اشتهر اسمه فى أوروبا هو القاضى « ابن رشد» وقد كان من أكابر الفقهاء والفلاسفة ..؟

لقد بلغت بغداد فى عهد المنصور والرشيد والمأمون ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها إلى هذا العصر حيث كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان .

كذلك كانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند وأصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الإسلام كانت القيروان وفارس ومراكش فى العرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر أو أن يكاثرها مكاثر فى ممالك أوربا حتى القرون الأخيرة.

وكانت قرطبة مدينة فذة فى أوربا لا يدانيها مدان . وكان عدد سكانها مليون ونصف المليون نسمة، وكان فيها نحو سبعمائة جامع عدا المسجد الأعظم وقد حدثنى المهندس الأسبانى الذى كان يرافقنى حين زيارتى لهذا

المسجد أنه يسع لحوالى (٥٠٠٠٠) خمسين ألف مصلى فى الداخل و(٣٠٠٠٠) ثلاثين ألف مصلى فى صحنه الخارجى.

وحسبك أن غرناطة التى كانت حاضرة مملكة صغيرة فى آخر أمر المسلمين فى الأندلس لم يكن فى أوربا فى القرن الخامس عشر المسيحى بلدة تضاهيها ولا تدانيها. وكان فيها عندما سقطت فى أيدى الأسبان نصف مليون نسمة و لم يكن فى ذلك الوقت فى أية عاصمة أوربية نصف هذا العدد.

هكذا كان المسلمون سادة الدنيا ومفخرتها.. كانوا كذلك حين كان الإسلام فعالا مؤثرا فى الحياة والحكم. حين كان الإسلام هو المهيمن على القلوب والفكر.. حين كان الإسلام هو المصدر الأول والأخير للتشريع والنظام .

إن القائلين بأن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين هم أول الناس علما بضخامة أكذوبتهم وإذا صدر هذا الكذب والافتراء من أمم تدين بالنصرانية فإنما يعمدون بهذا الكذب إلى ستر خيبتهم وأحقادهم.

لقد كانت اليونان- قبل النصرانية - أمة من أرقى أمم الأرض وكان الإسكندر الأكبر ابنا لهذه الأمة التى تصدرت بثقافتها شعوب العالم فى فترة من الزمن ، و لم تزل اليونان فى هذه المكانة حتى دخلت فى النصرانية فبدأت تتدلى وتنحدر حتى أصبحت ولاية تركية..

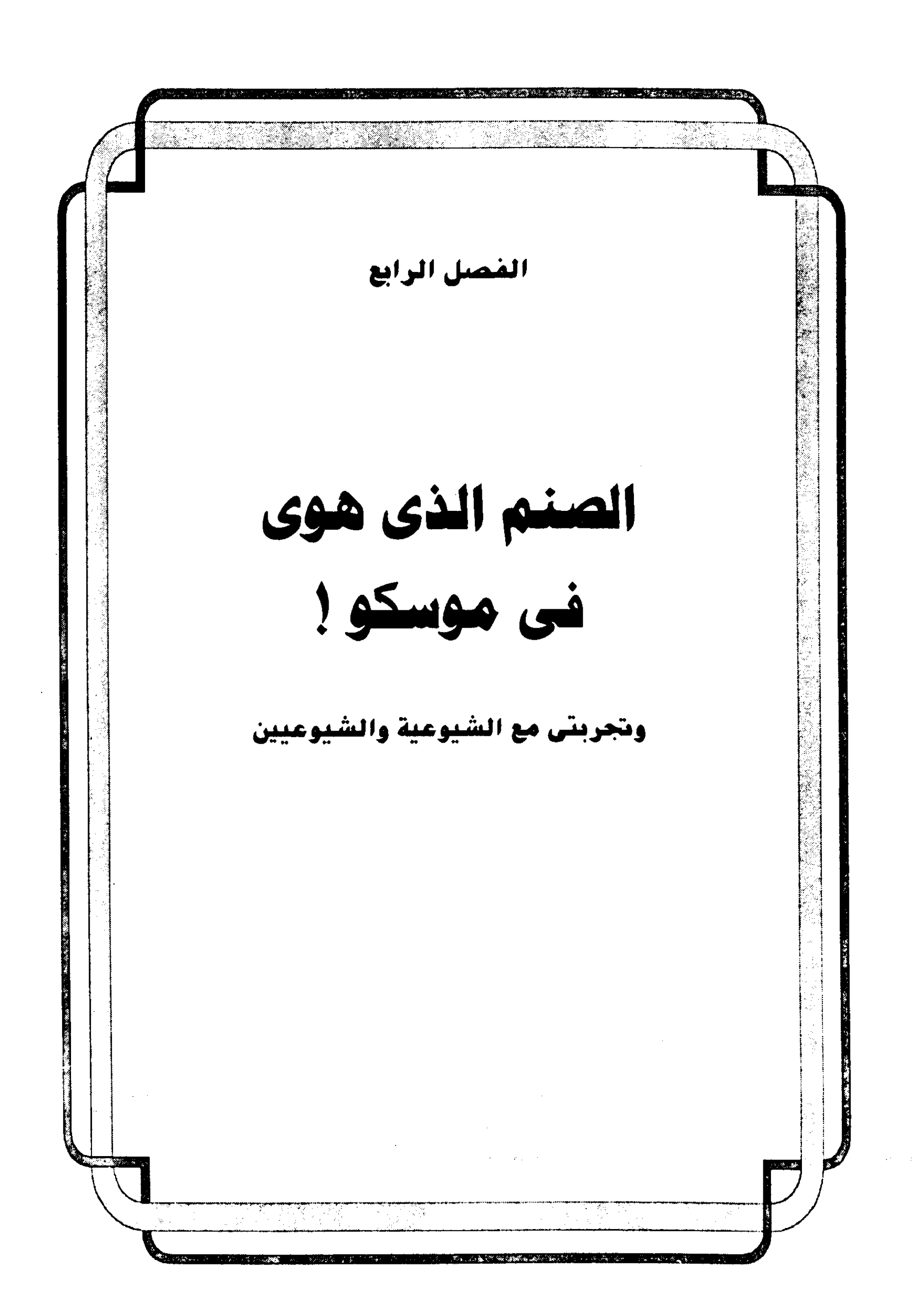
وكانت روما دولة عظمى لا تذكر بجوارها دولة .. و لم تزل كذلك حتى دخلت فى النصرانية على عهد قسطنطين ومنذ ذلك الوقت بدأت تنحدر وتنحط حتى تلاشى سلطانها شرقا وغربا.

وأصبحت أقطارها ولايات إسلامية..

وفى نظر الكثير من المؤرخين الأوربيين أن الكنيسة هى العقبة الكؤود فى طريق كل نهضة ، وأنها سبب الانحطاط والتأخر، وأنها الوحيدة التى عرقلت

عجلة الحضارة فى أوربا وأن عصر النهضة لم يبدأ إلا بالتخلص من الكنيسة ومفاهيمها البالية العتيقة .. وقد قال «فولتير» لرئيس وزراء النمسا البرنس «سيندروف» حين زاره وسأله عن حركة الإصلاح المسيحية التى قام بها «لوثر» و «كلفن» قال «فولتير» :

كلاهما لا يصلح حذاء لمحمد ...!!!



الفصل الرابع

الصنم الذى هوى فى موسكو !

وتجربتى مع الشيوعية والشيوعيين

أخيرًا ...

سافرت إلى موسكو ! لم يكن ذلك ممكنا فى العهد الشيوعى فقد كان بينى وبين الشيوعية والشيوعيين .. ثأر قديم لا ينسى !!

ففى عام ١٩٦٥م .. وفى شهر أغسطس من هذا العام بالذات ، نشرت فى مجلة «نور الإسلام» التى كنت اشرف عليها آنذاك نشرت «فتوى» تحرم الزواج بين الشيوعى وأية فتاه مسلمة أو بين المسلم وأية فتاه شيوعية ...!!

كانت هذه الفتوى ردا على سؤال من إحدى المذيعات فى البرامج الموجهة من القاهرة وقد سألتنى هذا السؤال بعد أن تقدم لخطبتها شاب تعرف انه شيوعى . وكان من الممكن أن تنسى هذه الفتوى كغيرها من فتاوى كثيرة فى أضابير المجلة ، أو فى عقول قرائها الطيبين الذين يعيش معظمهم فى «الكفر» أو «العزبة» أو «القرية» .. !!

ولكن الله - جلت حكمته - أراد لهذه «الفتوى» ذيوعا لم يكن متوقعا، وانتشارا وضجيجا بلغ أركان الدنيا ..

لقد زارنى فى مكتبى مصادفة الأستاذ محمود الكولى محرر الشئون الدينية فى صحيفة الأهرام ، وما كادت عيناه تقع على صورة الفتوى وهى لا تزال «بروفة» قبل الطبع . حتى هجم عليها وطلب صورة منها . ثم طار بها إلى صحيفة الأهرام التى نشرتها فى اليوم التالى وفى صدر صفحتها الأولى .. !

وفى الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم الذى نشرت فيه الصحيفة هذه الفتوى .. كنت استمع إلى النشرة المسائية فى محطة الإذاعة البريطانية .. فإذا بخبر هذه الفتوى يتصدر هذه النشرة بل كان الخبر الأول فيها ..

لم أنم تلك الليلة ..! وكيف أنام بعد أن تطايرت شظايا هذه القنبلة فى كل قطر وعاصمة .. وقد قامت الدنيا فى القاهرة المحروسة .. وانطلق زبانية الشيوعية يندون بالأزهر وشيخه فى ذلك الوقت المرحوم الشيخ حسن مأمون وبالرجعية التى تقف فى وجه التحول الاشتراكى مع ماركس وانجلز ولينين...!!!



كـان الرئيـس عبـد النـاصر علـى موعـد للقيـام بزيـارة إلى موسـكو بعـد أسبوع.. وهذا الذى نشر يمكن أن يفسـد هـذه الزيـارة أو علـى الأقـل يبطـل مفعولها وأثرها فى الاستجابة لمطالب مصر من الاتحـاد السـوفييتى الـذى كـان يمثل فى هذا الوقت «كل شئ» بالنسبة للقادة أو الساسة ؟!

وأشهد .. وعلى الرغم مما أصابنى فى عهد الرئيس عبـد النـاصر إن نشـر هذه الفتوى وبهذه الصورة ، وفى جريـدة الأهـرام التـى كـان يـرأس تحريرهـا محمد حسنين هيكل وفى الصفحة الأولى ، وفى العمود الأول منها ..

اشهد .. بأن «عبد الناصر» لم يكن شيوعيًا ...!! وإلا ... لـو كـان هـو كذلك .. لدفنت قبل أن يطلع الفجر ! هذا إن لم يختف البيت والشارع الذى كنت أسكن فيه من على ظهر الأرض ...!!

۞ ۞ ۞

واذكر وللتاريخ أيضا ...

إن الصديق اللواء - المرحوم - عاطف سـعد السـكرتير المسـاعد للمؤتمـر الإسلامى قبل اختفائه .. حضر إلى مكتبـى بعـد ثلاثـة أيـام مـن صـدور هـذه الفتوى .. كان معه رجل أخافنى مظهره المتصلب .. وعيناه اللتـان لا تطرفـان بعد أن يصوبها إلى وجهك ..!!

لقد قال لى اللواء عاطف - رحمه اللـه -

- من اصدر هذه الفتوى ..؟

- قلت له مترددا ... ولماذا ؟

- قال اللواء عاطف جئت لأقبل يده ...!!

- ««ياما أنت كريم يا رب»»....؟!!!

قلت ذلك فى نفسى بعد أن اخبرنى بان التيار الأقوى فى رئاسة الجمهورية . يؤيد ويساند هذه الفتوى ..!!

وان المعارضين لها قلة معروفة بالانحياز والولاء لموسكو ...!!!

۞ ۞ ۞

بل حدث فى معتقل «مزرعة طرة» حيث كنت معتقلا آنذاك .. أن دعيت للاشتراك فى محاضرة من تلك المحاضرات التى كانت تنظمها المباحث العامة لتوعية المعتقلين فى هذا المعتقل .

لقد قلت فى هذه المحاضرة : إننا مسلمون . وسنبقى مسلمين . ولن يكون للشيوعية والشيوعيين مكان فوق ارض مصر المسلمة ..!! وإننى كمسلم .. اعتبر نفسى قريبا من المسيحى الذى يؤمن بوجود الله - من الشيوعى - حتى وان كان هذا الشيوعى يحمل اسما مسلما أو ولد فى بيت مسلم !!!!

۞ ۞ ۞

لقد هاج الشيوعيون فى المعتقل ... وكانوا مجموعة صغيرة من «الماويين».. أى من الذين يعتنقون الشيوعية على مذهب «ماوتسى تونج» وسمعهم المعتقلون وهم يهتفون بسقوط «عبد الودود جونسون» وكان «جونسون» هو الرئيس الأمريكى فى هذا الوقت ...!!!

فهل كان من الممكن أن ازور موسكو ولى عندها هذا الملف ...؟!!

وإذا كان الشيوعيون يهتفون بسقوطى فى مصر .. وفى داخل سجن فماذا يفعل بى الشيوعيون فى موسكو لو وقعت فى الفخ ...!!

ومنذ عشرة أعوام التقيت فى حفل عشاء أقامته دار الشروق تكريما للمفتى «بابا خانوف» التقيت بالمستشار السياسى السوفييتى فى القاهرة ... لقد سر الرجل بمعرفتى وتمنى لو قبلت دعوة لزيارة الاتحاد السوفييتى ...؟

فاعتذرت بأدب .. ووعدته بالاستجابة لهذه الدعوى بعد انسحاب الاتحاد السوفيتى من ارض المسلمين والعرب ...!!

۞ ۞ ۞

إن «موسكو» كمدينة .. لا أكرهها .. فروسيا وبالرغم من التصاقها بالغرب دولة نصف شرقية ... وشعبها خليط من شعوب وقوميات يربطنا بها إيمان وعقيدة .. حتى سيبيريا التى كانت منفى لكل من يفكر فى الحرية أو يتفوه بكلمة يشتم منها رائحة التمرد أو الثورة ... سيبيريا .. هذه لنا فيها أشقاء واخوة وفيها مساجد ومعاهد ترفع صوت الإيمان والعقيدة ..

تقول إحدى الروايات انه عثر على سبعة من الدعاة والأئمة طمرتهم الثلوج وهم فى طريقهم إلى إحدى مدن سيبيريا وكانت المفاجأة عندما كشفوا عن جثثهم أن رأوا أكفهم مرفوعة إلى السماء كمن ينطق بالشهادتين قبل أن يفارقوا هذه الدنيا !!

وبالرغم من هذا كله كنت احب رؤية موسكو لم اكن اشعر بنفور داخلى من رؤية هذه المدينة أما لماذا فلأن الكراهية والحب عاطفتان تتسمان بالتمرد ولا تخضعان لميزان العقل والمنطق مثلا لا أجد حافزا واحدا يدعونى لزيارة أمريكا أما لماذا فإنى لا أجد لهذا النفور حتى هذه اللحظة سببا واحدا معقولا

«فالرِّجل» كما يقول المثل الشعبى «تدب مطرح ما تحب» وان كنت فى الواقع لا اكره الشعب الأمريكى أبدا ..

إن معظم من عرفتهم من الأمريكان .. يتسمون بالطيبة .. أقصد عامة الشعب - لا رجال الدين ولا المخابرات ولا الساسة بل إن كل أصدقائى الذين زاروا أو عاشوا فى أمريكا يؤكدون هذه الحقيقة .

حقيقة هذه «الطيبة» التى استغلتها الصهيونية لأغراضها الخبيثة ولكن بالنسبة لى فان الأمر مختلف جدا وقد دعيت مرتين قبل ذلك من جهات علمية ودينية لزيارة أمريكا ومنذ حوالى أربعة أعوام اتصلت بى السيدة الفضلى المستشارة الثقافية فى السفارة الأمريكية لإلقاء محاضرة فى جامعة «هارفارد» عن الإسلام والشريعة

إنها دعوة كريمة من سيدة كريمة هى المسز رانسوم وجامعة هارفارد هى أهم جامعة فى أمريكا ولكن ما الحيلة إذا كان قلبى يتصور أمريكا «بعبعا» مخيفا .. ويتصور شوارعها ومدنها غابة تصول فيها الوحوش جيئة وذهابا...!!!

لم اشعر بمثل هذا الخوف وأنا أخطو أولى خطواتى فى شوارع موسكو

هذا وبالرغم من تحول هذه المدينة إلى «مافيا»..!! والى عصابات تهدد حياتك وأمنك نهارًا وليلاً ..!!!

فى «فندق» كوزموس أى الفضاء باللغة الروسية وقد اختاروا لهذا الفندق هذا الاسم لوجود نموذج مجسم لأول صاروخ فضاء أطلق عليه هذا الاسم قريبا من الفندق كانت التعليمات من إدارة الفندق ألا تفتح الباب لأحد لا تعرفه وان تتأكد دائما من إغلاق غرفتك بعد أن تدخل إليها أو تخرج ..

الشىء الوحيد الذى لم يكن عليه قيد هو «الهوى»..!!

كدت ابكى حين رأيت فتاه صغيرة فى سن السادسة عشرة وهى تعرض نفسها علنا..!! إننى انظر إلى مثل هذه البائسة نظرتى إلى أى فتاه أو امرأة فى هذه الدنيا إن ««عرض»» البشرية من وجهة نظر الإسلام واحد وان امتهان عرض أية فتاه أو امرأة - تحت ضغط الفقر والحاجة هو امتهان لـ عرض البشرية كلها ...!!!



لكن من أين يبدأ الحديث

كان ذلك منذ عهد بعيد جدا كنا تلامذة صغارا نحبو فى طريق المعرفة وفى «معهد القاهرة» الذى كان واحدا من اكبر المعاهد الأزهرية فى مملكة مصر ..

كانت الحرب العالمية الثانية فى أيامها الأولى ولا زلت اذكر- وأنا أتجول فى«صحن الأزهر» هذا العنوان الذى ظهرت به الصحف فى ذلك الحين وبالبنط الأحمر الكبير لا زلت اذكر هذه العبارات التى نطق بها رئيس الوزراء «على ماهر باشا» حين سئل عن موقف مصر من هذه الحرب وعن استعدادها وتوقعاتها فأجاب الرئيس المخضرم قائلا... إن ا لله معنا..!!

لم نكن نعرف عن روسيا ولا الشيوعية إلا النذر اليسير من المعرفة لم تكن هناك علاقات دبلوماسية ولا تمثيل سياسى من أى نوع وكانت كلمة «الشيوعية» تذكر فى هذه الأيام موصومة بالعار والكفر والجريمة الفاحشة ؟



كانت مصادر الأنباء وينابيعها وإن شئت فقل أنابيبها تأتى من جهة واحدة ومن دول وحكومات كان اعز أمنياتها وأحلامها - أن تقضى على البلشفيك وحركتهم المخربة الهدامة و لم تكد روسيا تدخل الحرب إلى جانب الحلفاء ويتعاقد «تشرشل» على حد قوله مع «الشيطان» حفاظا على الحرية والديمقراطية وعلى بلده التى كانت عظمى لم يكد يحدث هذا التحول والاتفاق حتى بدأ الحديث عن الشيوعية ينتشر والهمس حولها يتزايد وصار مألوفا عاديا أن يرى الناس فى شوارع القاهرة تلك الملصقات التى تجمع فى صورة واحدة بين تشرشل وروزفلت وستالين الحليف الروسى المنشق ..!



وشيئًا فشيئًا بدأ الغطاء ينكشف والبخار يتصاعد والنشرات السرية تظهر في هذا المصنع وفي هذه الكلية وفي بعض المقاهي والأندية وأحيانا تظهر في أدراج الطالبات والطلبة ...

وكان الأستاذ محمد صبيح أحد الرجال البارزين في حزب ... «مصر الفتاة» يصدر سلسلة ثقافية عن الزعماء والقادة وفي حلقة من هذه السلسلة أصدر كتابًا عن «ستالين» ضمنه كثيرا من الآراء - الجديدة عن الشيوعية وعن أفكارها السياسية والاقتصادية وعن موقفها من الدين والعقيدة وحاول في كتابة أن يقدم الحقيقة كما يراها ويعتقدها وان يميز بين الزيف والحقيقة في الدعاية الموجهة إليها وكان صدور هذا الكتاب في حد ذاته ونشره في حينه ظاهرة جديدة تسمح على الأقل بمناقشة هذه القضية والإذن بممارسة الفكر لقضاياها النظرية والفلسفية ...

ولأول مره في تاريخ مصر ظهرت بعض الصحف والمجلات التي تتكلم صراحة عن الشيوعية ... «الجماهير» و «الملايين» و «أم درمان» وهذه الأخيرة كانت مجلة يصدرها شيوعي سوداني اسمه عبده ذهب - على ما اذكر وقد اصبح الآن من رجال الأعمال في السودان ويدير كازينو للترفيه والتسلية واللعب ...!

أما مجلة الجماهير فقد كان يرأس تحريرها لطفي الخولي الذي يرأس حاليًا[١] .. تحرير مجلة الطليعة التي تصدرها مؤسسة الأهرام في القاهرة .

كما ظهرت بعض المكتبات التي تبيع الكتب الشيوعية بأثمان زهيدة وكان من اشهر هذه المكتبات مكتبه في ميدان «سليمان باشا» أسسها المليونير اليهودي هنرى كورييل ...



(١) ١٩٧٣ - وقد توفى أخيرا .

لم أكن اترك كتابًا أو مجلة من المجلات فى هذه الفترة كنت تواقا إلى المعرفة نهما لكل جديد فى الفكر والثقافة ... وبالرغم من ثقافتى الأزهرية... وتربيتى الدينية العميقة فقد كنت أومن فى قرارة نفسى وبإقناع صادق من إيمانى وعقيدتى أن المسلم الحق لا ينبغى أن يغمض عينيه عما يدور حوله .. وأن الواجب الدينى يفرض على أن اعرف وأتعلم وابحث وأناقش وان على العالم المسلم أن يكون أشبه بجهاز «الرادار» الذى يرصد كل حركة فى الأفق ليتبين مواقع الخطر ويحدد أماكن الهجوم والدفاع أو يكون كالطبيب يدرس كل الأمراض والعلل ويعرف حركة الميكروب والجراثيم وإلا كان هو نفسه أول الضحايا .

❁ ❁ ❁

لهذا كله لم أكن أضيق بالرأى المعارض ... و لم اكن اقف موقف الكثيرين من مخالفيهم فى الرأى وقد اكسبنى هذا الموقف صداقة بعض الشيوعيين فى هذه المرحلة .. كان هناك مقهى فى حى خان الخليلى يسمى «زهرة إيران» كان صاحب هذا المقهى من الإيرانيين استوطنوا مصر[1] وكنا نلتقى فيه بعد انتهاء الدراسة فى المعهد أو فى أيام الإضرابات التى كانت كثيرة فى هذا العهد ... كان الشيوعيون يعرضون على قراءة صحفهم ... فيفاجأون بأنى قد قرأتها قبلهم ... ويوما بعد يوم انسوا بى واطمأنوا إلى فعرض على أحدهم واسمه م. ع. ف وقد أصبح فيما بعد من زعماء الحركة الشيوعية - أن نلتقى مساء فى المقهى فوافقته على اللقاء فى الموعد الذى حدده ثم أخذنى بعد ذلك إلى حى «عابدين» وسرنا معا من حارة إلى حارة ومن زقاق إلى زقاق وانتهى بنا المطاف إلى مقهى حقير متواضع يجلس فيه بعض الاخوة النوبيين ... وبعد تناول الشاى الثقيل المر ... أخرج من جيبه وريقات ثم بدأ يقرا منها ..

---

(١) لقد آلت ملكية هذا المقهى إلى الرجل الشهم وابن البلد الأصيل الحاج سعيد هيكل الذى انتقل إلى رحمة الله منذ سنوات .

- ما هذا ؟

- قلت للرفيق «م. ع. ف» متسائلاً ...

- إنها المادية الجدلية ...

أو المنطلق التاريخى للنظرية الشيوعية أو «المتن» الحقيقى لكتاب «راس المال» كما نقول نحن فى دراستنا الأزهرية ... وتركته يقرأ .. ويشرح .. ويفسر .. لم أقاطعه و لم اظهر استيائى منه .. لقد انخدع «الرفيق» بسماحتى الفكرية .. وتوهم المسكين أننى «جاهز» للتحول إلى الماركسية اللينينية - إننى أقرأ الصحف والمجلات الشيوعية واخطب فى الطلاب وأقودهم فى المظاهرات الوطنية .

فكيف لا أكون رغم ذلك عضوًا فى الحركة الجديدة ...؟ ولماذا لا أتحول بقدرة «ماركس ولينين» إلى الطبقة البروليتارية المجيدة ؟ !



وتكررت اللقاءات والقراءات .. وفى الجلسة الأخيرة مع آخر صفحة من الكتاب شكرت الرفيق على هذه الفرصة التى أتاحها لى لدراسة الماركسية والمادية الجدلية وتزويدى بتلك المعلومات الحافلة بالألغاز واللغارتمات والافتراضات الوهمية والخيالية ...

ونزل كلامى عليه كالصاعقة كيف خدع هذا الوقت كله ؟ وكيف غرر به طوال أسبوع كامل يدفع فيه ثمن تذكرة الترام وثمن أقداح الشاى وأحيانا ثمن العشاء الذى كنا نتناوله فى أوكار الظلام ... ؟



لم يكن يذكر الشيوعيون فى هذه المرحلة شيئا عن العلاقة بين الشيوعية والدين أو كان هذا على الأقل مع الذين لم يصبحوا بعد أعضاء ملتزمين فى الفكر والتنظيم ..

وجاء عام ١٩٤٧ الذى وافقت فيه هيئة الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين لقد احدث القرار موجة سخط شديدة بين العرب والمسلمين ... وكان الرأى العام فى مصر يغلى غضبًا من هذا الموقف المشين كان العالم العربى كله والعالم الإسلامى كله يدين القرار .. ويفضح المؤامرة . ويحاول منع وقوع الجريمة ..



وفى ميدان الأزهر ... وأنا فى طريقى إلى شارع الغورية متجها إلى حى الحلمية الجديدة التقى به فجأة«ع. ع» وهو رفيق شيوعى ثم اخذ يناقشنى الرأى فى موضوع التقسيم . ويقرر أن هذا هو الحل الوحيد السليم . وأن صيحة الجهاد والفداء كلمات بالية من صنع الرجعية والبورجوازيين ...

إذن فهذا هو الموقف الشيوعى من قضايا الوطن ومن المقدسات ومن فلسطين.. الجهاد .. خرافة . والفداء «غباء ورجعية» وإعطاء فلسطين للغزاة الهمج هو الحل الوحيد للقضية ...

لم استمر فى المناقشة ... لقد كانت صدمة عنيفة لمشاعرى الإسلامية والوطنية . ومضيت فى طريقى وأنا أفكر فى هذه الخيانة . وكيف يجرؤ عربى أو مسلم على إعلانها كهذا ببساطة ...



ومر عامان على هذه الحادثة . قسمت فلسطين .. واندحرت سبعة جيوش عربية وسيق الألوف من المواطنين إلى المعتقلات والسجون فى معظم البلاد وكنت واحدا من الذين القى بهم فى «هايكستب» وهو معسكر أمريكى من مخلفات الحرب تحول بين يوم وليلة إلى معتقل يضم فئات كثيرة من الشعب ..



وشاءت المقـادير أن يكـون مقـامى فـى «عنـبر» يضـم بعـض الشـيوعيين والصهيونيين والوفديين والإخوان المسلمين .. كل الصراعات والأيديولوجيات كانت مجتمعه فى هذا المكان .. كـان هنـاك هـنرى كوريـيل وسوسـو حـزان وريمون دويك وغيرهم من زعماء الصهيونية والشيوعيين وكان هناك «ج. م» و«م.ج» من شباب الطليعة الوفديين كما كان هناك مجموعة بارزة مـن قـادة الإخوان المسلمين .

الصراعات لم تكن تنتهى ... والجـدل والحـوار لا يتوقـف ، والاحتكـاك الدائم لا ينقطع ، والمجاملات الضروريـة التى يفرضهـا الموقـف كـانت فرصـة أخرى لتبادل وجهات النظر فيما يعرف وما لا يعرف ..



وفى أحد الأيام دخلت عنبرا يقيم فيه مجموعه مـن تلامـذة معهـد دميـاط الأزهرى . كانوا حوالى أربعـة عشـر طالبًـا جـيء بهـم إلى المعتقـل فـى قائمـة خاصة تبرع بها أحد الجبناء لحساب السلطة كانت أعمارهم تتراوح بين الثانية عشرة والرابعة عشرة . لم يكن لهم أى انتماء سياسى . تقـرب بهـم الشـيطان الآدمى على مذبح الخسة والنذالة ... وكانت هذه البراعم النقية فرصة للإغراء والإغواء من اللجنة المركزية ...

رأيت رجلا يجلس فى منتصف الحلقة .. نحيل فـى جسـمه يلبـس شـورتًا وقميصًا فوقه وكانت تربطنى بهؤلاء الاخوة الصغار محبة عميقة . فمـا كـدت ادخـل عليهـم حتـى هبـوا جميعـا لاستقبالى . وأيقـن الجـالس ذو الشـورت والقميص أننى «ذو شأن» فقام من مكانه وحياني ...

- اسمى هنرى كورييل

- أهلاً وسهلاً ... هل أنت السيد هنرى كورييل .. ؟

- نعم يا مسيو ..

- لست مسيو ولا مستر أنا مصرى مسلم .
- التقدمى لا يفكر فى مثل هذه الأشياء .
- تقدمى ... ؟ ما معنى هذه الكلمة .. ؟
اشرحها لنا من فضلك ...

* * *

واسترسل المليونير اليهودى الصهيونى الشيوعى يشرح ويحلل ويتناول كل ما يخطر بباله .

والحق أننى لم افهم تسعة أعشار كلامه أما الطلبة الصغار فقد انشغلوا عنه . بخناقة مع المتعهد الذى اختزل طعامهم إلى خمس قيمته .. ووزع الباقى . بينه وبين الحراس الذين اقبلوا لتحيته .!

وأخيرًا إنفجرت القنبلة ... لقد إعترف الرفيق الشيوعى بأنه ملحد وإن الدين والشيوعية لا يلتقيان أبدًا . وان فلسفة ماركس وانجلر ولينين هما الدين الجديد للعالم كله ...

كيف ناقشته ... ؟

كيف أحس بالعرق يتساقط من جبينه والكلمات تجف من حلقه ؟ والهزيمة تعريه مما بقى من زيفه ؟ شيء لا أدعية لنفسي ...

لقد كان توفيقا من الله ربي ...

وجاء الرفيق سوسو حزان يدعو الزعيم كوريل للغذاء ... فلم ينس أن يقول وهو يغادر مكانه ..

- لا تنس يا مسيو ... إن الشيوعية تنتشر الآن فى كل مكان .
- أوافقك يا مسيو كوريل على ذلك . لأن الأوبئة كما تعلم موجودة فى كل بقعة من بقاع الأرض[1] ...!!!



(١) كان هذا اللقاء فى عام ١٩٤٩.

ومرت سنوات لم أعد أسمع فيها بهنرى كوريل ولا ريمون دويك حتى جاء عام ١٩٦٥ وسمعت أن الزعيم الجزائرى المسلم هوارى بومدين قد أمر بإخراجه من الجزائر مع كل هنرى كوريل آخر ...

ومنذ ذلك الحين .. رسخ يقينى بالعداء والتعارض بين الوطنية والشيوعية وبين الإسلام والماركسية ... وتساءلت بينى وبين نفسى ماذا يكون الإنسان بدون إيمان وعقيدة ..؟ وأى شيء يكون هذا الإنسان حين تختنق فى نفسه الغيرة على الدين والوطنية ..

❁ ❁ ❁

ولكننا عشنا حتى رأينا عجبًا ...

فالشيوعية لم تكن وحدها فى هذا المسلك لقد فعل فعلتها كثيرون من العرب ، وقال قولتها أناس محسوبون على المسلمين بالاسم والنسب ...

ففى مجلة تصدر فى دولة عربية قال واحد من أولئك الممسوخين إن ا لله والدين دمى يجب أن تحال إلى المتحف .. !!

وأنقل هنا حوارا دار بين مسخ من هؤلاء المسوخ الذين يسمون أساتذة وبين فتاه تقدمت لاختبار شخصى لتكون مدرسة ...

س – أنت تقولين إن نصف المجتمعات تعتبر الجنس جريمة فماذا يجب أن تسميه إذن .....؟

جـ – إنه عمل طبيعى عادى ...!

س – إذن فأنت توافقين على ممارسة الجنس مع أى شاب يا أميمة ..؟

جـ – لا مانع عندى إذا نال الشاب إعجابى ...

س – إذن ما الفرق بينك وبين المومس ...؟

جـ – المومس تأخذ أجرا – أما أنا فأمارس للذة الجنس فقط ...!

س – هل الفتاة التى تنتقل بين أحضان الرجال شريفة ...؟

جـ – نعم شريفة ...

طالبة أخرى :–

أنا أؤيد أميمة وأزيد أن الجنس مثل الطعام والشراب والضرورات الأساسية ...؟!

مثال آخر :

فى الفحوص المدرسية والبعثات العلمية والرحلات الثقافية خمسون علامة توضع أساسا للمنتسبين للحزب .. يوجد سؤال لابد منه فى مجموعة هذه الأسئلة التى يتوقف على الإجابة عليها نجاح الطالب أو رسوبه . تثبيته أو فصله .

يقول السؤال :

إذا وجدت فى غرفة وأنت جائع وكان الخبز فى مكان مرتفع لا تصل إليه يدك إلا إذا ارتقيت على سلم من نسخ القرآن التى ليس فى الغرفة غيرها مما يمكن الارتقاء عليه فهل تظل جائعا .. أم تدوس على نسخ القرآن ..؟

هل تريدون مزيدا ...؟

ولكنى كفى ... كفى ... فالكوارث التى مرت بالأمة العربية كافية لإحياء الموتى ... ولكن العرب وحدهم هم الذين يزيدون بهذه الكوارث والنذر موتا ...؟



كم هى أليمة هذه المشاعر التى تثير فى النفس كوامن الأسى والغضب... ولكن المأساة فى عالمنا الإسلامى والعربى أن الأجيال الحاضرة لا تريد أن تعترف بالواقع المر ... إنهم يرفضون كل كلمة صادقة تصدر من

ناصح محب ... لا يقبلون إلا الوافد الغريب من القول ... والتافه المستورد من الفكر ... الحق وحدة ما يقوله ماركس وانجلز وسارتر ولينين والحضارة والتقدم وقف على لندن وباريس ووشنطن .....

لكن ... لا بأس .

فما دام قد قضى على هذه الأجيال بالمسخ . ووقر فى نفسها الإحساس بالقصور والعجز . وانحصر إيمانها فى كل ما يصدر من الشرق أو الغرب ... فلنحاول مجاراتها فى هذا الوهم ولنمش معها إلى نهاية الشوط ...

منذ خمسة عشر عاما تقريبا وقع فى يدى كتاب حرر بأقلام ستة من كبار الكتاب فى أوربا ... اسم هذا الكتاب «الصنم الذى هوى» و لم تتح لى فرصة لقراءته طوال هذه السنوات كلها . حتى هيأ الله هذه الفرصة ... ومع طبعة جديدة من هذا الكتاب الذى يعرض هذه الحقائق المرة ... والذى نقلة الأستاذ فؤاد حموده إلى العربية .

إن الستة الكبار من كتاب أوربا يحدثوننا عن رحلتهم إلى الشيوعية بعد أن تحمسوا لها أولا ثم عن «كفرهم» بها بعد أن يئسوا منها ثانيا .

هؤلاء الستة الكبار هم :

اندريه جيد وريتشارد رايت ، وآرثر كستلر ، وستيفن سبندر وأكفار سيلونى ولويس فيشر .

ولن نستطيع بالطبع عرض آراء هؤلاء فى الشيوعية . لان ذلك يقتضى إفاضة ينتقى معها الغرض من هذا العرض . ولان أكثر هؤلاء كانوا شيوعيين محترفين ثم تركوا الشيوعية بعد معاناة فكرية ونفسية وروحية قد لا يتوفر معها «العدل» والحياد فى التحليل والنقد ...

سنترك المفكر العالمى الفرنسى «أندريه جيد» يتكلم وحدة لأنه :

أولاً : تحمس للشيوعية من خلال قناعته المستقلة وإحساسه الإنسانى بما يعانيه الأشقياء والمحرومون فوق هذه الأرض . ولأنه ..

ثانيًا : مفكر عالمى متسم بالعدل والنزاهة فى الرأى .

فماذا يقول أندريه جيد ...؟

سافرت إلى روسيا . كنت فى كل مكان أركب أفخم السيارات وأسكن فى الفنادق أحسن الحجرات . وآكل أفخم الأطعمة .

لقد كان يهتف لى . ويو لم لى . إلا أن هذا التكريم كان يذكرنى دائما بالامتيازات والفروق . بينما كنت أرجو أن أجد المساواة .

لقد كانت الوجبة الواحدة التى تقدم لى تتكلف على الأقل ما بين ٢٥٠ روبل إلى ٣٠٠ روبل بينما العمال الذين لقيتهم ما كانوا يربحون سوى خمس روبلات فى اليوم . وكان عليهم أن يكتفوا بالخبز الأسود والسمك المجفف .

لقد حدث أن زرت إحدى المزارع الجماعية . ودخلت بيوتا متعددة وليتنى أستطيع أن أنقل إليكم ذلك الانطباع المطرد الكئيب الذى يحس به من يدخل هذه البيوت من أثر انعدام الفردية انعداما تاما ، لقد كان فى كل مكان منها نفس قطع الأثاث القبيحة ونفس الصورة للزعيم «ستالين» ولا شيء غير هذا فلم يكن هناك أى أثر لأى تحف أو ممتلكات شخصية . ولكن هل من الممكن أن تسمى هذا التشابه والاطراد وهذا الفقدان للمشاعر الشخصية هل يمكن أن تسمى هذا تقدمًا ونجاحًا .



إن العمال لم يعد يستغلهم حمله الأسهم الرأسماليون . إلا أنهم مع ذلك يستغلون أبشع الاستغلال . وبطرق خفية ملتوية بحيث لم يعد العمال يعلمون على من يلقون اللوم .. أن غالبيتهم العظمى يعيشون تحت مستوى الفقر ....

❁ ❁ ❁

عندما زرت «سوتشى» عجبت لكثرة المصحات التى أنشئت للعمال إلا أنه من المؤسف أن غالبية من يتمتعون بهذه الميزات هم من الطبقة المميزة الجديدة وانه لمن المحزن أن نرى الرجال الذين يعملون فى هذه الاستراحات ذاتها . وكيف يحصلون على أجور غاية فى الضآلة ويحشرون فى مخيمات دنيئة وحقيرة ...

وإذا كنت أحمل الإعجاب للاستراحات فى «سويتشى» فماذا أقول عن فندق «سينوب» ؟ لقد كان أرقى وأسمى من كل شيء آخر إلا أنك إذا عبرت النهر رأيت صفا من الأعشاش الحقيرة يعيش فى كل حجرة من حجره الصغيرة أربعة أفراد يدفع كل واحد منهم روبلين فى الشهر ...

إن حرية الانتخابات لا وجود لها فى الاتحاد السوفيتى إن الناخبين لا يملكون إلا حق انتخاب من عينوا لهم ... إن العمال يخدعون ويكممون وتقيد ايديهم وأرجلهم الى حد أصبحت معه المقاومة غير ممكنة . لقد لعب ستالين لعبته ، والشيوعيون فى كل أنحاء الدنيا يهللون له ويصفقون ويسمون كل من يخالفهم فى الرأى خائنا وعدوا للشعب ...

بيد أن هذا النظام فى روسيا قد أوجد خيانة من نوع جديد إن من أروع الوسائل فى الحصول على الترقية والتقدم أن يصبح الانسان مخبرا ... إن الانسان إذا وضع قدمه على هذا المنحدر المهين الزلق فلا يمكن لمسائل الصداقة أو الامانة أن تتدخل لايقافه بل عليه أن يتقدم فى كل مناسبة منزلقا آخر نحو الهاوية والعار والنتيجة أن يصبح كل انسان متشككا فى غيره . وتصبح الملاحظات البريئة العابرة – ولو كانت من اطفال – أمرا خطيرا قد يجلب الدمار ...

إن العامل السوفيتى البائس مربوط بمصنعه والعامل الزراعى مربوط بمزرعته ، واذا فكر هذا العامل فى ترك عمله لأى سبب من الاسباب التى

يراها مناسبة لتحسين معيشتة فإنه يجد نفسة فى ضياع يفقد بعده العمل والسكن ولقمة العيش .

❁ ❁ ❁

لقد آن الاوان لأن نفتح العيون على هذه الخيبة المريرة التى ذهبت بكل آمالنا الكبار . لقد كان من الممكن أن نتقبل فقدان الحرية الشخصية إذا كانت هناك على الاقل دلائل تشير الى أن التقدم المادى للجماهير يتم ولو على مهل... إلا أن الامر ليس كذلك للآسف. بل إن الدلائل تدل على أن أسوأ مظاهر الرأسمالية وأحقها باللوم تتكون من جديد.. والذى يزعجنى أن أراها تزداد...

❁ ❁ ❁

لقد اكتشفت أن عضوًا بارزًا من أعضاء أكاديمية العلوم قد أخرج من سجنه حديثًا. وكانت كل جريمته أنه كان مستقل الرأى.. وقد طرد عالم آخر من الجامعة لآنه عبر عن بعض آرائه العلمية التى لم تتفق مع رأى الحكومة والحزب. ثم أرغم على كتابة خطاب يتبرأ فيه من آرائه لكى يتجنب النفى أو القتل...

أما المحامى فى الاتحاد السوفيتى فالويل له إذا قام يدافع عن متهم تريد السلطة إدانته مهما كانت قضيته عادلة.. إن ستالين لايسمح إلا بالمديح وعبارات الاستحسان إن صورته فى كل مكان واسمه على كل لسان.

إننى أذكر وأنا فى طريق إلى «تفليس».. أن مررت ببلدة «غورى» التى ولد فيها ستالين فرأيت مناسبا أن أبعث إليه ببرقية خاصة كتعبير عن امتنانى لكرم الضيافة الذى أحطت به...

وسلمت الموظف المختص برقية أقول فيها :

إننى أحسس وأنا أمر فى هذه الرحلة المدهشة ببلدة «غـورى» أن أرسـل إليكم....

وهنا توقف المترجم وعلمنا أنه لا يستطيع أن ينقل هذه الرسالة لآن كلمة «اليكم» إذا وجهت إلى ستالين ليست بكافية ولا لائقة ولابد من إضافة شىء أخر. ثم اقترح أن اقول أنتم ياقائد الطبقة العاملة... أو أنتم يامولى الشعب..؟

إننى ألوم الشيوعيين فى فرنسا وفى البلدان الأخـرى أيضـا. ألـوم أولئـك الذين علموا الحقائق ثم كذبوا على العمال فى الخارج لقـد آن الأوان للعمـال خارج الاتحاد السوفيتى أن يعلموا أنهم قد خدعوا وضللوا مـن قبـل الأحـزاب الشيوعية كما خدع عمال روسيا من قبل...

لقد كان من الممكن أن أظل ساكتا رغـم الأحـوال المحزنـة المؤسـفة فـى روسيا.. ولكننى أرى من واجبى أن أتحـدث بصراحـة ووضـوح لأننـى مقتنـع تماما بأن الاتحاد السوفيتى ينزلق إلى أسـفل المنحـدر الـذى كنـت آمـل أن أراه صاعدا إلى قمته...

إن مسـألة الـولاء للحـزب لا يمكـن أن تعوقنـى عـن التحـدث بصراحـة ووضوح فإننى أضع الحق فوق الحزب وأنا أعلم تماما أن الماركسـية لا تعـترف بشىء اسمه الحق.. فالحق لديها نسى فقط : إلا أننـى أومـن مـع هـذا بـأن مـن الإجرام فى أمر خطير كهذا أن تضلل الآخرين...

إن الاتحاد السوفيتى قد خدعنا فى أعز أمانينا... إن روسيا قد عجزت أن تكون إلها... ولن تقوم أبدا من نيران المحنة الشيوعية...

❁ ❁ ❁

انتهى كلام أندريه جيد. أو الصفقة الغـير مربحـة كمـا قـالت الـبرافدا... صفقة غير مربحـة لأنـه قـال الحقيقـة و لم يتـأثر بمظـاهر الزيـف والتضليـل التـى أحاطوه بها.

إن كلمة «برافدا» باللغة الروسية معناها الحقيقة فكيف تتضايق «الحقيقة» من قول الحقيقة التي تحمل اسمها...؟

لقد ذهب ستالين على كل حال.. ونبش قبره على يد خروشوف.. وأخرجت جثته من المقبرة فى الكرملين إلى مقبرة مجهولة وذهب خروشوف هو الآخر ومات فى عزلة، وجاء من بعد ستالين وخروشوف بريجنيف وكوسجن ونيقولاى بودجورنى، تغيرت الأسماء والوجوه وبقيت الحقيقة المرة رغم أنف البرافدا.

يقول منشور سرى صدر فى موسكو إن أجر العامل فى الاتحاد السوفيتى لا يزيد على ثلث ما يجب أن يكون عليه أجر العامل الحقيقى وأين تنفق كل هذه الأموال...؟

ينفقها رجال الدولة فى الكرملين.. ينفقونها على حياتهم المترفة وعلى بيوتهم الريفية المكيفة. وعلى سيارات الليموزين الفخمة. وعلى استراحاتهم الخاصة، ومستشفياتهم الخاصة، إنهم يعيشون فى مستوى أرفع بكثير عن مستوى القياصرة.

۞ ۞ ۞

ويقول منشور آخر.. لماذا يأتى الشعب السوفيتى فى حساب درجة المعيشة فى الدرجة السادسة والعشرين بين شعوب العالم...؟ ولماذا يتقاضى العامل فى الغرب أربعة أضعاف ما يتقاضاه العامل الروسى...؟

۞ ۞ ۞

لندع «هدريك سميث» مدير مكتب « New York Times» الذى عاش مع أسرته ثلاث سنوات فى موسكو يحدثنا عن الحياة فى روسيا، وعن «خيبة الأمل» فى هذا النظام الذى منى به الشعب السوفيتى :

إن الفساد والنشاط الخاص غير المشروع في روسيا- أو - «الرأسمالية الزاحفة» كما يحلو لبعض الروس أن يسموها ينمو كنتيجة لطبيعة نقص السلع ورداءتها والتأخير الفظيع في الخدمات.. وهذا القصور تسبب في أكثر من مجرد ظهور ما يعرف في الغرب بالسوق السوداء. ذلك لأنه نشأ في روسيا في موازاة اقتصاد مضاد منتعش يتعامل بأحجام ضخمة من أوجه التجارة الخفية وشبه الخفية التي لا يمكن الاستغناء عنها سواء بالنسبة للمؤسسات أو الأفراد. وفي أي مكان من جمهوريات الاتحاد السوفيتي كلها..

كل شيء في روسيا يمكن - من الناحية العلمية - أن يتم الاتفاق عليه في الخفاء.. ابتداء من تأجير كوخ في الريف لقضاء الإجازة، أو شراء معطف أو حذاء من نوع جيد من أحد المحال التابعة للدولة. أو الحصول على فستان أنيق لدى أحد الخياطين أو الخياطات المشهورات، أو نقل «كنبة» عبر المدينة، أو وضع عازل صوتي أمام باب الشقة، أو علاج الأسنان عند طبيب أسنان ماهر، أو إلحاق الأطفال بمدرسة خاصة، أو الاتفاق مع جراح كبير على الكشف في المنزل، إلى إنشاء المباني أو مد المواسير في المزارع الجماعية.

لقد أصبح هذا الاقتصاد المضاد جزءا لا يتجزأ من النظام السوفيتي، وظاهرة راسخة دائمة من ظاهر المجتمع السوفيتي وهو يشمل كل شيء.. ابتداء من الرشوة الصغيرة إلى الاتجار في السوق السوداء والاختلاس بالجملة من الدولة، وإقامة صناعات خاصة في الخفاء على مستوى يصل إلى مستوى عملية«الأب الروحي» التي كشف عنها النقاب وأدت إلى سقوط شخصية كبيرة من رجال الحزب الشيوعي، عضو في المكتب السياسي. وهو يدار على نطاق واسع وبصورة طبيعية إلى الحد الذي يثير أشد السخط في نفوس الثوريين البلاشفة.



ومع ذلك فإن الناس يعتبرونه أمرا مفروغا منه كتشحيم ضروري لترميم الاقتصاد الموجه. فما يحصل عليه المحظوظون من أبناء الطبقة العليا بطريقة

رسمية ومشروعة من محال البيع المخصصة لهم وعن طريق الامتيازات الممنوحة لهم، يسعى المواطن العادى للحصول عليه مضطرا بطريق غير مشروع من الاقتصاد المضاد..

.. وفى هذا سمعت صديقا كيماويا يقول :- «إن هذا هو ما يجعل لاشتراكيتنا طابعا إنسانيا».

وقد سألت يوما عالم الطبيعة المنشق على النظام : أندريه ساخاروف عن حجم الاقتصاد المضاد فقال انه يقدره يقينا بـ «١٠ فى المائة أو أكثر» من إجمالى الإنتاج القومى كله، أو نحو ٥٠ بليون روبل «٦٦ بليون دولار» وإن كنت سمعت عن حجمه من آخرين أرقاما تزيد وأخرى تقل.

على أنه لا يوجد فى روسيا من ينكر وجود الاقتصاد المضاد.- فالصحف تنشر العديد من المقالات عن الفساد، والاختلاس، والاتجار غير المشروع، وإن كانت لا تنشر أبدا أية أرقام يمكن أن توضح أبعاد العمليات غير المشروعة. لكن هناك الكثير من الأخبار تنشر فى كل عام عن مجرمين اقتصاديين صدرت ضدهم أحكام بالإعدام لاشتراكهم فى عمليات غير مشروعة تصل إلى مئات الألوف من الروبيلات وبعضها يتجاوز المليون روبل.

وقد أعيدت عقوبة الإعدام بالنسبة لجرائم الاقتصاد فى سنة ١٩٦١ بعد أن ازدادت خطورة تلك الجرائم.

وفى تقرير صحفى نشر فى عام ١٩٦٦ أن ربع جميع الجرائم التى ترتكب فى الدولة جرائم تتعلق بسوء استخدام ممتلكات الدولة وفى شهر سبتمبر سنة ١٩٧٢ كشفت صحيفة «برافدا» النقاب عن ٢٠٠ حالة اختلاس واسعة النطاق من الدولة حدثت أخيرا فى الجمهورية الروسية«نصف البلاد تقريبا»، وقالت إن معظم القضايا الخطيرة من هذه الحالات خاصة بعمليات طويلة الأجل يقوم بها مجرمون محترفون.

وقد بلغت خطورة المشكلة حدا اضطر وزارة الأمن الداخلى إلى إنشاء فرع خاص فيها أطلقت عليه اسم «مكتب مكافحة نهب الممتلكات الاشتراكية». ومدت أوجه نشاطه إلى البلاد كلها.

و لم يقف هذا المكتب عند حد الفشل فى مكافحة هذه المشكلة ، وإنما - كما سمعت عددا ممن أعرفهم من الروس - يتحدثون عن قضايا أمكن فيها شراء موظفى المكتب كما يحدث فى الغرب عندما يشترى تجار المخدرات رجال مكافحة المخدرات. يضاف إلى ذلك فإن تقارير الصحف تشير إلى أن إجراءات الرقابة الواسعة النطاق التى اتخذت لحماية المخازن والمصانع والمزارع وغيرها قد فشلت لأن المشرفين على تنفيذ إجراءات الرقابة كانوا أنفسهم جزءا من المؤامرة.



على أن الفساد ليس بالأمر الجديد بطبيعة الحال. وقد سمعت من عدد من الروس أنه كان موجودا حتى فى أيام ستالين القاسية.

ويجدر بالذكر هنا أن عقوبة الإعدام لجرائم الاقتصاد فرضت لأول مرة فى عام ١٩٣٢، من قبل ستالين نفسه، أيام الزراعات التعاونية الإجبارية والتصنيع الإجبارى، و لم ترفع إلا بعد الحرب، فى سنة ١٩٤٧. لكنهم يعترفون بأنه انتشر بصورة حادة مع ازدياد الرخاء فى المجتمع السوفيتى فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات.

وأذكر قول صديق من العرب تربطه صداقات عديدة فى موسكو أنه عاد إلى موسكو بعد غياب طويل وسأل صديقا وزوجته عن أكبر تغيير حدث فى البلاد خلال العقد الماضى فجاء ردهما بصوت واحد : «الفساد..».

قال الزوج:«لقد نما بصورة مذهلة».

وقالت زوجته الأنيقة :«إنك لا تستطيع أن تتصور مـدى مـا وصـل إليـه فسادنا. كان من يمارسه فى الماضى أشخاص يتبادلون على المعروف فيما بينهم – كمبادلة تذاكر الباليه بالسجائر أو هديـة مـن الكافيـار تقـدم للخياطـة، أمـا الآن فكل شـىء أصبح لا يتـم إلا بـالفلوس.. وبكثير مـن الفلـوس»، وأتـت بأصبعيها الحركة المعروفة على النطاق العالمى حين يتحدث الإنسان عن المال.

وللاقتصاد المضاد فى الاتحاد السوفيتى لغته وتقاليده.. أساليبه ومبادئـه.. يعرفها كلها الجميع، ويستخدمونها على أساس يومى تقريبا وهى علـى أنـواع لا تحصى، لكـن أشـهرها وأكثرهـا بـراعة هـو مـا يطلـق عليـه الـروس كلمـة «بلات» ويشمل معناها :

النفوذ، والاتصال بالمسئولين ومن فى حكمهم.

إن «النفوذ والاتصـال» فـى وسـط اقتصـادى يعـانى أوجـه نقـص حـادة وامتيـازات موضوعـة ومدروسـة بعنايـة يصبحـان عمليـة «تشـحيم» أساسـية للحياة. فكلما ازدادت رتبة الإنسان وسلطته كلما ازداد نفوذه لكن الصحيـح أيضا أن فى استطاعة أى إنسان أن يبسط منافع «النفوذ والاتصال» على غـيره من الناس – على البواب أو الشيال أو عاملة النظافة فى محـل لبيـع الأغذيـة أو على بائع أو ميكانيكى أو حتى أستاذ – لأن كلا من هؤلاء الناس يسـتطيع أن يؤدى خدمات أو يقدم أشياء يريدها النـاس ويصعب الحصـول عليهـا. ويبـدأ تطبيق استخدام– النفوذ عندما يطلب شـخص مـن شـخص أخـر أن يقـدم لـه معروفا مع إفهامه بأنه سيحصل على معروف مقابل معروفه. وإذا أخذنا كلمة النفوذ بمعناها ألحرفى فإنهـا لا تعنـى استخدام المـال. ولهـذا فـإن واحـدة مـن الممثلات قالت لى فى تفسيرها «النفوذ لا يعنى – فى الحقيقة – الفساد.. وإنما يعنى أنك: أنت لى وأنا لك». وبمعنى آخـر فإنـه يعنـى :– «سـأهرش ظهـرك مقابل أن تهرش ظهرى».

❁ ❁ ❁

هل بقى شىء من الحقيقة..؟ إن من أمر الحقائق فى علاقة الاتحاد السوفيتى بالعالم العربى. أنه خدع العرب فى حرب خطط لها بتدبيره لتسقط شعوبه المسلمة فى شراك الهزيمة فلا تخرج منها إلا بعد أن توصم فوق جباهها بالعار والمطرقة والمنجل..

لقد بدأت المأساة بقصة شراء الأسلحة، وظن المخدوعون فى العالم الإسلامى أن الطريق إلى حرية هذا العالم ومجده سيتم فتحه وتعبيده على يد موسكو..

إن قصة هذه الأسلحة قصة أليمة كتبها من بدايتها إلى نهايتها اللواء التشيكى «جان سينيا» الذى عاش على مسرح تلك القصة منذ البداية ومن المعروف أن مصر حين قبلت فى منتصف الخمسينات أن تأخذ السلاح من الكتلة الشرقية عقدت أول صفقة مع تشيكوسلوفاكيا، ولم تقبل أن تأخذ من موسكو، ويمهد اللواء التشيكى للقصة السوفيتية فى هذا بكلمة يقول فيها : «إن شعار موسكو فى زحفها على المنطقة العربية كان الشعار الذى ينادى به القادة السوفيت وهو : فى تقدمنا نحو الشرق الأوسط علينا أن نقلد النمل فى صبره وإصراره، وأن نذر قليلا من الرماد فى العيون كلما عزمنا على التقدم إلى الأمام خطوة جديدة.؟!

ثم يبدأ اللواء التشيكى فى رواية القصة فيقول : وفى أوائل عام ١٩٥٥ زار براغ أول وفد عسكرى مصرى برياسة اللواء حسن رجب، وكنت وقتذاك برتبة عقيد اشغل منصب قائد سلاح الهندسة فى الجيش التشيكى، بالإضافة إلى عضويتى فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى وقد انتاب القادة السوفيت فى موسكو عقب هذه الزيارة موجة من الفرح وقالوا لنا : هذا جميل، وبقى عليكم أن تتحركوا بسرعة، ومن بين النقاط التى أثاروها معنا وقتذاك أن نطالب المصريين بقبول خبرائنا إلى جانب أسلحتنا، ثم طالبونا بأن نقترح على الحكومة المصرية أن توفد من جانبها وفدا لزيارة موسكو، وكان

المصريون يشعرون بحساسية لزيارة موسكو وكان جوابهم عندما عرضنا عليهم - تنفيذا لأوامر الكرملين - القيام بهذه الزيارة.

- لا أبدا. إن الاتصال بالاتحاد السوفيتى سيعرضنا للخطر على صعيد رأى العالم العربى والعالمى.

وهكذا أصر المصريون على التعامل معنا فقط فى تشيكوسلوفاكيا واستمر هذا التعامل أكثر من سنة ولكن حينما انفجرت أزمة السويس سنة ١٩٥٦ تغيرت الصورة، وأصبح الاتحاد السوفيتى هدية السماء إلى العرب، وتصدى خروشوف والاتحاد السوفيتى للقيام بدور حماة العالم العربى. وطلبت الحكومة السوفيتية أن نقول للحكومة المصرية عندما تفاتحنا بصفقات جديدة من الأسلحة تعوض ما فقدته فى سيناء سنة ١٩٥٦، أن هذا يتجاوز طاقات تشيكوسلوفاكيا، وليس أمامنا سوى اللجوء إلى موسكو وفى أواخر سنة ١٩٥٦، وبعد أن انسحب الفرنسيون والإنجليز من السويس وصل إلى براغ وزير الحربية المصرى عبد الحكيم عامر ومنها تابع رحلته إلى موسكو فى زيارة للاتحاد السوفيتى، وخلال هذه الزيارة قمنا بالاتفاق مع السوفيت بأول محاولة لحمل الحكومة المصرية على الانحياز إلى الكتلة الشرقية، لا على الصعيد العسكرى فحسب، بل على الصعيدين السياسى والاقتصادى كذلك، وكان عامر شديد الحذر بالنسبة لهذا، ولكنه طلب المزيد من التسهيلات لتدريب العسكريين المصريين ولم يكتشف عامر إلا بعد زيارة أخرى أن من بين المواد التى تدرس للمصريين دروسا فى الماركسية - اللينينية غير أن الوقت كان قد فات للتراجع.!؟

وبعد زيارة عامر لموسكو عاد إلى براغ واجتمع برئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا، فقال لعامر بإيعاز من موسكو : إن عبد الناصر يتيح فرصة العمل أكثر من اللازم لعدد من الأحزاب السياسية، وإنه مناوئ للشيوعية، ويعتمد فى حكمه على عناصر برجوازية، وقبل عامر بإيعاز من موسكو أيضا

أن تقيم تشيكوسلوفاكيا مدرسة حربية فى مصر وذهاب عدد أكبر من الضباط التشيك إليها، وكان الروس يراقبون الموقف لانتهاز الفرصة، فعندما طالب عبد الناصر بصواريخ أرض - أرض و أرض - جو قلنا له : ليس هذا فى طاقتنا، وإنما هو فى طاقة موسكو كما أراد السوفيت أن نقول، وتضمنت الاتفاقية أن يكون مع الصواريخ الخبراء الروس وبدأ الخبراء الروس يتوافدون فعلا على مصر ليحلوا محل الخبراء التشيك. وكانت كل قافلة من المرحلين التشيك تحل محلها قافلة أضخم عددا من الروس، ومن هنا بدأت قصة الخبراء السوفيت المعروفة.

ويختم اللواء التشيكى القصة قائلا: وبفضل حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ استطاع السوفيت أن يشددوا من قبضتهم خلال أسابيع على وادى النيل، ولولا هذه الحرب لاقتضاهم ذلك سنين طويلة من الجهود، ولكن شعار النملة الصابرة الذى كانوا يتحدثون به لم يعد يسير سيرالنملة، وإنما راح يندفع اندفاع الصاروخ». [١١]

هذه هى القصة الأليمة التى مثلها السوفيت مع مصر فى السلاح والخبراء، قصة ذر الرماد فى العيون عند كل خطوة إلى الأمام كما قال ذلك القائد التشيكى الذى شهد كل وقائع القصة، السلاح الذى كانوا يقدمونه بقدر، وبالثمن، وبالمقابل فى تغلغل النفوذ السوفيتى فى مصر وتدريس الماركسية اللينينية للمصريين. لقد آثرنا أن نضع القصة بتفاصيلها، وكما رواها اللواء التشيكى تحت أنظار الناس حتى يعلم الناس الحقيقة فيما يذيعه الكرملين اليوم عن تسليحهم لمصر ومساعدتهم لمصر... وهى حقيقة لا نعتقد أنها فى صالح السوفيت.

۞ ۞ ۞

لقد مثلت روسيا مع مصر دور «شيلوك» فى مأساة شكسبير، فلا يمكن لباحث منصف إغفال هذا الدور الذى لعبته روسيا فى نكبة سنة ١٩٦٧.

لقد كان تخطيطا رهيبا يهدف إلى القضاء على مصر «المسلمة» وتحويلها إلى تابع فى فلك الدب الكبير..

واندفعت القيادة السياسية - فى ذلك الوقت - تحت ضغط الظروف القاهرة لتلبية كل ما يطلبه منها الكرملين.. وبلغت المأساة ذروتها حين أصبح فى مصر جيش من الخبراء السوفيت يفرضون - بالجهل والعنجهية - إرادتهم على جيش مصر وعلى شعب مصر الصابر المسلم..

كان الرئيس عبد الناصر كما يقول اللواء الحناوى قائد القوات الجوية فى حالة انهيار تام وكان على استعداد لقبول أى شرط،- فوافق فعلا على أن يعين مستشارا سوفيتيا لكل قائد بادئا من القائد العام للقوات المسلحة حتى قادة الأسراب والكتائب..

وبدأ تنفيذ تلك الخطة اعتبارا من أول نوفمبر سنة ١٩٦٧، وهذا التاريخ يعتبر نقطة تحول هامة فى العسكرية المصرية وفى الوضع السياسى فى جمهورية مصر.. لقد تم فى فترة ما بين ١٣ يونيو بعد النكسة وأول نوفمبر ١٩٦٧ تشكيل القيادات الجديدة للقوات المسلحة بشكلها النهائى.. فعزل من عزل وحوكم من حوكم وعينت قيادات جديدة من المفروض أن تتحمل مسئولية بناء القوات المسلحة الحديثة.

ومن ٢ نوفمبر - أى اليوم التالى مباشرة - اتخذ المستشارون السوفيت مواقعهم فى كل موقع من مواقع القوات المسلحة، وفى اليوم التالى لتولى اللواء مصطفى الحناوى قيادة القوات الجوية والدفاع الجوى وجد له مستشار يدعى الجنرال جريالوف.. واجتمع القائد العام فى القيادة العامة للقوات المسلحة بقادة الأفرع الرئيسية لتعريف القادة بالمستشارين السوفيت ودورهم.. وكان التقديم لطيفا ظريفا لا يشكل شيئا غير مألوف وفهم الجميع أن دورهم فى الرجوع إليهم فيما يتعصى فهمه.. وهذا أمر لا بأس به.

ولكن هل كان هذا هو الغرض الحقيقى..؟

بالطبع لا.. فقد كان الهدف أعمق من ذلك بكثير.. بدأ المستشارون السوفيت ينفذون مخططهم الأساسى من أول لحظة.. ويمكننى - والكلام هنا للواء الحناوى - بتلخيص بسيط بعد التجربة مع هؤلاء الخبراء أن نستنتج بعض الأغراض الخفية لهؤلاء الخبراء.

كانت غايتهم إضعاف الثقة فى نفوس قادة القوات المسلحة وإشعارهم أنهم غير قادرين على إتخاذ القرارات السليمة، وإن كفاءتهم أقل بكثير من مناصبهم التى يشغلونها.. ونسوا أنهم يتعاملون مع جيل جديد من القيادات متعلم له خبرة طويلة كل فى مجاله. ومهما كانت درجة ثقافتنا العسكرية فإن خبرتنا من العمليات الطويلة على مدى عشرين عاما كانت أكثر بكثير من تجارب خبراء الاتحاد السوفيتى، فهم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لم يشتركوا فى عمليات حربية بعكس ضباطنا الذين اكتسبوا الخبرة منذ عمليات سنة ٤٨ حتى سنة ١٩٦٧ سواء بنجاح أو فشل..

بالإضافة إلى انعدام خبرتهم التامة بنوعية المقاتل المصرى.. فنحن أبناء وطن واحد أدرى بنفوسنا من غيرنا.

وبذلك تهتز ثقة القادة فى أنفسهم وبالتالى تهتز ثقة المرءوسين فى قادتهم وفى هذا الوقت لن يكون هنالك مفر من التجاء الرئيس إلى أحضان الخبراء السوفيت وهذا كسب كبير يمكنهم من التصرف فى كل صغيرة وكبيرة ويصبح القادة المصريون مجرد «برافانات» يدير من خلفهم المستشارون السوفيت دفة الأمور وفق هواهم ومخططاتهم داخل القوات المسلحة.

كان من مخططات المستشارين السوفيت فى أثناء ديناميكية العمل على ما فيها من نجاح أو فشل إلصاق الفشل فورا بالقادة المصريين - وتحميلهم التبعة واقتناص العمليات الناجحة لأنفسهم من أول وهلة وإذاعتها على كل المستويات.

التحكم الكامل فى معدلات الاستكمال فـى القـوات المسـلحة استعدادا ليوم المعركة، وكانت تصرفاتهم ريفية ساذجة ومكشوفة للغاية.. فمثلا :

وصل الحال إلى أنه كـان فـى القـوات الجويـة احتيـاطى خمس ماكينـات للميج ٢١ برغم أنه كان فى الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقـت مـا يربـو علـى ٢٠٠ محرك للتعمير لأنه كان من أساليب التحكم أيضا ألا تتم العمـرة إلا فـى الاتحاد السوفيتى رغم وجود مستشاريهم بمصر.

ولما استنجدنا بالاتحاد السوفيتى لإرسال عدد من تلك المحركـات رفضـوا بشدة مما وضع القوات الجوية فى حالة حرج شديد حيث كنا فى فترة عصيبـة لقيامنا بعدة مهام فى وقت واحد للدفاع عن المجـال الجـوى وإعـداد الطيـارين الجدد ورفع كفاءة الطيار القديم، ونظرا لكثرة استهلاكنا لمحركـات الطـائرات سـواء بسـبب كـثرة سـاعات الطيران أو الأعطـاب التـى تحـدث لمحركـات الطائرات، وبعـد محـاولات يائسـة قـرر السـوفيت إرسـال ٢٣ محركـا جديـدا كصفقة جديدة..

واشترطوا ثمنا لها ثلاثة أضعاف ثمن المحركـات التـى تعاقدنـا علـى شـرائها سابقا، و لم تمضى فترة وجيزة بعد وصولهـا إلى مصـر حتـى أرسـلوا دفعـة مـن محركاتنا التى تم تعميرها بالاتحاد السوفيتى..

ولقـد كـانت القـوات الجويـة مسـرحا أساسـيا وخصبـا لمخطـط الاتحـاد السوفيتى.. فمن أول يوم تم فصل القـوات الجويـة عـن قـوات الدفـاع الجـوى وهذه نظرية مقبولة، لكن الاعتراض كان على الأسلوب الـذى اتبـع فـى بـذر عوامل الشقاق والتنافر بين أفراد القوات الجوية وأفراد الدفـاع الجـوى بصـورة صارخة.. كانوا يوغرون صـدور قـادة القـوات الجويـة مـن ناحيـة، ويوغـرون صدور قادة الدفاع الجوى وأفراده من جهة أخرى.

وهنا أحب أن أنبه أن الخبراء الروس فى هذا المجال كانت لهم اليد الطولى والنفوذ القوى، فقد كانوا يستمدون سلطتهم من رئيس الجمهورية مباشرة ويصورون له الأمور كما تحلو لهم.

وكان الرئيس الراحل يثق فيهم ثقة عمياء على عكس ثقته فى القادة المصريين حيث كانت تقريبا منعدمة.

وكان ذلك واضحا فى كل اجتماع من اجتماعات المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة الرئيس عبد الناصر.

كما كان من أهدافهم الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن القوات المسلحة المصرية سواء عن الأفراد والقيادات أو القواعد الجوية والإنشاءات وكل صغيرة وكبيرة دون استثناء مما كان ملفتا للنظر للغاية..

وأوضح برهان على ذلك أن أحد الخبراء بعد تركه للعمل فى مصر وأثناء توجهه إلى الاتحاد السوفيتى ووقوف الطائرات فى إحدى البلاد الأوربية فر ولجأ إلى إسرائيل ومعه كل ما أمكنه جمعه من المعلومات...!!!

وأخطر من ذلك بكثير أننا فى أثناء حرب الاستنزاف كنا نجرى عمليات استطلاع جوى لمواقع العدو شرقى القناة فى سيناء، ولقد لوحظ أنه فى كل مرة تخرج طلعات استطلاع نجد مظلات إسرائيلية تواجهها بمجرد عبورها القناة، فى بادئ الأمر كنا نعتقد أنها يقظة وكفاءة عالية لأجهزة الإنذار الإسرائيلية ولكنها لا يمكن أن تكون بهذه الدقة والسرعة فى كل مرة فأرتبت فى الأمر وأجريت تجربة على ذلك..

حددت موعدا لعمل طلعة استطلاع فى الليلة السابقة وحددت ميعاد الطلعة والأماكن التى تمر فوقها لتصويرها، وكان فى نيتى ألا أنفذ هذه الطلعة وراقبت خريطة الموقف العام فى نفس الموعد المحدد لتنفيذ تلك الطلعة، وإذا بى أجد الطائرات الإسرائيلية قد ظهرت دون خروج طائراتنا - !!! فقوى الشك عندى.. وحتى لا تتوقف عمليات الاستطلاع كنت ألجأ لحيل كثيرة

منها أن طائرات الاستطلاع تقوم من قاعدة ثم تتحرك وتتمركز فى قاعدة أخرى وتنفذ عمليات الاستطلاع فى موعد غير المعلن عنه للخبراء الروس، وفى تلك الطلعات لم يكن هناك أى اعتراض لطائراتنا التى تقوم بالاستطلاع..؟؟؟

ولقد كان حظى وزملائى فى الأفرع المختلفة للقوات المسلحة سيئا للغاية بوجود الخبراء الروس منذ الأيام الأولى لتولينا قيادتنا وتحملنا لمسئولية إعادة بناء القوات المسلحة، فإن المعوقات التى كانوا يضعونها أمامنا أكبر من أن تحتمل، وإننى أعجب - لا يزال الحديث للواء الحناوى - هل كان ذلك مقصودا أم هى طبيعة السوفيت ؟ لأن عامل الوقت بالنسبة لهم لم يكن له قيمة على الإطلاق..

فبمجرد دخولى المكتب فى الصباح يدخل كبير الخبراء ومعه المترجم ويظل مرافقا لى أثناء قيامى بالعمل.. يتدخل فى كل شيء بدرجة مملة عقيمة وقد نبهت كبير الخبراء إلى أهمية الوقت ولكن ذلك كان عبثا فلا احترام للوقت أو حتى للأصول العسكرية أو كرامة القادة لدرجة أننى من شدة سخطى فى أحد الأيام خرجت عن صبرى وطردت كبير الخبراء والمترجم من المكتب بمنتهى الشدة والقسوة. وتكرر هذا التصرف منى وفى كل مرة كان يشكونى إلى وزير الحربية محمد فوزى وإلى رئيس الجمهورية.

لقد كانت تلك الفترة أصعب فترة فى تاريخ مصر، فكنا بعد النكسة والقوات المصرية محطمة والروح المعنوية منهارة بالإضافة إلى النقص فى السلاح والأفراد والتنظيم كانت تقتضى هذه الفترة الاستغلال لكل دقيقة لإعادة بناء القوات الجريحة. وكنت أشعر بالجهد المضنى الذى يبذله الخبراء السوفيت للحد من ذلك الاندفاع الرهيب وكأنهم حجر ثقيل فى عنقى.. ويا ليت الأمر اقتصر على هذا ولكن حتى استشارتهم كانت مضللة ولكنها نافذة.

وإننى أدلل على مدى سوء نوايا الخبراء المستشارين فى القوات المسلحة بأمثلة عديدة منها كنا دائما نطالب بالتسليح والطائرات لكى نبنى قواتنا الجوية وبعد إلحاح شديد قررت القيادات السوفيتية تزويدنا بعدد ١٠٠ طائرة وحضر إلى القاهرة مارشال جرتشكو وزير الدفاع السوفيتى واجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية وزف لنا هذه البشرى السعيدة وطلب منا تحديد الأنواع على أن نخطره بذلك مؤخرا.. وفى أثناء الاجتماع كانت هناك فترة استراحة لشرب فنجان من الشاى، وإذا بمارشال جرتشكو ينتحى بى جانبًا متسائلاً :

ما رأيك لو زودناك بعدد ٥٠ طائرة اليوشن ٢٨؟. فأصابتنى الدهشة. وقلت له قطعا إنك تمزح لأن هذه الطائرة أبطل إنتاجها فى الاتحاد السوفيتى منذ ١٩٥٢ وهى بطيئة للغاية كما يسهل على أى وسيلة دفاع جوى حتى الرشاشات أن تصيبها وتدمرها، إلا أنه أصر على رأيه قائلا إنها طائرة ذات مدى جيد وحمولتها معقولة إلا أننى تمسكت برأيى ورفضى لأن هذه الطائرة لا تساوى ثمن وقودها وغير فعالة ضد العدو الذى يستخدم الميراج والفانتوم فسكت على مضض ودبر فى نفسه أمرا.

بعد انتهاء الاجتماع.. أرسل كبير الخبراء فى مهمة خاصة وطلب منى أن نجلس معا وعلى انفراد ولفترة طويلة لأن لديه أمرا هاما يريد أن يبلغه لى. ودار الحوار بينى وبينه. ابتدأه قائلا مادحا متملقا لشخصى وذكائى ونشاطى وكفاءتى..الخ

إلا أنه قال « إن رفضى لقبول طائرات اليوشن ٢٨ يضر بى ويطيح بى من منصبى أما فى حالة قبولى فسيكون موقف الاتحاد السوفيتى بجانبى وسيكون مستقبلى زاهرا ؟! فذكرت له أن المارشال جرتشكو من القوات البرية بصرف النظر عن كونه وزيرا للدفاع للاتحاد السوفيتى فإنه عندما يعتقد أن تلك الطائرات ممكن أن تؤدى دورا فى عملياتنا المستقبلة مع إسرائيل فله بعض العذر» ..

.. أما هذا القول فغير مقبول من جنرال طيار.. واستطردت قائلا : أنني لا أساوم على مصلحة بلدى ولو كان تهديدك يفقدنى منصبى فإنى أرحب بذلك كل الترحيب لأننى بأى حال لن أبيع وطنى وأهلى وعشيرتى بأى ثمن.. فلما لم يجد استجابة قال لى : أنا أعلم أنك متيسر الحال ؟ وإنك بفقدك منصبك يمكنك أن تعيش نفس المستوى أما لو كنت فقيرا فأعتقد أنك كنت ستوافق فورا..؟!!

وحمدت الله على نعمته التى مكنتنى من قول الحق مهما كانت العواقب، وقد أسرها الخبراء السوفيت فى أنفسهم وكانت الركيزة لعزلى من قيادة القوات الجوية بعد ذلك لعدم استجابتى لرغبات السادة الرفقاء.

بعد ذلك فى مايو سنة١٩٦٩ أراد الرئيس عبد الناصر أن يعلم ما تم إنجازه عن إعادة بناء القوات الجوية. فهى ولا شك كانت فى ذلك الوقت العنصر الحيوى فى بناء القوات المسلحة سواء فى مصر أو فى إسرائيل.

فاستدعى كبير الخبراء السوفيت إلى استراحة القناطر ليقدم له تقريرا عن تلك الإنجازات، ولأن الرفقاء لم يكونوا مشغولين بالمساهمة فى بناء القوات الجوية لأنهم كانوا مشغولين بمخططاتهم وأهدافهم الجانبية فقد أسقط فى يد كبير الخبراء ماذا يفعل وماذا يقول ؟.

أخذ يجمع من القادة المصرين الإنجازات التى تمت، وكم كان مندهشا حين علم أن كل ذلك العمل قد تم فى تلك الفترة الوجيزة..

وحمل ذلك التقرير وأبلغه إلى الرئيس عبد الناصر... وربما يكون قد نسب لنفسه ورفاقه كل هذه الإنجازات، ولكن قيادة القوات الجوية وأفرادها كانوا يواصلون الليل والنهار لإنجاز ما أنجز على أسس علمية سليمة بالعرق والدم والسهر.. والحمد لله فإن قواتنا انتصرت فى أكتوبر بدون هؤلاء الخبراء..



فلم يكن عجيبًا أن يأمر الرئيس السادات بطرد خبراء التخريب والتجسس..

وأن يمزق بإرادة مصر الحرة ورقة الذل والعبودية أو ما يسميه قياصرة الكرملين بمعاهدة الصداقة التى لم تصدق فى حرف واحد منها...!

ماذا بقى من الحقيقة..؟

لقد نشرت إحدى الصحف الأوربية أن الرئيس السادات رفض الاعتراف بحكم المارق الشيوعى «هاشم أبو العطا» الذى أراد حكم السودان بالمطرقة والمنجل بعد أن طلب منه السوفيت هذا الاعتراف الدموى.. فكان هذا سببا من أسباب حقدهم عليه، وتآمرهم للإطاحة بحكمه.

ثم ماذا أيضا.؟

بقى على المخدوعين فى العالم العربى والعالم الإسلامى أن يعرفوا الحقيقة من مصادرها الحقيقية لا من «نوفوستى» ولا من وكالة «تاس» ولا من «البرافدا» الصحيفة التى تحمل اسم الحقيقة ولا صلة بينها وبين الحقيقة...!!!

❁ ❁ ❁

فى عهد «الإخطبوط الدموى» الذى كان يسمى بمراكز القوى كتب على شعب مصر المسلم، أن يرضخ فى هذه الفترة الكئيبة لمفاهيم لا عهد له بها فى تاريخه، ولا سابقة لها فى ماضيه أو حاضره.

لقد تصدر الأمر - فى ذلك العهد أناس مسخوا«وحوشا مفترسة» ولكنها وحوش من نوع يثيره لون الدم.. دم الإنسان البرىء الحر، ودم القيم والفضائل التى أريقت هنا على أرض مصر.

ولأن الظالمين بعضهم أولياء بعض، فقد آثر هؤلاء أن يغلقوا على مصر كل الأبواب إلا بابا واحدا ينفتح على الشرق. الشرق بمعناها «الأيديولوجى» البحت، والشرق بمعناه الدموى الذى يهون فيه الإنسان حتى الموت.

كان الطلبة يوجهون إلى تلك الجامعات التى يتعلم فيها الطالب «صناعة الحقد» ويجردون فيها من كل مكرمة عرفها الإنسان منذ قام الإنسان على هذه الأرض.

وكان العلماء والمفكرون ورجال السياسة والاقتصاد يرحلون إلى هذه «الأصقاع» ليتعودوا فيها على حياة الصقيع والبرد ويتلقون فيها أصول«الحكم» أو النظرية» التى لا تعرف غير «الإبادة والقتل».

حتى الفلاحون.. الفلاحون الذين درجوا منذ آلاف السنين فوق هذه الأرض الطيبة يزرعونها بالحب لم يسلموا من هذا التشويه والمسخ، ولم يدعوهم فى القرى الآمنة.. قانعين بما قسمه الله لهم من رزق متواسين فيها بينهم بالإخاء والحب. هؤلاء الفلاحون ساقوهم إلى متاهات الضياع، «الأيديولوجى» المتزمت وشحنوهم بالطائرات إلى هناك فى محاولة للتغيير أو التدمير المبيت.

كيف كان يحدث هذا؟ إن أحدا فى مصر لم يكن يتصور ما كان يحدث فى ذلك العهد.. كنا نقرأ ونسمع. ونهمس. ولكن القراءة فى تلك الأيام كانت جزءا من الأخبار «المصنوعة» فى معاهد «الكذب».. والهمس فى هذه الفترة من الزمان كان حلما من أحلام اليقظة فى مواجهة الموت والخوف.

لقد زارنى فى مكتبى الأستاذ أحمد موسى سالم وأهدانى كتابا من تأليفه اسمه«سباق المستقبل بين الدين والشيوعية» تسلمته شاكرا وإن كنت فى الواقع لم أعره اهتماما لم أعر الكتاب لا الكاتب وأستغفر الله من هذا اللبس..

لقد كتب الكثيرون عن الشيوعية وعن الصراع أو الخلاف بينها وبين الدين، وقرأت أكثر هذه الكتب ورأيت أننى اكتفيت بما كتب، وقنعت بما قرئ، ولم يعد يثيرنى الحديث عن هذه القضية بعد أن تعرت الشيوعية فى مهدها وإنفضحت وبعد أن عرف الناس أنها أى «الشيوعية» زفرة حاقدة على البشرية منذ وجدت.

غير أن هذا الكتاب جذبني ... أنه ليس كتابا من تلك الكتب التى ترص فيها المعلومات قالبا إلى جوار قالب إن هذا الكتاب فيض تجربة حقيقية ونبض قلب مؤمن بالقيم والأخلاق المصرية. وكان «مسرح» هذه التجارب أو «اليوميات» فى ألمانيا الشيوعية أى الشرقية.

فى أول لقاء مع الرفاق كما يقول الأستاذ أحمد سالم: قدموا لنا الخمر امتنعنا.. فقال الرفيق «شبرلنج» رئيس اتحاد الفلاحين فى ألمانيا الشرقية -:

«عندما كنت فى القاهرة صادف ذلك شهر الصوم عندكم. وعندما لاحظت فى حفل استقبالى أن أمين الفلاحين لا يشرب الخمر سألته ؟ فقال لى: نحن فى رمضان.. ولذلك نحن نمتنع عن الخمر تماما..»

ثم توجه نحوى بالكلام عن طريق المترجم وقال : واليوم أنا متأكدا أنكم لستم فى رمضان.. فلماذا الامتناع عن الخمر إذن.؟

وقلت أرد عليه-:

إنه بالنسبة للخمر يا سيد شبرلنج فإن كل الشهور عندنا رمضان..إننا نمتنع عنها فى كل الشهور أى أننا نمتنع عنها دائما.. ونحن لا نمتنع عن الخمر ابتداء بسبب الالتزام بأمر الدين. فهناك قبل أن نرجع إلى الأمر الدينى أسباب كثيرة تفرض علينا أن نمتنع عن الخمر.

فقال شبرلنج تعجبا وغير مصدق : حسنا ما هى هذه الأسباب ؟

قلت :

أولا : لقد سرق الإنجليز أرضنا الزراعية بوسائل غير أخلاقية :

منها أنهم نشروا «الخمارات» التى يملكها الأجانب فى القرى. لقد نشروها كجزء من خطة استعمارية تتسرب بها الأراضى التى فى يد صغار الفلاحين الذين سكروا بائتمان أرضهم إلى أيدى «أصحاب الخمارات» الأجانب.

ثانيا : نحن نحتاج اليوم إلى ترميم أخلاقنا التى حاول هدمها المستعمر ولا يكون ذلك بشرب الخمر.

ثالثا : فإن الناس عندكم يشربون الخمر بأمر الطقس وأحكامه، بينما فى بلادنا يأمرنا الطقس بالعكس

رابعا : فإننى أعتقد أنكم مع إباحتكم للخمر تمنعونها فى بعض الأحوال فأنتم تعلمون أن الخمر تطلق الألسنة بما يقال: وما لا ينبغى أن يقال ؟ ومعنى هذا أنه حتى أنتم يا أصدقاء الخمر لا تستطيعون أن تبيحوها إباحة مطلقة.

❁ ❁ ❁

كان أول القصيدة «كفرا» كما يقول المثل، غير أننا سنرى من خلال اليوميات التى سجلها المؤلف أن«الكفر» كان قاسما مشتركا فى كل حفل أقاموه، وفى كل مكان ذهبوا إليه وفى كل حوار أو مناقشة دارت بينهم وبين الرفاق الشيوعيين فى ألمانيا، أو بين «العرب» الذين سافروا لنفس المهمة من آسيا أو إفريقيا؟؟

يقول المؤلف :

منذ اليوم الأول من إقامتنا بمدرسة الهندسة الزراعية فى قرية «تونينشنتال» علمنا بوجود وفود عربية من سوريا ومن السودان. وكانت فرحتنا عارمة بوجود الأشقاء من السودان ومن سوريا.. لكن لم نكد نلتقى بالوفد السودانى المكون من عشرة أعضاء - نصفهم مع رئيس الوفد : شيوعيون - حتى تبخرت أكثر آمالنا.. من أول لحظة نظر رئيس الوفد الشيوعى السودانى إلى الفلاحين المسلمين نظرة طبقية ...وسمح لنفسه بتوزيع منشور يحمل عنوان «وثيقة» إدانة هاجم فيه «الدين» تحت ستار مهاجمة الحكام وكان اعجب شيء أن رئيس الوفد -الشاب الشيوعي - خفيف الرأس يتكلم معنا ومع غيرنا كرئيس دولة وكان «رئيس الدولة» هذا كما تكشف لنا بعد امتحان طبيعته وهز معلوماته صورة غريبة من فهم الماركسية فهما

صوفيا «انجذابيا» بنفس مقاييس دراويش «التعايشية» الذين يهاجمهم مع رفاقه: صورة يرى فيها أن الماركسية هى «الطريقة» وان الحزب هو «القطب» المعصوم .

وان تعاليم الحزب هى «الأوراد» وان أعضاء الحزب هم «دراويش» الماركسية المنتظرون للجنة والنعيم هنا على الأرض جنة مليئة بالخمر والنساء والسيارات والمصايف والمأكولات والهرمونات والسعادة المعلبة فى قراطيس المانيفستو الذى أكل علية الدهر ...!

وقد تكررت الصورة نفسها مع الوفد السورى الممثل لحزب البعث : وفى لون من استعراض القوة :تكلم أحد المتفلسفين من أعضاء هذا الوفد . تكلم «منجعصا» على مقعده كأنه نصف «إمبراطور» ثم لم يلبث عندما حمى الكلام -أن اخذ يقفز ويجلس فى مثل حركات راقصى «الدبكة» أو لاعبى «السيرك» وقد انتابه شبة هذيان هستيرى وهو يسال -يسألنا نحن الفلاحين المسلمين القادمين من مصر .

قال البعثى الفيلسوف:

ما هو الرباط بين الاشتراكية إذا كنتم أخذتم بها -وبين الدين ؟وما هو المعنى لحركة «ثورة»إن لم تكن تغييرا للواقع ، واستئصالاً لكل الماضى من جذوره ؟ أو لماذا -وهو المهم -لم تأخذ مصر بمنهج البعث الذى يجمع مع دعوة القومية خطأ أيديولوجياً يتقدم به المجتمع على أساس غير دينى ؟

قلنا له : بكل هدوء إنك مع الكلام الجميل قد تركت التعرض للقضية الأساسية التى تحمل لكل العرب جميع الإجابات عن الحل ..!

فقال : وهو ينتفض فى مكانه ويقترب بمقعده : حدثونى إذن ما هى هذه القضية الأساسية ؟وحملق فينا بعينيه كالممسوس أو الشارب ؟ قلت له : إن الحقيقة التى لا يزال يطرحها علينا التاريخ المسجل : أن كلمة «عربى» لا تعنى مجرد الانتماء القومى للأمة المصرية إنما تعنى بجانب هذا الانتماء القومى

التاريخى «نظرة شاملة» فى تفسير الحياة ، وبناء المجتمع ، وصياغة المستقبل ، وهى نظرية تنبع بطبيعتها فى عقل العربى وفكره ولغته : على أساس الدين وإيماناً بحقائق الدين ؟

وإذا كنتم «أيها البعثيون» تريدون اليوم ،ولأول مرة منذ آلاف السنين أن تفصلوا بنظريات «غير علمية» من كلمة «عربى» وما تدل عليه من احتوائها على نظرية شاملة للحياة وما بعد الحياة لها أساس دينى فقولوا لنا إذن: ما هو معنى كلمة «عربى» .بمفهومكم البعثى أو بأى مفهوم آخر ؟ فأغمض الفيلسوف عينيه ثم فتحها .. و لم يتكلم !!

وقد حضر بعض الطلبة الألمان وشاهدوا هذا الحوار الساخن بين الأشقاء العرب ،وان كانوا بالطبع لم يفهموا منه كلمة واحدة ،وكأنما أدرك أحدهم فى لحظات الصمت والوجوم إننا وصلنا إلى مرحلة حرجة فأراد أن يجدد النشاط فطلب من المترجم أن يسأل أعضاء الوفد المصرى هذا السؤال:

هل صحيح أنكم تأكلون لحم الجمل ، وتحرمون لحم الخنزير ؟

وضحكنا كثيراً لهذه المفاجأة. وقال أحد أعضاء الوفد - ونحن نتهيأ للانصراف -:نعم نحن نفعل ذلك لان هناك حكمة قديمة تقول إن طباع كل شعب تتحدد بطباع الحيوان الذى يأكله!؟ و لم يكد الحوار الساخن ينتهى بيننا وبين مجموعة الوفد السورى «البعثى» حتى كانت الأخبار . وربما كانت التسجيلات الصوتية الكاملة قد وصلت إلى إدارة المدرسة «التى كنا نقيم فيها» .

وقد اصبح واضحاً أن الفرسان الثلاثة من المترجمين العرب- الماركسيين بالضرورة- والذين اختارتهم إدارة المدرسة للقيام بالترجمة من العربية إلى الألمانية والعكس -هؤلاء المترجمون العرب -اسماً- ،الماركسيون الشيوعيون - حقيقة- كانوا عيوناً مفتحة علينا تراقب أقوالنا وتحاول النفاذ إلى أعماق أفكارنا من الداخل لتنقل إلى المسئولين «الشيوعيين» صورة تقريبية لها !!

يقول المؤلف:

كنت لا أثق شخصياً فى المترجم «على السودانى» الذى كان يتطوع بنشر الدعوة إلى الإلحاد ويناقش بوصفه مسلماً «سابقاً» فى بعض معانى آيات القرآن التى لم يكن يفهمها إلا بالمقلوب .

وكثيراً ما كان وجهه يتورم حنقاً عندما يوضع جهله بمعانى القرآن أمام مرآة صافية تعكس له هذا الجهل وتؤكد عجزه التام عن التطاول على القرآن أو على بنائه المتين وبيانه المبين.

أما المترجم السورى إسماعيل السراج فإنه لم يكن ليمتنع -ومعه المترجمة السورية الشركسية «نيفين» عن تقديم المعلومات المتاحة عنا إلى إدارة المدرسة بانتظام ، فقد كان هذا واجبهما الأساسى ؟ وهكذا لم نستغرب – بعد لقائنا مع البعثيين السوريين – هذه الإشاعة التى تقول : لم لا تكون مصر قد أرسلت إلينا عدداً من المثقفين داخل الجلاليب كـ «بالون» اختبار؟

لقد خرجت هذه الإشاعة وظلت تتحرك حتى وصلت إلى عدد من المثقفين الماركسيين العرب الذين يدرسون فى جامعتى «مارتن لوثر»و«كارل ماركس»وكان من حظنا أن نعلم بوجود هذه الإشاعة ، وعندها توقعنا أن يكون رد الفعل «هجمة مباغتة» من بعض هؤلاء تأخذ شكل الزيارة الودية؟

و لم يلبث هذا التوقع أن تحقق، لقد هبطوا كما يهبط المظليون المحترفون على قلعة حصينة لاقتحامها من الداخل .وبدأ الحوار وانهالت الأسئلة و لم يكن هذا الحوار ولا تلك الأسئلة إلا هجوماً على الدين وتقليلاً من شأنه فى قلوب المؤمنين ؟

كانت القاعدة التى انطلقت منها هذه «الصواريخ» الصبيانية تركز أساساً على التهوين من شأن الدين وان الخلاف بين الدين والاشتراكية راسخ ومتين ،ومن نماذج هذه الأسئلة التى وجهها الماركسيون :

إذا لم يكن التطبيق العربى للاشتراكية مرحلة من مراحل التحويل السلمى إلى الماركسية ،فلماذا هذه الحالة من عدم الوفاق بين الثورة وبين الجماعات التى تدعو إلى الدين؟

وهل تعتقدون حقاً: انه من الممكن تنظير الإسلام ليقف نظرياً فى مواجهة الماركسية والرأسمالية؟ ثم انفجر سؤال عثر عليه أحدهم فى «المخزن» فقال :لقد انتهت أوربا من قضية وجود «ا لله» فهل ترى أن العرب لا يزالون -مع الاشتراكية- يحتاجون إلى وجود ا لله؟

يقول المؤلف : قلت : وأنا أطيل النظر إلى وجه السائل المتقع :

قلت : إن المبدأ الأول فى الجدول الماركسى يؤكد أن هناك «تعلقاً فعلاً» بين أجزاء الواقع المختلفة فالفرد ليس إلا معنى مجرداً لأنه ذو علاقة بالفعل الذى تقوم به الكائنات المحيطة به ، فهل لا زلتم تعتقدون فى هذا المبدأ؟

قالوا : نعم ،نعم؟

قلت لهم : لا تعجبوا إذا قلت إن القرآن يقرر هذا المبدأ ، وأن العرب قبل الإسلام تحدثوا عن هذا المبدأ وعلينا الآن أن نجرب معاً تطبيقه على الإنسان الأوربى من حيث هذا «الحيز الحقيقي الذى يراه من العالم والواقع» أى عن المادة وحركتها ، هذا الحيز الذى يعكس مثاليات المادة عن طريق الحواس والمخ على فكر الإنسان هذا الحيز المادى الذى يشبه «العينة» التى ينقلها العالم إلى معمله ليحللها ويستخرج القوانين العلمية منها .

أقول إن الإنسان الأوربى لا يرى -فى الحقيقة- فى مثل مناخ أوربا المعتم القابض بالبرودة اكثر من «حيز مادى» فاقد الدلالة على أجزاء الواقع بفعاليتها مع نفسها ، وداخل نفس الإنسان. إن أجزاء هذا الواقع ناقصة ومبهمة ومتباعدة فى المشهد الطليعى المغلق الذى يراه الأوربى من حركة العالم لهذا تضاربت أفكار فلاسفة أوربا أمثال «ديكارت وهيجل وماركس»

لأن العينات التى فحصوها بالتفكير من اجل تفسير الوجود كانت ناقصة ومضللة؟

إن «كارل ماركس» كان لا يرى اكثر من غرفته التى يملأها دخان غليونه أو عشرات السنتيمترات خارج نافذته ،أو مدى رؤيته لموضع أقدامه ، وهو يسير فى الطريق منكس الرأس داخل معطفه ، بينما الإنسان العربى الذى آمن با لله -كان ومنذ آلاف السنين- يعيش ويرى خلال حركته المنتظمة والمندمجة فى الواقع والمعبرة عن الواقع : قطاعاً كاملاً من هذا الوجود المنسق ، يجمع بين السماء والأرض ؟

لقد أتيح لهذا الإنسان أن يعرف «ا لله» ويؤمن به وان يسميه باسمه «ا لله» الذى لا يعنى لهذه الإشارة إليه فى الغيب أى تجسيد بشرى ونحن العرب المسلمين لا نعترض على أفكار الشعوب ولا نعترض على «الماركسية» و«الرأسمالية» فى بلادهم و إنما نعترض على محاولات فرض ذلك علينا نحن المؤمنين با لله ورسوله؟

ويقول الأستاذ أحمد موسى سالم : كان التناقض الذى عمد الألمان «الشيوعيون» إلى تفجيره بيننا وبين الأخوه السودانيين قد تهيأ له المناخ المناسب أخيراً ليفجر ، وكان ذلك -بالضبط- عندما اعد الأخوة السودانيون لندوتهم التى أقاموها بعد ندوتنا فى قرية «تاوندروف» القريبة من «هندروف» تميزت الندوة التى ساعد الألمان على إخراجها بالدعاية السوقية للماركسية، فتصدرت المنصة صور: لينين ،وماركس، واولبرخت رئيس «ألمانيا الشرقية» السابق وكأن السودان كما أراد أن يظهره هؤلاء الأدعياء المجذوبون - هو رغم أنفه: عضو فى الكتلة الشرقية ،وكانت فرصة لنا أن نسمع - من كلمة رئيس الوفد السودانى -«سماريت» كل ما اتفقت عليه - ضد الإسلام - آراء الصائبة من الماركسيين العرب المختلى الشعور داخل

مجتمعاتهم الباطنية، وفـي دهـاليزهم المعتمـة ، وراء حـدود الوطـن الأم عندمـا يحتضنهم الحزب الماركسى بوساوسه؟

لقد بدأ «سماريت» هذيانه بالكلام عن موقع السودان جغرافيا وسط تسع دول ليضعـف مـن انتمائـه الطبيعـى للأمـة العربيـة ، وهـاجم عندئـذ مصـر والمصريين، والجيش المصرى، ومن هذه النقطة قفز إلى قصة التخلف «الفظيع» الذى جلبه الإسلام على كل من الرجال والنساء فى السودان، و لم يكن غريبـاً وان كان إشفاقاً أن يظل هذا المعتوه المسخر فـى حديث المظـالم التـى ألحقهـا الإسلام بالمرأة حين اصبح الرجال به «قوامون على النساء»وحـين لم يسـاوهم بالرجل فى الميراث ثـم عندمـا زعـم : أن بعـض الرجعيـين يتكلمـون الآن فـى الوطن العربى عن تحرير المـرأة، والحقيقـة انهـم اعداؤهـا -أى أن التحريـر فـى نظره هو تجرع العرب لدكتاتورية العمال ، بروتوكولات ماركس التى أباحت له أن يسكر كل ليلة ، وان يبهت بعد ذلك بجسده ولونه على من تقع لـه، أو يقع لها ، من المتحـررات الماركسـيات الممزقـات نفسيا وإنسـانيا بمقـاييس أى مجتمع حر؟

كان من الحتم أن نتصدى له وان ندافع -رغم انفه المتـورم- عـن الرجـل السودانى والمرأة السودانية اللذين حملا السلاح فى وجه الاسـتعمار، وشـرحنا أمام الألمان كيف أن بين السودانيات كثيرات جدًا مـن البطـلات والشـهيدات ،وان تحميل الإسلام أوزار الاستعمار ليس إلا تدليسا مخجلا ، بـل هـو جريمـة يجب ألا تتورط فيها الماركسية وألا يأخذها الألمان الماركسيون مأخذ الجد ؟ ومن أجل هذا ،وبعـد إحـراج رئيـس الوفـد السـودانى إحراجًا مهينـا تلقيـت الدعـوة إلى لقـاء ونـدوة مـع لجنـة السـيدات فـى «تـاوندروف» بكثـير مـن الترحاب ، واعتبرنا أن هذا اللقاء الـذى سيتم ولاشـك بوصفنـا مسـلمين مـع عدد من القيادات النساء الألمانيات بوصفهن ماركسيات سيتيح لنا إلقاء بعـض الضوء على حقائق الموقف الإنسـانى الفريـد الـذى وقفـه الإسـلام مـن تـأكيد مساواة المرأة إنسانيًا بالرجل مع تقديمها عليه فى الرعاية ومع إتاحة الحريـة لهـا

فى نفسها وقلبها ومالها فى حدود هذه الشريعة التى لا تزال قادرة على تجديد عطائها الإنسانى للرجل والمرأة فى هذا العصر.

عندما وصلنا إلى مكان الندوة أجلسونا على منصة مشرفة على القاعة ، وكان إخواننا من السودانيين الشيوعيين والاشتراكيين على جنب منا ، بينما وقف المترجم السودانى إلى جانبى ينتظر إطلاق القذيفة الأولى ليبدأ عمله الرسمى ؟

و لم تلبث الطلقة الأولى أن وصلت إلينا تزغرد فوق رؤوسنا من خندق النساء حاملة إلينا هذا السؤال المصبوب فى اخبث قوالب الدهاء و السؤال هو:

لماذا لم تحضروا زوجاتكم معكم ؟

وكان الجواب :

لقد كان من احب الأشياء لنا ولزوجاتنا أن نصحبهن معنا إلى بلادكم الجميلة ،ولكن موعد حضورنا صادف زراعة القمح المبكر فى بلادنا كثيرا عن بلادكم ، ونساؤنا لا يضيعن فرصة زراعة الأرض إذا غاب أزواجهن فى رحلة كهذه نقطعها إلى بلادكم لنتعلم ؟

وقوبل هذا الاعتذار بالموافقة الجماعية من السيدات ودار الهمس والضحك و الابتسام بينهن ، وجاء السؤال الثانى سريعا :

هل صحيح أن الإسلام يحبس المرأة فى البيت أو يمنعها من التعليم والعمل، ولا يسوى بينها وبين الرجل فى الميراث ؟

وقد أجاب المؤلف عن ذلك إجابة توضح موقف الإسلام من هذه القضية وكيف أعطى المرأة حقوقًا لم تكن معروفة عند العرب ولا فى حضارة الرومان والهند أو فى أوربا عندما كان رجال الكنيسة يعتبرونها فاقدة الإنسانية بالنسبة للرجل وتستحق اللعنة وان الشيطان لا يظهر إلا فى صورتها ؟

ثم شرح المؤلف الحكمة من تعدد الزوجات ، وانه حلال بشرط العدل والمساواة بين الزوجات وبين فضيلة هذا الأمر فى بناء الأمم وتقويتها والأسباب الداعية إليه من واقع الحياة و مشكلاتها الخ، الخ .

وجاء سؤال من سيدة صغيرة السن فى لهجة اقرب إلى التحدى :

قالت: هل لا يزال نظام الحريم سائدا فى مصر ؟

يقول المؤلف :

فقلت انه سائد الآن تماما فى أوربا تحت عنوان التحرر ووراء واجهات محلات بيع المتعة والشذوذ وأما الحريم الذى نسبه الأوربيون إلى المسلمين . فاصله أوربى وان المسلمين لم يعرفوا «الحريم» إلا على أيدى الشعوب الآرية التى دخلت فى الإسلام وفى جوفها كثير من معتقداتها الإباحية القديمة ؟

وقالت سائلة أخرى :

وانتم لا تشربون الخمر فهل نسائكم لا يشربنها أيضا ؟

قلت إننى اكتفى بالرد على هذا السؤال بأن انفى تهمة شرب الخمر عن نسائنا فى الريف وان اكتفى فى إيضاح الأسباب بقول تشيكوف فى سياق قصته «الفلاحون» وهو يصف حالة الفلاح الروسى التعسة أيام القيصرية -:

«كان الفلاح الروسى يقاسى من الجوع والجهل والمرض والفودكا» .

❁ ❁ ❁

إننى لا استعرض هذا الكتاب وإنما أقوم بدور «المصور»الذى يلتقط صورة من هنا وصورة من هناك ليجعل من هذه الصورة ««صورة جديدة»» تحدد ملامح هذه النظريات التى ابتلى بها المسلمون في فترة حالكة من تاريخهم المعاصر.

فالشيوعيون عادة يلجأون إلى التحايل والخداع « تكتيكياً»حين يصطدمون بجدار العقيدة الدينية التى تقف حجر عثرة فى طريق زحفهم الدموى إلى السلطة ، ومن ثم يتظاهرون بالتدين -تظاهرا- من الظاهر فإذا ما خلا لهم الجو ، وسقطت الأقنعة الزائفة التى يتقنعون بها ظهروا على حقيقتهم البشعة أناسا تجردوا من القيم و الفضائل و لم يكن «سماريت» الشيوعى السودانى إلا نموذجا مشابها لهذا التضليل بالباطل .

يقال هذا الكلام نفسه عن البعثيين الذين أتقنوا هذا الدور الذى يمثله الشيوعيين فى وقتنا الحاضر فهم هنا فى الوطن «الأم»يظهرون غير حقيقتهم الكامنة فى الباطن ... فإذا ما أتيحت الفرصة لإظهار خبيئتهم فعلوا ما فعله الشيوعيون من غير خباء وبدون ساتر ...؟

والمأساة تكمن هنا فى انخداع الشعوب بالأشكال والمظاهر ، وفى استهوائها بمعسول القول وأفانين الحيل والتآمر ؟

إن الشيوعية تنحسر فى أقطارها انحسار المد فى الظلام الداهم ، والبعث - تحول إلى «موت» على أيدى الرفاق المتناحرين فى مختلف العواصم .

لقد زرت برلين الشرقية مرتين ..و لم انس ذلك اليوم الذى ركبت فيه الطائرة من لندن .. قضت ليلة فى برلين الغربية ، وفى الصباح توجهت قاصدا برلين الأخرى مرورا بالبوابة الشهيرة وعبورا للخيط الرفيع الفاصل بين المدينة الممزقة .. وعند نقطة الحراسة قدمت جواز سفرى إلى الجنود المقيمين بهذه النقطة ..كانوا خليطا من الألمان الغربيين والأمريكيين والفرنسيين والإنجليز قلت لهم :إنى متوجه إلى برلين الشرقية ...و لم أكد اكمل عبارتى حتى قالوا جميعا وفى صوت واحد ، ودون النظر فى جواز السفر اذهب اذهب ، ولو كانوا مسلمين لقالوا : انتم السابقون ، ونحن اللاحقون ، وإنا لله وان إليه راجعون .!!

عبرت الخيط الفاصل بين الشرق والغرب ، وان شئت فقل :بين الحياة والموت ، هل هى مبالغة منى ؟ لنر أولا : ماذا حدث فى أول لقاء مع الأصدقاء الشيوعيين ،امسكوا جواز السفر ...نصف ساعة كاملة ، يراجعون فيها الصفحات والكلمات تعجبت لأننى مصرى ...والزعماء والقادة يتحدثون عن الصداقة المتينة والعلاقات الوثيقة بين برلين والقاهرة فإذا كانت هذه المعاملة مع أبناء الشعوب الصديقة فكيف لو كنت قادما من تونس أو السعودية .؟

أخذت الجواز وانطلقت إلى مكتب ثان .

ماذا تحمل من كتب أو مطبوعات أو صحف .. نصف ساعة أخرى فى «استجواب» نازى شيوعى ثم انطلقت إلى مكتب ثالث ؟

ماذا تحمل من نقود ؟ مارك ألمانى «غربى» إسترلينى ؟ دولار ؟

قلت : معى بعض الدولارات ! وبلوعة الظامئ المشرف على الموت قالت المرأة العجوز :

أعطنى أعطنى ؟

وأعطيتها ما معى لاستبدالها بعملة رديئة لا وزن لها فى الجيب أو القلب وانطلقت .. ابحث عن سيارة لم أجد ... مشيت حتى تعبت ، سألت رجلاً : أن يرشدنى إلى سيارة تحملنى إلى المطار لقد كنت عائدا إلى بيروت على متن «انترفلوج».. و لم تكد السيارة تتحرك حتى توقفت أمام نقطة حراسة ونزلت؟

أين جواز سفرك ؟ فحصوا الجواز وانطلقت السيارة ؟ ثم توقفت أمام نقطة ثانية ..وثالثة.. الكل يسأل عن جواز السفر .

أخيرًا ..وصلت إلى المطار ، وأى مطار ؟ إن تسميته بالمطار فيه كثير من التجاوز .. سكة حديد القاهرة اجمل منه فى نظرى ألف مرة ؟ وللأمانة

والحق. كان ذلك فى سنة ١٩٧٠ ربما يكون ذلك قد تغير فإنى لم أره بعد ذلك .. و لم أفكر فى رؤيته أبدًا .

أخذت مكانى فوق أحد المقاعد ،مقاعد محطات السكة الحديد فى الريف لا القاهرة ابحث عن شىء آكله ، لاشىء ..بعد ساعة حضرت «عجوز» وأخذت مكانها فى كشك تبيع فيه الحلوى..

اشتريت قطعة من «الشيكولاته»و لم تكد تلمس فمى حتى وضعتها على المقعد بجوارى .. وتسميتها بـ «الحلوى» من باب «عموم البلوى».....

أهذه هى المانيا «الديمقراطية» الشعبية ..الشيوعية ؟ألا فلتذهب إلى الجحيم كل هذه الشعارات الزائفة .



والحمد لله ..

فقد ذهبت كل هذه الشعارات إلى الجحيم فعلا .!!!

الفهرس